السعادة والسلام

اللورد أفبري

◆ المؤلف: اللورد أفبري
◆ العنوان : السعادة والسلام
◆ ترجمة : وديع البستاني
◆ طبعة آفاق الأولى 2022
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢١ / ٢٧٤١٢
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 321 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

اللورد أفبري

السعادة والسلام

تعريب

وديع البستاني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

أفبري، اللورد.

اللورد أفبري : السعادة والسلام

تعريب: وديع البستاني

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2022

272 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 27412 / 2021

الترقيم الدولي 3 – 321 – 765 – 977 – 978

1 – العنوان

2 – أفبري، اللورد

إهداء الكتاب

Dedicated

to

Mr Edward Hood

as a token of Oriental gratitude for Western education,

with my warmest wishes for his «peace and happiness»

Wadih Boustany

إلى المستر إدوارد هود

دلالةً على اعتراف الشرقيين بفضل الغربيين على العلم والتهذيب، متمنيًا له كل سعادة وسلام.

وديع البستاني

مقدمة

للناشئتين المصرية والسورية سعادة وسلام!

إليكم إخواني في الشبيبة حديثًا فلسفيًّا شعريًّا في الحياة وسعادتها وسلامها، وسائر أحوال أيامها وأعوامها، يبسطهُ شيخ جليل وعالم كبير، قطع من مراحل الحياة ما لم نقطع، واختبر فيها ما لم نختبر، حديثًا موجّهًا للعقل والقلب والنفس جميعًا.

أجل، إخواني، إني كلفتُ منذ الصغر بمطالعة أمثال هذا الكتاب، وقد شجعني إقبالكم على «معنى الحياة»[1] الذي نشرته العام الماضي، فامتثلت لإيعاز مؤلّفه الكريم إليَّ بترجمة مؤلَّفه هذا أيضًا، فما أنا إذَنْ إلَّا الترجمان بينكم وبينه، وعساني قد قمت بواجباتي نحوكم ونحوه، وحسبي صدق النية إن فاتتني الأمنية، والسلام.

وديع البستاني

القاهرة ٦ ديسمبر ١٩١٠

---

(١) تأليف اللورد أفبري، نشر وديع البستاني ترجمته لأول مرة عام ١٩٠٩. (المحرر)..

الفصل الأول

في السعادة

أهمية الموضوع- منية الجميع- الفوز بالسعادة والهناء- تقديم النصائح- أمثولة الحياة- إشكال الحياة- واجب السعادة- الحكم على النفس- جهالة الغضب- كظم الغيظ- إمكان الصلاح- المسرات- أبيقوروس- رواية قديمة- الشقاء وأسبابه- منفعة الألم- المصائب الفكرية- الخطيئة- الحظ- ضرورة الشغل- الكسل- الاجتهاد- الاعتبار بسائر الأمم- البرميون - اليابانيون- المدنية والعلم- العقل- حدود المعرفة- المبدآن في الحياة- اعتزال الناس ونفع الإنسانية- الراحة- يوم الأحد- أوقات الفراغ وعظم أهميتها.

كلنا نتمنى السعادة والهناء. وماذا عسانا أن نتمنى أكثر ولماذا نرضى بأقلّ؟ ولقد يُشك في إمكانية الفوز بالهناء دون السعادة أو بالسعادة دون الهناء. فالسؤال المهم إذَنْ: كيف يُنال أحدهما أو كلاهما جميعًا؟

المال لا يسعدنا. النجاح لا يسعدنا. الأصدقاء لا تسعدنا. ولا الصحة ولا القوة تسعداننا. أجل! جميع هذه الأمور تدعو إلى السعادة ولكن أيها يُبلغ إليها ويكفل الرتوع في بحبوحة بركاتها؟ وقد تجود الطبيعة علينا بما في يدها فتمنحنا صيتًا طائرًا وصحة وعافية ومالًا طائلًا وعمرًا طويلًا- إلا أن يدها تقصر عن إسعادنا. وكل فرد له وعليه أن يُسعد نفسه بنفسه. وكفانا بالمتداول على الألسنة دليلًا إلى حقيقة ضالّة ننشدها؛ إذ ماذا نقول عشية نهار سعيد سحبنا مع سحابته ذيول السعادة وجررناها؟ ألا نقول: «رحنا اليوم روّحنا النفس وطيبناها» أو ما شاكل وأشبه؟

نعم! سعادتنا لنا وعلينا. إنما نحن مختلفون الفرد عن الآخر أحوالًا وحالات، ومتفاوتون أعمارًا، ومتباينون واجبات ومكتسبات، بحيث قد يخال وضع الأصول والقواعد ضربًا من المحال، ويُعد مجرد النصح والإشارة تهجمًا وجسارة. هذا وإن يكن ڤارّو سبق فأتى أهل زمانه بـ٢٨٨ رأيًا من آراء الفلاسفة في السعادة.

وحسبنا أن نعتبر بحالة المتقدمين في سبيل الحياة من رجال ونساء؛ إذ نرى حتى المفلح الموفق منهم لا ينظر إلى ما قطع من مراحل هذه العاجلة إلا بعين التأسف لهفوات كان في غنى عنها، وتجارب كان يتسنى له التغلب عليها، أو زلّات كان يمكنهُ تجنبها - لو أنهُ كان يعلم في تلك الأحايين ما صار يعلمهُ الآن، ولو كان عنده بعض الاختبار الذي من دون أدنى كلفة أو أقلّ مشقة يجعل حياة المرء أبهى سناء وأسعد أيامًا وأجزل نفعًا.

بل اعتبر بآخر ما فاه به ثيودور پاركر وهو على فراش الموت، مع أنه كان مفعم الصدر حكمة ومعرفة: «أواه! حبذا لو كنت عرفت فن الحياة أو وجدت كتابًا أو إنسانًا يعلمني كيف كان يجب أن أعيش وأدرس وأروّض بدني».

ومما يؤثر عن أهالي أثينا القدماء اتباعهم لسنّة كانوا بموجبها يعاقبون بالقتل أي من حمل شمعة ومنع غيره من الاقتباس من نارها. فحلالٌ إذَنْ أن نقتبس -ممن عنده- نورًا نضيء به ظلمة قلوبنا ونفوسنا.

قال بلوتارك المؤرخ الشهير: «كنت في أول الأمر إذا دوّنت التراجم فلأجل اطلاع غيري عليها. فما لبثت أن صرت أدقق فيها وأسرّ بتحبيرها أبدًا باذلًا جهدي في سبيل اقتفاء آثار مَنْ أُترجم، مطبقًا سيرتي على رسم سيرته متشبهًا بمثاله المنجلي أمامي في مرآة الفكر. وهكذا بفضل اشتغالنا بالتواريخ ومزاولتنا تسطيرها، قد نسلم من العثار إذا اعترضت سبيلنا الدنايا والشرور؛ بأن نصد الفكر عنها ونحوله إلى أولئك الأعلام الذين لا تفتأ تنغرس تذكاراتهم في عقولنا ونفوسنا».

ونظريًّا، إن لم يكن الجميع، فالسواد الأعظم متفقون على أن السعادة والطمأنينة من أعظم البركات. أما فعليًّا، فكثير مَن يبيعهما مغبونًا مؤثرًا الثروة أو القوة أو الشهرة عليهما.

لا مراء، صعبة هي الحياة! «الطبيعة كثيرًا ما تختفي فلا تظهر، وقد يُستظهر عليها أحيانًا، ولكن نادرًا ما تعدم وتزول. القوة تعيرها قوة والسنة والعقيدة قد يخففان من سورتها، ويضعفان من صولتها، أما ما يذللها ويبدّلها فهو العادة لا غير»[1].

ليست الحياة صورة في صفحة أو صفحة كاملة من كتاب، بل هي جزء كبير بصفحات وفصول ليس بالسهل قراءتها وفهمها. ونقول «العالم» والحق إننا لفي عوالم، وإن كل فرد يخلق عالمه لنفسه.

كل الناس ينشدون السعادة، وقليل مَنْ يجدها. والحكمة أن يبحث المرء عن رغائب وأميال لا أن يسعى في طلب المسرات. والذين لا يهتمون ولا يرزنون في حداثتهم، فالاكتئاب ينتظرهم، وسينال منهم إذا كبروا وشاخوا بينما «الذين يزرعون بالدموع، يحصدون بالابتهاج»[2]، ولقد قال سليمان الحكيم: «محب الفرح إنسان معوز، ومحب الخمرة والدهن لا يستغني»[3].

وقد أكبر توماس إكمبس شأن هذه الحقيقة وغالى فيها، وقال: «هذا هو الحق الصراح: الاثنان لا يجتمعان - أعلى الأرض سرور وابتهاج،

(١) بايكون.
(٢) المزامير.
(٣) أمثال سليمان.

وفي السماء ميراث أبدي».

قال مكس مولّر: «إنها لخطيئة حقيقة أن لا يكون المرء سعيدًا». فلنذكر قوله هذا وقول باسكال التالي: «فلنعرف إذَنْ حدنا وغاية جهدنا. أجل إننا شيءٌ ما في هذا الوجود، ولكننا لسنا كل شيء».

ولا أهم من أن نرسخ في نفوسنا تصورًا عادلًا عن هذه الحياة؛ لكيلا تقلقنا صروف الدهر وتقلباته، ولنكون مستعدين لمقابلة أي وجه تديره لنا الأيام، ثابتين تجاه الإفلاح والحبوط، أمام الظفر والفشل على الخوف والأمل في الصحة والسقام والمسرات والآلام، وفي الأفراح والأحزان، ولدى التذكارات الحلوة والتأسفات الباطلة.

«طالما أنت على هذه الأرض تمتع بما فيها من الصالحات؛ لأنها لأجل ذلك خُلقت. ولا تكتئب ولا تبتئس، بل احسب نفسك في السماء»[1]، والذين لا يعرفون قيمة الحياة، لا شك أنهم لا يستحقونها، والسعادة بحسب تعاليم المسيح ليست جزاء الواجب فقط، بل هي نفسها أعظم الواجبات.

ولعل ضبط النفس والتسلط عليها أهمّ ما يكون في ابتغاء السعادة، ولله درّ تنسون القائل:

نفسك اعرفها اعتبرها واحكمنْ ثم في القوَّة أمّل واطمعنْ

وإخاله يعني القوة الحقيقية -القوة الفضلى التي يحق الافتخار بها- ألا وهي قوة المرء على نفسه.

---

(١) سلدن.

أجل كل فرد مملوك ومحكوم عليه، على حين الأفضل أن يحكم الإنسان نفسه ويملكها عن غيره. ولكن يا للعجب! إننا نتحمل من شيم الغير وأطوارهم ما لا طاقة لنا عليه لو رأيناه من أنفسنا. وزد على ذلك أننا قد نتحرر من رقّ سوانا وننجو من كلمهم، أما ربقة أهوائنا فلا تسقط عن أعناقنا. وعدم الطاعة لأحد خير من الإمرة على كل أحد. وكذلك تسلطك على نفسك خير من الحكم على الآخرين والتسلُّط عليهم. وإنه لواجب على كل إنسان أن يستخرج من نفسه خير ما فيها ويظهرها للملأ؛ إذ كما قال تنسون:

ليس حب النفس ذنبًا فاحشًا إنما إهمالها الذنب العظيم

وقد قيل إن الناس يتسلط عليهم أحد اثنين: إما العقل وإما الهوى. أما الهوى فسيد متقلب الأطوار يرمي بعبيده في كل تهلكة وخطر. ومَن كان لا يستطيع التسوّد على نفسه، فأنّى له أن يتطلَّب السؤدد على الآخرين! وأما «سيّد نفسهِ وأميرها، فلا يلبث أن يبيت سيِّدًا لسواها»[1]، ومَن لا يسود نفسه فالآخرون سائدوه عن قريب. وأي نصيب لغضوب تغلي مراجل حدته مع جلود تخمد نيران غيظه؟ وكم أجاد سينكا بقوله: «الغضب كالمطر يتذرَّر ويتفلَّق مما ينصب ويصيب». فاكبح جماح الحدة ما استطعت، واذكر أنهُ إذا كان الحق بجانبك، فزمام طبعك في قبضة يدك لا محالة. روى الفيلسوف سينكا أن الفيلسوف ديموقراطوس كان يضحك من جهالة البشر وحمقهم، بينما هريكليتوس كان يبكي من أجل ذلك. ثم قال: «ولكن من سمع يا ترى بفيلسوف غضبان؟». وإذا

(١) بايكون.

تمكنت من معرفة حروف الهجاء ومن معرفة نفسك، فقد أمكنك كل شيء. ليس الثاني بالسهل ولا الأول. وكم ينسى الكبار صعوبة تعلم الألف باء... إلَّا أنها تتعلم مرة في الحياة، وكلنا تضلعنا منها منذ الصغر، أما التمكن من النفس فيقتضي له مراقبة وسهر دائمان. وكل واحد يمكنه تحقيق هذه الأمنية فيتغلب على نفسه إذا قصد وأراد. ولقد يتعذر أن يكون الجميع ساسة محنكين أو فنيين متفننين أو فلاسفة معدودين، ولكن الألزم والأهمّ والأوْلَى أن نكون أولًا من عداد الأخيار الصالحين، وذلك لنا أن نخترهُ – فلنخترهُ ونتوخّه غاية هي غاية الغايات. «حسن حالنا وسوءُها متوقفان علينا والباقي على الله»[1]، والذي يشقي المرء إنما هو العالمُ الذي في صدره، وليس العالمُ الذي يعيش فيه. نصلي ونطلب ألَّا نُقاد إلى التجارب، وتسعًا وتسعون مرة من مائة إنما نحن القائدون أنفسنا إلى مهاويها.

ونِعمَ ما قالتهُ مسز برونن من أننا لا نهتم بنفوسنا اهتمامنا باشتغال الحديد. وحقًّا أن القلب كثيرًا ما يضارع الحديد صلابة وقسوةً. أما الإرادة فهي أصلب من الحديد وأقوى، أو يجب أن تكون كذلك، ومحدودة هي صلابة الحجر والحديد. فقطرات ماء تذيب الصخر وتفتتهُ. فأحرِ بالإرادة (صدق العزيمة) أن تكون أكثر من الماء تأثيرًا ومفعولًا. ومن تلفت حاله، فما غير نفسه من جانٍ عليها.

يفتخر الإنجليز بكونهم أحرارًا، على أن الحرية حريتان: الباطلة وهي أن تفعل ما تشاء، والحقة وهي أن تفعل ما يجب. وكثيرون

(١) جوبرت.

يحسبون الثروة تغني عن العمل ويفرغ معها الوقت، وأن الفراغ تملؤه المسرات والملذات. لكن أي نوع من المسرات؟ إذ فرق عظيم وبون شاسع ما بين المسرات الزائفة والمسرات الحقيقية. فالأول تمرّ مرّ السحاب، والثانية تستمر وتدوم. المسرات الحقيقية تشتري سلفًا، أما الفاسدة فيدفع ثمنها بعد حين ومع الربا والفوائد الفاحشة. وما أصدق قول توماس أكمبس: «يُقبل الفرح الجسدي بثغر بسام، لكنهُ يعض ويقتل في آخر الأمر». المسرات الباطلة تأتينا من الخارج ومما حولنا وهي أبدًا ناقصة، أما السعادة فشعور داخلي هو فينا ولنا.

قال السير جورج كورنوال لوس: «لكانت الحياة محتملة لولا ملاهيها»، أو كما قالت مدام دي سڤيني: «نحن بين المسرات ولا نعرف دقيقة فرح»، وألفرد أوستن يقول: «الهدوء والسكينة خير أفراحنا جميعًا».

ومن لنا بوصف السعادة! إنها لا تُوصف. وهاك ما قاله شكسبير بهذا المعنى: «الهدوء والسكينة هما رائدا الفرح، وما أقل سروري إذا كنت أستطيع أن أصفهُ لك». وفي نظر أبقراط: «الإنسان لا يقدر أن يعيش براحة إلَّا إذا كان يعيش بشرف وعدل وحكمة، وإذا عاش على الحكمة والعدل والشرف، فمن المستحيل أن يعيش على غير الراحة».

قيل إنهُ ما إن فرغ الآلهة من شأن الخليقة حتى أعلنوا للبشر أنهم سيقتسموا الأرض فيما بينهم وضربوا لهم موعدًا لذلك. وما آن الموعد المضروب حتى وضع أهل الزراعة أيديهم على الحقول الممرعة،

وأخذ التجار يمهدون القفار ويسلكون البحار، واحتل الرهبان منحدرات الجبال الصالحة لغرس الكروم، وخصص الأشراف وأبناء الترف الأحراج والغابات لأجل الاصطياد والتنزه، واستولت الملوك على الجسور والمضايق والخلجان لأجل وضع المكوس والضرائب عليها. أما الشاعر فما نجا من حيث كان غريق التأملات العميقة، حتى هبَّ يسعى ووصل فوجد كلًّا قد فاز بنصيبه، فراح يبكي بختَهُ ويطالب بحقه. ولكن ما الحيلة ولم يبقَ في يد الآلهة شيءٌ يُعطى. فقالوا له: «هيَّا تعال اسكن معنا في صفاء السماء الأبدي. تعال إلينا كلما شئت؛ فالباب أبدًا مفتوح لك»، فقنع الشاعر بما أصابه. إلَّا أنه غني عن تكلُّف مشقة الصعود إلى طبقات الجو وطباق السماء، فهو إذا شاء وخلا باله وسكن بلباله، ففكره يستنزل السماء إلى الأرض.

أجل! ليس لأي شاء أن يكون شاعرًا. على أن هذه الدعوة الإلهية تشمل الجميع، وما علينا إلَّا أن نقبلها. لا يتسنى لجميعنا فنكون أصحاب سطوة، أو أغنياء، أو ثاقبي العقول. أما السعادة والصلاح فنصيب كل إنسان. كل واحد يمكنه أن يعيش حياة زاهية زاهرة وجميلة إذا اختار. إن الأمر في يدينا، ننجح ونتوفق إذا اخترنا، إنما إذا استفرغنا الجهد وبذلنا المستطاع، نحن لا نظفر إلى العالم كاملين كما وُلدت فالاس. والأطفال يولدون على البراءة من الذنوب، ولكن ليس على الفضيلة. وحتى الذين لسوء حظهم يرثون ميلًا إلى الشرّ فقد ينجون من شر سلالتهم إن أرادوا. وما العبرة بالحذاقة، بل بمجموع الصفات وقوتها. «العقل ينفع في كل شيء، لكنه لا يكفي تمامًا لشيء ما»؛ فروسو لا ريب في أنه من أحذق

الناس وألبّهم، أما حياته فكانت السعادة بعيدة عنها. ولماذا؟ حبه لذاته، وافتخاره واعتداده بنفسه، أتعساه وأشقياه.

الأحزان والآلام لا بد منها، إلَّا أنها كم يُبالغ فيها وتُعظم.

كثيرون من الناس يشقون أنفسهم من أجل أمور تافهة، أو طفيفة قليلة الأهمية. فمن نظر إلى الأمور مدركًا نسبتها بعضًا لبعض رأى كبيرها صغيرًا وأصلح شأنه، ولكن الناس ميالون إلى التحديق في مصادر الأحزان ومصادر الوجد، معرضون عن مجاري البركات التي تكتنفهم أو كأنهم يحتقرونها؛ لأنها أبدًا تحت أعينهم وأبصارهم. فالمصيبة الصغيرة نتوهمها كبيرة، والبركة الكبيرة تلوح لنا صغيرة، وما أولى الأمر بالعكس.

ليس الأمر شرًّا وضررًا دائمًا، كلَّا ولا هو غالبًا كذلك، فكثيرًا ما يكون علامة خطر تنذر وتحذِّر. وحقًّا لولا الألم لكنا نخسر حياتنا ونموت مرارًا كل يوم، هذا مسلَّم به ومقبول. وليتنا بنفس السهولة نعتبر أن الآلام العقلية لها ذات الشأن، فنحسب الحذر والاهتمام والسهر وقايةً من الخطر والرزيئة، والحزن الوقتي منجاةً من اليأس والقنوط.

من الجهالة أن نشقي النفس ونعذِّبها توقعًا لمصائب قد لا تقع مطلقًا. وتبعًا للمثل القديم لا فائدة من القفز قبل الوصول إلى الحفرة. لا مشاحة أنه يشق علينا نفي الاضطراب وعدم القلق إذا اندفعت أمورنا في غير مجاريها. على أن ذلك محض خرق وجهالة؛ لأنه إن نكن نقدر أن نردَّها إلى حيث نريد فلنفعل، وإلَّا فماذا يجدينا أن نتحسر ونأسف؟ وكثير من متاعب الحياة ليس إلَّا تجارب نُبلى بها فلنحسن البلاء، أو فرصًا تسنح لنا فلنغتنمها.

وإذا كنا غالبًا نكبر المصائب ونزيد في الطنبور نغمات، نتج أننا دائمًا نعجز عن قدر البركات وصممنا عن سماع المطربات. فكم من لمعة خير تلوح لنا كل يوم ولا تستلفت منا نظرًا، على حين ينبغي علينا أن نتلقاها بالبشر والشكر. فبكلمة يجب أن نتمتع بما في يدينا بدلًا من التحرُّق والتشوُّق لما ليس لدينا.

الخطيئة نبع الأحزان الأصلي، وهو خطأ فاحش أن نحسب التوبة نجاة من التبعة. قال جوبرت: «وخس الضمير هو عقاب الجريمة، والتوبة الكفَّارة. فلا تقل إن الصالح هو كل عمل يدعو إلى السعادة، بل إن الصالح وحدهُ هو ما يدعوها ويجلبها».

ولله مخاطبة روسكن لصورة جميلة قولًا بهذا المعنى: «لما أجيل نظري فيها، كل خطأٍ ارتكبته، وكل جهالة فعلتها في حياتي، بل كل ما أتيت من هذا القبيل، يتمثل لي ويسترقني ابتهاجي بها، وكأنما يقصر يدي عن امتلاكها وبصري عن رؤيتها، وفهمي عن إدراك معانيها. كما أن كل همة أبديتها وكل بارقة إصلاح واستقامة لاحت في حياتي تعود إليَّ الآن، وتساعدني على التلذذ بهذه الصورة وبكل جميل».

السعادة والسلام لا يتوقفان على الحظ والبخت. «هو الضعيف العاجز مَن يزعم أن النجاح يتوقف على الحظ بالأكثر. أنا لا أعتقد أصالة بالحظ والطالع والنصيب. والإنسان الذي يعلل نفسهُ ببارقة حسن طالع تلوح في السماء، قد يظل منتظرًا إلى أن يومض له برق صاعقة تنقضّ عليه فتقضي على أمره»[1]. أما أنا فلا أنفي وجود شيء

(١) فردريك تريفن.

كالحظ. ويُروى أن تيموثوس الأثيني بعدما قدم حساب حكومته مكررًا في تقريره عبارة (وهنا لم يكن دخل للحظ والنصيب) ناوأه الزمان من أجل ذلك وما عاد أفلح في مشروع شرع فيه. فاعتقاد المرء بنجم سعده لا يُنكر تأثيره وفعله. واسمع مقالة الفيلسوف بايكون: «الحظ وما أدراك ما هو. هو باعث الشجاعة في الصدور. هو الشعور بأن الأيام لنا ومعنا والخالق فينا الجرأة والإقدام. ومن دون إقدام لا يأتي المرء شيئًا يُذكر. وواحدنا لا يقدم إلَّا إذا كان واثقًا من أن الأيام ستنيله مبتغاه». ومع ذلك فعاجلًا أو آجلًا يتحصحص الحق وينجلي ما كان مبهمًا غامضًا، فيعرف صاحب الإقدام شأن الحظ ودخله في أموره.

أجل إننا نعيش في عالم جميل للغاية، ولكن قليلة هي الصالحات الطيبات التي تنال فيه من دون تعب أو مشقة؛ فهو ليس عالمًا يطمع فيه بالإفلاح والتقدم من كان خوَّار العزم سريع الفشل قليل الأمل. المثابرة - المثابرة المتواصلة الجدية- هي عنوان النجاح والزم لزومياته. فالثبات الثبات!!

طالب الإثراء من محراثـــه ربما انقاد له عاصي الغـــنى

ذاك أن يقبض على نفس لـــه ويسقها نحو هاتيك المنى[1]

النوم - ليس من ينكرا أنهُ من كبرى البركات التي نُمنى بها، إلَّا أنهُ كسائر الخيرات لا بد مع التمتع به من الحكمة والاعتدال؛ فالإكثار منهُ يصيرهُ إحدى اللعنات والضربات.

(١) فبرنكلن

أما الراحة والبطالة فليسا كسلًا، بل هما شيءٌ وهو آخر. هما استعدادٌ، وتجميع قوة للعمل وللتقدم، وهو الابتعاد والفرار من العمل والاجتهاد.

إذا ما الصحة، أو أعوازها أو أي سبب آخر أقعدنا عن العمل وأوصد في وجهنا باب الاجتهاد وأوقفنا عن اتباع خطة مؤداها النجاح، فباب الصبر والتسليم مفتوح لنا، والبطل العاقل من يدخله. كل إنسان يمكنهُ أن يحيا حياة العظمة الأدبية، وغالبًا ما تكون أكاليل الظفر على العذاب أي أكاليل التجلد والتجمل، أشرف وأجمل من غار الانتصار على الصعوبات وتذليلها. وما الذي يمنع من صيرورة كل حياةٍ حياةَ فرح وظفر. «أجسامنا قد يُعبث بها ولا يكون الذنب ذنبنا، أما عقولنا فلا»[1]، فشعوران يجدران أن يلازمانا ملازمة الروح للبدن: ذكر الماضي بالجميل، وانتظار الآتي بالأمل. ولكن الأمل الوطيد لا يكون من دون اتكال وإيمان وكرم نفس وإحسان؛ إذ لا يكفينا أن نعتد بقوتنا الشخصية، بل نحن مثل بروموثيوس محتاجون إلى اقتباس نار من السماء واستمداد قوة علوية.

إنه الخطأ المميت أن نحسب الخلو من الأعمال والبطالة في عداد الامتيازات، والكدح والاجتهاد من نوع العقوبات. «لا حقارة في الشغل، إنما الكسل حقارة هي كل الحقارة»[2]، هذا كان مبدأ هزيود اليوناني، أما بنو أمته فلم يروا رأيه. ولعل تخليهم عن هذا المبدأ العملي ما آل إلى

(١) شيشرون.

(٢) هزيود.

سقوطهم وتقهقرهم. إنهم اهتموا بالفنون الجميلة وروَّضوا أعضاءَها، إلَّا أنهم غفلوا عن رياضة النفس على العمل والاجتهاد، فكان ينقصهم الثبات وضبط النفس والاحتمال، وطول الأناة ومعاودة الشغل ومواصلة قوة أدبية عظمى، وهذه القوة كانت تعوزهم فلم يقتنوها. لا ريب أنهم كانوا أمة عظيمة، إلَّا أنهم لم ينصفوا في احتقار الغير واعتبارهم من سقط المتاع، ولا أحسنوا في ترفعهم عن العمل وتكبرهم على مَن سواهم.

إن أبناء الجنس الأبيض لا يزالون ينظرون بعين الاحتقار إلى من خالفهم لونًا وبشرة، وكان الأجدر بنا أن نقلب الطرف فيهم؛ لنرى ماذا نقدر أن نأخذ عنهم ونتعلم منهم. فالبرميون يكرهون الحرب، واليابانيون يبالغون في احترام البوشيدو. فهل تعلمنا من هؤلاء اعتبار أنبيائنا ومن أولئك حب السلام؟

وإليك شذرة من فقرة عثرت عليها في جريدة التيمز لسنة ١٩٠٤ بخصوص كتاب اليابانيين وتعاليمه، قال كاتبها: «إذا لم نستطع الكلام عن بوشيودو اليابان إيجابيًّا ربما استطعنا سلبيًّا. خذ متوسط طرق المعيشة عند الهيئة الاجتماعية المتوسطة، يكن البوشيدو وإياه على طرفي نقيض، فالبوشيدو يقيم لنا مثال الحاجة لا الثروة والوداعة لا الذل والتستر لا المباهاة، ويحل الذات محل حبها ويُفضل صالح الحكومة على صالح الأفراد. وهو يبعث في الصدر الجرأة والجسارة ويأمر بعدم تولية الأعداء الظهور، ويزيل رهبة الموت ويفضله على أي نوع من العار. يعلم الخضوع للسلطة وتضحية المصالح الخصوصية الشخصية

منها والعائلية على مذبح الخير العام. يطلب من تلاميذه تمام الإذعان لكل تأديب مادِّي وأدبي ويُنمِّي فيهم روحًا حربية. وبتحبيبه بفضائل الثبات والشجاعة والتجلد والأمانة والإقدام وملك زمام النفس، يُصبح مجلة سنية للشرائع الأدبية، ليس للرجل والجندي فقط، بل لعموم الرجال والنساء في وقتي السلم والحرب. فالبوشيدو هو فعلًا روح الأمة اليابانية وهو سر ترقيها إلى مصاف الأمم العظيمة.

يقول «إميل» إن المدنية ليست بالضمير أكثر مما هي بالعلم. أوليست بالاثنين بالأحرى؟ إذ من دون العلم حياتنا المادية أمر مستحيل، وكذلك من دون الضمير الحياة شيء لا يُطاق؛ فالعلم ضروري من ضروريات الجسد والضمير من ضروريات النفس.

العلم جاء الإنسان بما لم يخطر للسحرة ببال. وشتوبريان لم ينصف ولا أصاب بحكمه على العلم ورميه بكل فرية إذ يقول: «إنه يفسد كل ما يصل إليه. فالنباتي لا تهمه نكهة الأزاهر ولا يعبأ ببهاء ألوانها ولا يؤثر عليه جمالها»، ولو أنه ذاق لذة علم النبات لما راح يرشقه بهذه السهام، إنما لله قوله في محل آخر: «محاسن الطبيعة إنما القلب مقرّها».

الحقيقة هي فوق العقل، وقصارى جهد العقل أن يتوصل إلى إدراك شيء من الحقيقة. فمن أجل الحقيقة يحسن بنا أن نشتغل ونعيش على أهبة الموت إذا لزم!

«اعرف الحقيقة، لتعرف الحق وتفعله. هذا هو مختصر واجبات الإنسان. فليتمسك به مَن تتلاعب بهم أرياح السلطة هائجة من كل جانب». العقل لا غنى عنه. أجل إنه قد يغلط فهو ليس معصومًا،

ولكن كيف نعرف ذلك؟ بالعقل! فهو ضروري، ولكن يجب الاعتدال في تقدير استطاعته. يقول باسكال: «إن التوصل إلى الحقائق الدينية يتم عن طريق القلب، وروح شريرة تفسد كل شيء». ولو قلت قوله لحوّرتهُ واستبدلت كلمة حقائق بشعائر؛ لأن أفضل دليل إلى الأولى إنما هو العقل. هذا ولا شك أن مجموع صفات المرء وأخلاقه تؤثر في اعتقاده تأثيرًا ظاهرًا. فتصوّرات رجل بارّ صالح عن الخالق الباري قد تكون صوابًا أو خطأ، أما الشرير الطالح فتصوّراته عنهُ تعالى خطأ لا محالة.

نظرياتنا اليوم ليست إلا وقتية، ورغمًا عن تقدم العلم وازدياد معرفتنا العجيبين أن هذه الآراء والنظريات لا تزال تجريبية ابتدائية، كأنها أرض تنبت مواد البحث للأجيال الآتية. وقبل الانتهاء إلى حل مسألة الحياة واستطلاع سر هذا الكون العجيب المتاح لنا أن نعيش فيه، عظيمة هي الأشياء التي يترتب علينا علمها وعملها أو تناسيها بعد تعلمها.

مهما زاد شوقنا إلى وجه السلام عبثًا نسعى في أثره ونحن هاربون من وجه الواجب.

في عصور المسيحية المتقدمة، زعم النُّساك والزُّهاد أنهم يكرسون أنفسهم ويتقدسون ويعيشون بسلام الفكر بمجرد انقطاعهم في القفار، والابتعاد ليس عن هموم الدنيا وتجاربها فقط، بل عن الواجبات الإنسانية وكل مسؤولية في هذه الحياة. وإني لأشك كثيرًا في أنهم نجحوا وتحقَّقت أمانيهم. العمل بأمانة والاشتغال بالمفيد وقاية وصيانة في عدة أحوال، ناهيك عما في الواجبات العائلية اللاذة وفي قوة إبساط

نفوس الغير والتخفيف عنها وفي المساعدة والمعاونة من صفة القوة المطهَّرة للقلب المشرّقة للنفس. ومَن ذا الذي يرى نفسه أحسن حالًا إذا تناسى أحبابه وأصدقاءَه، وتخلَّى عن واجباته نحو وطنه؛ لكيما ينفق أيامه المعدودة ساعيًا وراء ما لن يدرك ومفكرًا بما لن يفهم؟!

بقدر ما يجوز لي أن أبني الحكم على ما طالعته في الكتب، أقول إن الحسد والشقاق ليسا بعزيزَي الوجود ضمن أسوار الأديرة ولو على قمم الجبال. ولا يحملنَّ هذا على الاعتقاد أن حياة الحركة والنفع يتحتم أن تكون مملؤة من الهموم والقلق. والمسألة ليست أي الحياتين حياة الانفراد والاعتزال أم حياة الحركة والعمل أقرب من مناهل السعادة والسلام، لكن أيهما يتسنى فيها خدمة الغير أكثر؟

لا ريب أن الأديرة كانت أثناء الأجيال المظلمة لا يطفأ مصباح العلم فيها، وكانت مستودع الآداب والعلوم، ومعهد التثقيف وهيكل العبادة، بل كانت أشبه بموانٍ وملاجئ يأوي إليها طالب العلم والمعوز والمظلوم. إنها كانت إذ ذاك من أكبر الفواعل لإزالة بعض من همجية تلك الأيام وقساوتها، وحاشا أن ننكر فضلها.

إنما مهما يكن من ذلك، فأمرنا هو أمرنا وواجباتنا تظل واجباتنا، أي أن نشتغل في هذا العالم وألَّا نتبرأ منه، وأن نسلم من كل تشويه ووصمة وإن كان هذا غير السهل اليسير. أَوَليس يوجد حتى اليوم بين جدران المدرسة وضمن سجن الدير مَن يتاح لهم أن يُساعدوا إخوانهم أكثر مما يفعلون لو كانوا من المترددين إلى المثابة (القهوة) أو من أعضاء مجلس الأعيان؟

الشاعر الكبير دانتي قضى على البابا سلستين بعذاب النار؛ لأنه اعتزل مهام الحياة وانزوى في ديره، بل خصص له ولأمثاله محلًّا معلومًا من جهنم العذاب. وقد أشار إلى ذلك بقوله في ملحمته المشهورة: «وصلت وحالًا عرفت زمرة الأوغاد الأرذال المبغضين لدى الله وأعدائه». إن أكثرنا قد يكون أكثر نفعًا إذا تعاطى مهنة أو عملًا في مزرعة أو حانوت، ولحسن الحظ يمكننا أن نجد الراحة والسلام حتى في معترك الأشغال وضوضاء المدنية. والذين يعرفون كيف ينبغي أن يعيشوا لا تزيد الحياة لهم إلَّا غنًى ولذة وغرابة.

والحق يُقال إنه لا يلزم أن يستديم العمل من دون انقطاع. والشاعر شيللر أشار إلى ما نحن بصدده إذ قال: «الإنسان إنسان وهو يلعب فقط» فأجاد، إلَّا أنه بالغ وأغرق. وكل أحد ينبغي له أن يعيّد عيدًا كبيرًا كل سنة وعيدًا صغيرًا كل أسبوع. وزيادة على ذلك يلزمه أن يعيّد قسمًا من كل يوم، بمعنى أنه يخصص ساعة أو ساعتين لمحاسبة النفس والتفكر، ثم لراحة الدماغ والرياضة البدنية، وأخيرًا لأجل التسلية واللهو، وهذا وإن تأخر وضعًا، فحقه التقدم أهمية. إذا ما ولَّى النهار وأقبل الظلام يجدر بكل إنسان أن يقف بنفسه بضع دقائق مفكرًا في ما عمله أثناء نهاره، وفي ما كان يمكنه أو يجب عليه أن يعمله. ومَن يتبع هذه الخطة، يضمن سلامة ضميره وجودة شاهيته وراحة نومه.

يظهر لي أن بعضنا اليوم يجهلون قيمة الفراغ والخلو من العمل، وتخصيص ساعات للتأمل الانفرادي ومحاسبة النفس. فلمَ لا تزيد الحياة لنا إلَّا ضوضاءً وارتباكًا، فنعتبر حتى الألعاب المروّضة النافعة

لأبداننا قسمًا من أعمالنا المملة المضجرة؟

الشغل واجب من الواجبات، إلَّا أنه ليس كل ما يجب. أوَلَسنا نرانا على أحسن ما نكون إذا أنجزنا ما علينا وخلونا بعقولنا ونفوسنا؟ وأبناء وطني يشتغلون جيدًا وقت الشغل، وليت شعري لو كانوا يحسنون التصرُّف بأوقات الفراغ! ستة أيام العمل ما أحسنا وما أنفعها! أما السابع فهو مقدس أو يجب أن يعتبر كذلك. وأحر بنا في السابع من السبعة أن نفك العقل من عقاله، فيحلّق فوق هذا العالم، ويناجي السماوات العليا، فيبقى بسلامه وصفائه وألوهيته أوسع وأعمق من البحار وأعلى من السماوات. إن إنجلترا لم تنقص ثروتها بل نمت وزادت؛ بما أن أسلافنا استمرُّوا لأجيال متوالية يشتغلون ستة أيام ويرتاحون يومًا واحدًا. إن ذلك اليوم لا يُعد ضياعًا. وما أجمل قول مكولي التالي: «إذا ما وقف دولاب الأشغال وتُرك المحراث في التلم، وهدأت حركة التجارة، وخلا الجو من دخان المعامل، عندئذٍ دارت آلة دورانها أدعى إلى غنى الأمة من كل آلة سواها، ألا وهي الإنسان آلةُ الآلات، تجده يوم الأحد يصبح فينفض الغبار اللاصق ويرمم المتداعي إلى السقوط، وإذا صح تشبيهه بساعة قلنا: «ويشد جنزيره» ويستعد للأسبوع الجديد، فيقابله بروح وقوة جديدتين».

ولكَمْ نسمع الناس يقولون إنهم خالو الأيدي ولا عمل يعملونه. ويا لهُ من وهم! بل يا لها من كذبة! إذ إن أهم شغل لدينا وأكبر مسؤولية علينا إنما هما إصلاح النفس، وهذا الواجب وتلك المسؤولية لا يفارقاننا طرفة عين. ولقد نحسب تولّي تهذيب أمر أو ولي عهد من المراكز

الخطيرة، وهل ترى أهم من سهر المرء على نفسه مركزًا وواجبًا؟

فساعات الفراغ من هذا القبيل أهم الأوقات وأثمنها؛ لأن القيام بواجبات المهنة والمواظبة على أشغال المكتب والسهر على تجارة المخزن وما أشبه كل ذلك من قبيل تحصيل ضروريات الجسم. ولكن لا يذهبنَّ عنا أن الجسم إن استحق التفاتًا فما ذلك إلَّا لكونه هيكلًا للنفس لا أكثر.

وقد نطق القديس أوغسطينوس بحكمة فائقة؛ إذ قال: «الساعة التي تخلو فيها من العمل، يملؤها شغل عظيم». ومع ذلك فكم من شيخ تخلَّى عن الأعمال واعتزلها ولزم بيته، فصار يستبطئ الساعات ويشعر بثقل الوقت، يتوهم ألَّا عمل لديه فيعمله، ويغفل عن أكبر الواجبات وأقدسها ألا وهما ترقية المرء لنفسه وعمله على إسعاد الغير، وهذا أسمى غايات هذا الوجود.

الفصل الثاني

الجسم

عجيبة الخمسة أرغفة وسمكتين- الحياة عجيبة العجائب- الجسم والعقل- تركيب الجسم العجيب- الدماغ- الذاكرة- الحياة عطية ثمينة- شروط الصحة- النظافة- الصحة- الاضطرابات الفكرية- الترف- الثروة والقوة والصحة- الاعتدال- الهواء النقي- الصيام- الأكل والشرب- العمل والاجتهاد- الكسل- الصبر- النوم- الأحلام- الكحل.

إن إشباع الخمسة آلاف نفس بخمسة أرغفة وسمكتين يُعدّ عجيبة، بمعنى أنهُ مُخالف للسُّنَّة الطبيعية المعتادة، ولكن هذه السُّنَّة نفسها عجيبة العجائب وأم العجب. فإن كيفية معيشة الإنسان على بذور تُزرع وتُحصد أضعافًا، وعلى قطعان تتوالد وتتكاثر، وبالتالي كيفية تحول الحنطة واللحم واللبن إلى عضلات ودم ودماغ، هذا هو العجب العُجاب، ثم بعد ذلك التحوُّل إنها لعجيبة أخرى كيف أن الدم يقوم بتغذية أعضاء الجسم المختلفة.

أما الأعجب والأكثر إبهامًا، فالعلاقة الكائنة بين العقل والجسم والهوَّة الحائلة بين الحياة والموت. يُخطئ سائق القطار قراءة علامة الخطر أو يغفل عنها بالكلية، أو يجمح الجواد بفارسه، أو يختل إحكام الحُكّ بين يدي الربان، أو نفقد الموازنة ونميل إلى السقوط... هكذا إلى ما لا يحصى تتعدد احتمالات حدوث المهلكات، وهي محدقة بنا في كل زمان ومكان. وليست عوامل التلف والهلاك حولنا وحوالينا فقط، بل في داخلنا وأحشائنا أيضًا. اعتبر ذلك بانفجار شريان في الدماغ، أو ضعف يستولي على القلب، أو بأقل اختلال يطرأ على الجهاز العصبي، أليس لحدوث أي من هذه العوارض والطوارئ يصبح كتلة مادة لا حياة فيها ما كان بالأمس حيًّا ناطقًا ذا شعائر ومدارك يحس ويفتكر؟

إن خلقنا «لعجيب مريع» وليس لنا بعد من سبيل إلى إدراك كيفية تركيبنا الغريب. ومع أن سبينوزا يقول بكل صراحة: «إن العقل البشري يلاحظ ويدرك كل ما يجري في الجسم»، فإننا بالعكس جاهلون تمام الجهل، وحتى أعلم العلماء والأطباء قليلٌ ما يعلمون عما في أجسامنا. وهو من المقرر المسلَّم به أنه إذا تكلمنا أو قرأنا أو افتكرنا حدث في الدماغ شيء ما... إنما من لنا بمعرفة ما يحدث، ثم كيف نسمع ونبصر ونلمس ونشم؟ أشهر علماء التشريح يعجز عن إطلاعنا على حقيقة هذه الأمور. فقليلة وزهيدة هي معرفتنا عن أجسامنا، ولنأخذ تركيب أعضاء الحواس الخمس أمثالًا.

يوجد في الجلد عمومًا وفي اليدين واللسان بالأخص كريات دقيقة صغيرة، كل واحدة منها متصلة بعصب وأعضاء لمس، وغيرها مما وظيفته نقل الإحساس بالحرارة والبرد... إلخ. نعرف هذا، أما كيفية انتقال التأثيرات الخارجية إلى الدماغ وتحولها فيه إلى شعور وإحساس، فإننا لفي تمام الجهل عنها.

في اللسان ألوف من الخلايا الدقيقة المزعوم أنها أعضاء الذوق، ولكن كيف تتأثر تلك الخلايا تأثرات مختلفة بحسب اختلاف الطعم وتنوعاته، ثم كيف يحصل إدراك ذلك في الدماغ؟ إننا عن حقيقة ذلك لفي جهل تام.

إن في غشاء الأنف المخاطي بعض خلايا صفراء أو ضاربة إلى السمرة تختلف عن سواها بعض الاختلاف، نعلم هذا. أما كيف أن هذه الخلايا تحمل إلى الدماغ الروائح الكثيرة على اختلافها، وكيفية

تلقي الدماغ لهذه الروائح وتمييزها بعضًا عن بعض، فلا علم لنا بذلك مطلقًا.

تستقبل طبلة الأذن اهتزازات الهواء وتنقلها إلى مجتمع أعصاب السمع، بواسطة سلسلة عُظيمات مقصود بها تقوية تلك الاهتزازات الهوائية. وقد ذهبوا إلى أن في الأذن أقواسًا صغيرة نحو الأربعة آلاف عدًّا، وإلى أن هذه أشبه بمفاتيح الأرغن أو البيانو، فتقع عليها التموجات الصوتية كما تقع أنامل الموسيقيّ على آلته الموسيقية. وقد يكون الأمر كما يزعمون، ولكن أي تفسير للسر هذا! فالأذن آلة طرب إذَنْ! ولكن كيف لها أن تفسر تلك الإحساسات الخارجية أو أن تميز بين الأنغام؟

ثم انظر إلى العين وتركيبها، فهي مؤلفة من أغشية منها القرنية والرطوبة المائية والقزحية والجليدية والرطوبة الزجاجية والشبكية، وهذه مع أنها لا تزيد سمكًا عن أرق قطعة من الورق، مركبة من لا أقل من تسع طبقات تعرف الداخلية منها بالعصي والمخروطات، وهي قوابل تموجات النور، وعدد العصي والمخروطات لا يُحصى. وقد قيل إن عدد المخروطات ٣٠٠٠٠٠٠ ، وعدد العصي نحو ٣٠٠٠٠٠٠٠.

هذا هو تركيب آلة النظر العجيبة. ترتسم المرئيات على الشبكية كما تنطبع الصور على اللوح الفوتوغرافي، فيبقى الرسم واضحًا ولا يبرح هذا اللوح نظيفًا مستعدًّا لينطبع عليه رسم جديد. نعلم هذا، ولكنه دون الغاية. فمن لنا بمعرفة ما يحدث بعدما تنطبع الصورة على الشبكية،

وكيف تنقل هذه التأثيرات إلى الدماغ، ثم كيف يتم تمييز الألوان... إلخ؟ وكيف تنقل هذه التأثيرات الخارجية إلى الدماغ؟ وكيف يحدث فهمها من قبله؟ هذا مما لا نزال نجهلهُ كل الجهل.

ثم خذ عملية الهضم. نأكل ونحوّل الطعام إلى لحم وعظم ودهن ودم وأوتار وجلد، بل إلى أميال من العروق والشرايين، وإلى رئة وكبد، ومئات من المواد والسوائل كل بخاصياته ومنافعه الذاتية. ولكن كيف تتم كل هذه التغييرات الكيميّة؟ لا نعلم.

وهكذا يمكنني أن أحلل سائر التغييرات والتحويلات التي لا تزال آخذة في مجراها في تركيبنا العجيب، كالإفراز وتكوُّن الدم ودورانه ومنافع سائر الأعضاء، ولكن ما الفائدة وكل وصف كما مر ينتهي بنا إلى ضرورة الاعتراف بجهلنا التام!

فما أقل ما نعلم إذَنْ، وبمعنى آخر ما أكثر ما نعلم أيضًا. ولقد ألفنا وجود الحافظة «الذاكرة» بين قوانا العقلية حتى صرنا لا نرى فيها عجيبًا، مع أننا نحار إذا تأملناها. ويجوز أن نقول بحصر المعنى إن أجهل الناس وأغباهم لهُ مَن ذاكرته خزانة مشحونة علمًا ومعرفة. اعتبر ذلك بما يحتوي عليه الدماغ من أمثال تذكارات أيام الطفولية والأصدقاء والأقارب والأصوات والأذواق والروائح والصور والأماكن والملامح والأشعار والأغاني وأسماء الأصحاب والأنسباء والملوك والأبطال ورجال السياسة والشعراء وتواريخ الحوادث والأقوال المأثورة والأمثال السائرة والحقائق والأوهام

إلى آخر ما هنالك، ثم قف وتأمل كيف عرفنا ذلك، وكيف حفظناه، وكيف يمكننا أن نستعيده متى شئنا.

الإنسان بالحق عجيبة، حُبِيَ «بعطية الحياة الثمينة التي لا يعطاها إلَّا مرة واحدة؛ لأنه انتظر مرور الأزل حتى خُلق، والآن وقد خُلق فإن أبدية تنتظره لترى ماذا عساه أن يفعل، ثم إن هذه العطية المهداة إليه قد يُنتزعها بما لا يحصى من الطرق، وإذا فقدها فماذا يبقى منه؟ لا شيء إلَّا كتلة يأس منتنة لا حياة فيها نلفّها بالأكفان ونواريها التراب. زد على ذلك أننا نندبها ونبكيها إذا دفناها وبحق نفعل. وإن للمفكر في هذا الأمر لداعيًا إلى الحزن هو أصل كل داعٍ سواهُ».

والخلاصة أن تركيب الجسم معقد تعقيدًا لا يصح؛ باعتباره التعجب من اعتلاله ومرضه أحيانًا، بل الأوْلَى بنا أن نعجب لصحته وسلامته. ولا غرابة في أننا نتعذب أحيانًا ونتألم أخرى. ولكن من حسن الحظ أنه إذا اشتد الألم قصرت مدته.

والعلاقة الكائنة بين الجسم والنفس مبهمة غامضة، وقد كثر التنازع في شأنها كما في أمر النسبة بين الإيمان والأعمال؛ فالقديس يعقوب يقول: «هكذا الإيمان أيضًا إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته»، وكما أن الجسم من دون روح ميت، فهكذا العقل على هذه البسيطة بالأقل لا يحدث شيئًا إلَّا بواسطة الجسم. فضلًا عن هذا أنه ليس لنا إلَّا جسم واحد لا نقدر أن نتخذ سواه. ولقد كان قدماء المصريين يعتقدون أن الروح ترجع فتحل في أي شبه لجسدها، فكانوا لذلك

يدفنون مع موتاهم أشكالًا وتماثيل تنتخب منها الروح ما يروقها. أما أرواحنا فليس لها قوة لمثل هذا الانتخاب.

فمن أراد إذَنْ أن يعيش سعيدًا، وجب عليه أن يلتفت إلى جسمه ويعتني به التفاتًا واعتناءً معقولين، ولكن ما أقل اعتناءنا بأجسامنا، وأبعد التفاتنا عنها، نحشوها بالطعام ونحملها فوق طاقتها، بل نسممها بالمشروبات وننهكها بالإجهاد أحيانًا، وندعها للكسل فيعبث بها الصدأ أخرى، بل نُفرط بقواها تارة ونفرط طورًا وكم نؤذيها ونشوّهها، وقد نهملها ونغفل عنها بالكلية، فلا نلبث أن نبلى بشديد العذاب عقابًا على ما جنينا عليها، وما ذلك إلَّا عدل وإنصاف.

ومع أنه لا يسع أحدًا أن يزيد في قامته قيراطًا واحدًا، فإنه في وسع كل واحد أن يمرض جسمه ويسقمه، كما أن الكثير منا يستطيع أن يحفظ نفسه من كل مرض وسقام. والأغلب من الناس يمكنهم أن يتمتعوا بالعافية إذا أقلوا من الطعام، وتجنبوا التبغ والكحول، واستكثروا من الهواء النقي والرياضة البدنية وأشغلوا عقولهم وأراحوا ضمائرهم.

لكل شعب وعصر ذوقه وشعاره. والنظافة التي نعدها اليوم ثانية والألوهية (الصلاح) أولى، لم يكن لها هذا المقام عند أسلافنا، فكانت الأمراض والأوبئة تدهمهم من كل جانب. على أنه مهما كانت الصحة جيدة، ومهما بالغنا في تنظيم المعيشة من حيث المأكل والملبس وسائر العوائد الصحية، فالجسم لا يسلم من تأثير العقل مطلقًا. ولذلك كما لا يخفى على الطبيب الماهر، كثيرًا ما يكون العقل أولى بالمعالجة من الجسم، وكثيرًا ما يجدر بنا أن نخاطب الطبيب بعبارة ماكبث:

ألا صفْ لعقل عراهُ الضنـــا ومن فكري استأصل الحزَنا
وطلسمْ خطوط الهموم الكبا ر بهذا الجبين خطوط العنـا
وهاتِ دواءً دواءَ التناســـي فأجرعُ منهُ بكل هنـــــــا
لعل سمومًا تثقِّل قلبـــــي تزول وأبلغ بعض المنـــى

ومع هذا، فكم مَن يسيئون إلى أجسامهم، بل يخطئون نحوها إما لضعف فيهم، وإما لشر يستولي عليهم، وبالأكثر لجهل يُعمي بصائرهم. وما أغرب صنعنا وأعجب خلقنا! وهذا الجسم كامل النظام ومرتب ومبني بدقة، بل مناسب لمحيطه ومكتنفاته بحيث يُعد اتلاف أدواته وآلاته الدقيقة وإخلال نظامه خطيئة مميتة لا غلطة بسيطة. فلنذكر!

إننا لنُعنى بتربية الغنم والبقر والخيل وتأصيلها باستبقاء أجودها والحرص عليه، على حين الأهم إنما هو ترقية الناس وتحسين الجنس البشري جسديًّا وعقليًّا وروحيًّا. أما اليسر وسعة الحال فلا يجيئان بهذا الإصلاح، وربما كانت السعة مضيقًا ومهلكة، والتنعم بالأحرى الترف والبذخ في المعيشة أخطار أولى لنا أن نجتنبها عوضًا عن الشوق إلى الانغماس فيها. والمناخ الجميل قد يرخي آلاف الجسم، والبارد أو الشديد البرد قد يحبك العضلات ويقلصها لفرط ما يشدها، فما الواسطة إلى تلك الغاية؟ «أصل الطهارة (بمعنى القداسة) في الطهارة (بمعنى الخلو من المرض) فمَن أراد أن يكون طاهرًا (قديسًا) فليكن طاهر النفس أولًا»[1].

(١) مدام دي سفيني.

فضلًا عن ذلك متى كنا أصحاء وأقوياء، سهل علينا أن نكون صالحين. ومعلوم أننا في حالة التألم والانتهاك نقلق ونضطرب لأقل الأمور أهمية، بل إن نفس المصائب التي تزعجنا وتعكر علينا صفونا وهناءنا في حالة توعك مزاجنا قد لا ننتبه لها فنعبأ بها ونحن على غير حال.

الثروة والقوة لا مأمن لنا فيهما من أوصاب الجسم ولا من هموم القلب، بل إنهما يزيدان التجارب والقلق والهوس في سبيل الرغائب. ومن المرويات أن الدكتور رادكليف وجد مرة بين يدي الملك وليم الثالث فقال له: «أنا لا أرضى برجلَي جلالة الملك رجلين لجسمي ولو أُعطيت معهما ممالكه الثلاث».

لا شك أن بعض الناس يولدون ضعيفي البنية مشحونين جراثيم أمراض هم غير مسؤولين عنها ولا ملومون من أجلها، إلَّا أنه لا مبالغة في القول إن التسعة أعشار من آلامنا مما جنتهُ أيدينا ونحن عنه المسؤولون.

وإليك ما ذكره مستر تايلر في مؤلفه عن لعبة «الجولف»: «أول ما يلزم لعّيب الجولف الرامي إلى الغاية منها هو أن يعيش على النظافة والعفة والرزانة. وليعش المرء عيشة البساطة، وليكن مع ذلك مهتمًّا معتنيًا بنفسه ما يستطاع. ومَن ينفق كل ما عندهُ من القوة ويفرط ويجازف بقواه الحيوية في أي سبيل كان، فلا شك في أنه حابط مسعًى ومعتزل ساحة اللعب عن قريب، فلديك أحد أمري،: إما أن تعتني بجسمك من كل قبيل، وإما أن تطلّق اللعبة بتاتًا. ومَن يعش على الرذيلة خلوًا من الاعتناء، فلا يؤملنَّ النجاح في هذه اللعبة مطلقًا».

وما يصدق على لعبة الجولف قد يصدق على الحياة عمومًا. وكلنا يعلم بأي سهولة نستطيع أن نفسد الجسم ونضنيه. إلَّا أننا لا نكاد نصدق أننا نستطيع أن نحتفظ بصحته وسلامته أيضًا؛ فالاعتدال من الأهمية بأعظم مكان، أعني الاعتدال في الأكل والشرب، وربما كان تسعة من عشرة يأكلون فوق ما يصلح لهم. ولست أريد الشراهة التي قد تتفق للمدعوين في وليمة، بل الاستمرار يومًا فيومًا على تثقيل مِعَدنا وتحميلها فوق طاقتها. والإكثار من الأكل أسهل من سهل. ولا خوف على أحد من الإقلال. ناهيك عن أن المعدة إذا استقلت بحملها لخفته، خف القلب لذلك ورقص وأشعر المرءُ بتمام الراحة، فالشراهة يعقبها السأم وانقباض النفس. وكثير من الناس يتعذبون من سوء الهضم وحده ما يساوي سائر عذاباتهم جميعًا.

لا يمكننا أن نصرف شيئًا من الوقت في الهواء النقي ونحسبهُ راح ضياعًا، بل إن الساعات التي نمضيها بانتشاق الهواء الطاهر محسوبة في عداد أيامنا، بل قل و«تطيلها على هذه الأرض».

الملاذ الجسدية وقتية لا تدوم، وكثيرًا ما تكلفنا أضعاف قيمتها. والأكل مجلبة للحزن والموت منذ كانت حواء في فردوسها. قال المثل: «الحلق أقتل من السيف»، وما أكثر قتلاهُ! فاقفلْ فمك، تخلص حياتك. والناس قلما يموتون الموت الطبيعي، فكثيرًا ما يقتلون أنفسهم أو يموتون قبل أجلهم. فطريقة إطالة الحياة هي أن تعيش بحكمة واعتدال في كل شيء. والأكل باعتدال لذة يومية يتمتع بها المعتدل. وأحدهم كان يقول: «حسن الهضم من فضل القابلية والصحة من فضل الاثنين».

والإفراط في الأكل مضر كالإفراط في الشرب تقريبًا. يُحكى أن تيموثوس حاكم أثينا وأميرها تعشَّى مرة مع الفيلسوف أفلاطون، وكان العشاء خفيفًا في حواضر البيت، واجتمع به في الغد، فقال له: «ليس عشاؤك شهيًّا في وقته فقط، بل في الغد أيضًا»، والعقل لا يقوم بوظيفته براحة والمعدة ملأى وتعبة بحملها. وطالما عدوا الصيام أحسن استعداد للصلاة، وحقًّا إنه لكذلك قبل الإقدام على أي عمل عقلي.

الأكل فوق اللازم يسبب عسر الهضم وانقباض النفس وسواهما من الأضرار المألوفة. والشرب (المسكرات) أشد ضررًا وأذرع فتكًا. قال شكسبير: «أعوذ بالله من أن يدخل الناس في أفواههم عدوًّا هو لص يسرق عقولهم». والسُّكْر هو اللعنة الكبرى الساقطة على الأمم الشمالية.

قال الحكيم: «لِمَن الويل؟ لِمَن الشقاوة؟ لمَن المخاصمات؟ لِمَن الكرب؟ لِمَن الجروح بلا سبب؟ لِمَن ازمهرار العينين؟ للذين يدمنون الخمر، الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج. لا تنظر إلى الخمر إذا احمرَّت حين تظهر حبابها في الكأس وساغت مرقرقة. في الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالأفعوان».

ولو كانت عاقبة السُّكْر الفقر فقط لهانت شرًّا؛ فالمدمن لا يدني نفسه لدرجة الفقير الشحاذ فقط، بل يهبط دون هذه ويصير وحشًا وأقل من وحش. وعقابه ليس في عذابه، بل في أنه جرّ ذلك العذاب على نفسه. وليست العبرة بنتيجة الرذيلة، بل بالرذيلة نفسها، ورذيلة السُّكْر هي مرارة الكأس وعلقمه.

شر السُّكْر في تمليقه وإغرائه، يجلس الشاب وفي نفسه بعض الانقباض وقد اعترى ذهنه الكلل واستولى عليه القنوط واسودَّت الدنيا في عينيه فيتناول قليلًا من الخمر[1]، وإذا بالأفكار والخواطر تتوارد وتتخاطر والكلام يترادف ويتولى، ولا يلبث الهم أن يموت والرجاء أن يعيش وما هو إلَّا القليل حتى يرى نفسه سعيدًا ويشعر أن قلبه يكاد ينزع من صدره فرحًا. كان قبل الكأس قنوطًا وهو بعدهُ سعيد طرب، ثم يشرب الكأس الثانية وكأنهُ الملك عزة وجلالًا. ولكن يا للأسف، كان آلهُ سرابًا وكانت رؤياهُ حلمًا ففصاحته تحوَّلت عيًّا وحمقًا وتماديه

(١) أعوذ بالله من الإنسان إذا ملك الخمرة من الناس وبات أسير الكأس لا يعرف إلا الحانة بيتًا وغير أوحال الأزقة مبيتًا فآل أمره إلى معقة أبويه ونسيان إخوته وأخواته وانتهى بشقاء امرأته وبنيه وبناته وبموته قبل أجله وهذا لسان حاله:

«اجعلوا إن مت يومًا كفنـــي ورق الكرم وقبري المعصـــره
وادفنوني وادفنوا الخمر معي وضعوا الأقداح حول المقبره»

يغرس الكرمة بيمينه ويسقيها ماء جبينه حتى إذا دنت قطوفها جنى أثمارها واستخرج عصيرها وانتظره ريثما يختمر فيشربه إذ ذاك مرًّا بعد حلاوته وفاسدًا بعد طهارته! فهو الزارع والجاني والمجرم والجاني.

أما عصير العنب الصافي فقد قرر الأطباء أنه عظيم النفع وقاية وغذاء وشفاء، وأنه من أفعل المقويات للدم ومنقياته وتأثيره الحسن في حالات سوء الهضم والإمساك مما لا شك فيه، وقد انتبه له الأوروبيون وصاروا يستخرجونه ويبيعونه للسليم وقاية وللضعيف غذاء وللسقيم شفاء.

ويسرني هنا أن أذكر أن مواطننا جول أفندي منصور (من حيفا مقيم بمصر) أخذ يهتم بترويج هذا الصنف المفيد في كلا القطرين مصر والسودان، ولديه شهادة من المعمل الكيمي لمجلس بلدية باريس تؤيد أن العصير الذي يستخرجه من أجود عنب جبل الكرمل خلاصة صافية لا أثر فيها للكحول مطلقًا. ويمتاز عن سائر المشروبات بأنه لا يسكر مطلقًا، فحقه التحليل في كل المذاهب والأديان. وحبذا لو أقبل الناس عليه وفازوا بفوائده. (المعرب).

في إظهار الصداقة نحو رفاقه أدَّى به إلى الاختصام معهم واتقاد ذهنه الوقتي انتهى بصداع أليم في رأسه.

فالتبلُّد والقنوط والكلل مخاطر وتهالك على التهذيب والتربية أن يقيانا منها ما أمكن؛ لأن كثيرًا من الناس يلفون أنفسهم على مثل هذه الحالات، فيلجؤون إلى الخمر دواءً وبئسه من دواء.

دلت الإحصاءات على أن مطلقي المسكرات بتاتًا أطول حياة من معاقريه ومدمنيه، بل ومن المعتدلين فيه أيضًا. والكحول لا يقتصر ضررهُ على الجسم فقط، بل يشمل الجسم والعقل جميعًا، فإنه يصير المرء نزق الطبع شرسه دائمًا مستعدًّا للخصام، ويوقظ الشهوات ويقوِّي سلطة الأميال والأهواء بحيث تصبح مقاومتها غير السهل اليسير.

قال جرمي تايلر: «إن مصائبنا لفي داخلنا. ولو أن أكلة خس وشربة ماء بارد تطفئان جميع نيراني فلا أعود أشعر بعطش إلى الماء، ولا إلى الفخر ويفارقني حب إشباع الشهوات وشفاء الغليل وأخلو من الحسد والطمع، لكنت أحسبني من السعادة في حضنها. وحقًّا لا أحد ينام نوم الراحة مثل ذلك المضطجع على بساط الطبيعة المسند رأسه إلى ركبتها».

وحينما يكون الجسم صحيحًا سليمًا، لله ما أجمله من آلة ملقاة بين يدينا كوديعة نؤتمن عليها، فيجب أن نحرص عليها أيما حرص. فمن العار والشنار إذَنْ أن نترك صحيحه معتلًّا وجميله مشوَّهًا وكامله ناقصًا، وقد سلمناهُ أمانة، ثم إذا أسأنا استعماله أو أهملناه، فلا نلبث أن نراه على غير ذينك الجمال والكمال اللذين يتصف بهما وهو متلبس

بالعافية. والأمر لنا، فإما أن نترك الجسم هيكلًا جميلًا ترتاح فيه النفس، وإما أن نغادره خرابًا ينخر عظامه السوس ويعلو عضلاته الصدأ، بناءً متداعيًا إلى السقوط لا يلبث أن يختل ويسقط.

إلَّا أنه لا حياة لنا من دون الطعام والشراب. ونيكول يشير إلى هذه الضروريات ببعض الاحتقار؛ إذ يقول: «الإنسان لا بد له من الطعام غذاءً لدماغه الذي من دونه لا تستطيع النفس شيئًا. ولكن أي شيء أحط من ذلك! ألكيما يعيش يلزمه أن يموت كل يوم بأن يتوقف عن التفكر مدة اهتمامه بأمر بطنه؟ فليشاء الله ويحطه إلى رتبة الحيوان!

سار بين الرومانيين مثلان ملؤهما الحكمة وهما: «الشغل أي العمل يغلب كل صعوبة»، «والشغل نفسه هو مسرة». والمثلان متقاربان معنى باعتبار أن الغلبة ولو في الطفيفات من الأمور لا تخلو من مسرة. وجميعنا نحب أن نغلب ونربح ولو في لعبة مقصود بها التسلية، وقليل مَن لا يجزع ويرتكب إذا غُلب وكان خاسرًا. فإذا كان الشغل يُكسب ويربح في الختام فهل من ريب في أن السعادة أليفته وحليفته! ومن يعرف كيف يُقبل على شغله فيرى فيه لذة ويولع به ولوعًا فَأَحْر به أن يكون فائزًا بالمسرات الحقيقية. الجسم والعقل خُلقا للعمل ولا راحة لأيهما إلا ريثما عمل واشتغل. وما الكسل إلَّا الصدأ اللاحق بالإناء المتروك. وقد يشتبه التواني بطول الأناة أحيانًا، ولكن يجب الحذر من ذلك والتمييز بينهما؛ فإن الفرق عظيم جدًّا. ناهيك عن أن العمل والاجتهاد في النهار يمنحانك بركة النوم في الليل، وهي بركة كم تستلبنا إياها الهموم وأثقال الواجبات، ولا بركة بعدها على حد قول شكسبير بلسان أحد الملوك:

كم ألوف تنـــــــام نومًا هنيًّا من فقير ما بات يملك شيًّا

أيها النوم أنت أكرم ضيـــف وأنا الملك فاستضف عينيا

ولماذا جفوتني بعدما كنـــت بلطـــف تغضُّ لي جفنيًّا

مودعًا هاته الهموم ببحر النســـي حتى أتمَّ نومًـــا هـنيًّا

وقد تعددت أوصاف النوم الجميلة، ومنها أنه مُرضع الطبيعة اللطيفة، وأنه الرداء الذي يغطي الأفكار، أو الطعام الذي يذهب بالجوع، والشراب المطفئ لنار العطش، والنار التي تدفئ البرد، والبرد الذي يعدل الحرارة ،والدرهم الذي يشتري كل شيء، والميزان الذي لا يرجح فيه ملك على راع ولا حكيم على جاهل. أما كيف نتمتع بهذه البركة، فلا أيسر من ذلك. فمَن قضى نهاره بحكمة، أتاه ليله بلذة الراحة. على أنه لا يُنكر أنه قد تُلم بالمرء مصائب عقلية أو جسدية فيأتي الليل ولا يأتي النوم. وقد اختبرت هذه الحالة بنفسي، ولله ما أصعبها! أما الخطر فهو في محاولة استدعائه (أي النوم) باستعمال الأدوية والعقاقير، وتلك تجربة يجب الحذر منها، ومن فارقه نومه، فلا بد من أن يعود إليه ويعوض عليه من تلقاء ذاته؛ لأن ملك النوم حكيم رحيم.

وكلنا يعود صغيرًا في أحلامه. وكان النوم يخفف من أثقالنا وينزع حملًا تنوء به نفوسنا، فنرانا نسبح ونطير في فضاء الخيال، ونرى من فقدتهم أبصارنا واشتاقت إليهم قلوبنا، فنحلق فوق هذا العالم خالصين لا من قيود الزمان والمكان فقط، بل من سلاسل العقل وروابطه، ونرتفع في أعلى سموات الخيال نسترق لحظات ونستمد أنوارًا من عالم أسمى وأحسن من عالمنا هذا.

تعود إلينا إذ ننام نفوســـــنا ولا مقلقات أزعجت في نهارها

وترتاح من أهوائها ومطالب يذوِّب منا القلب آكل نارهـــا

والرتوع في ظل رايات السلام ليس بالسهل اليسير كما قد يلوح ويظهر، وإذا كنا في ساعات الراحة ندع العقل وشأنه مع المصاعب والمشكلات والهموم والعذابات التي نبلى بها، فلا عجب إن وجدنا أوقات الفراغ أتعب من أوقات العمل، وليلة قلق واضطراب أسوأ على المرء تأثيرًا من نهار شغل شاقٍ. فالأولى بنا أن نطرح عنا كل الأفكار المزعجة ونلقيها جانبًا. على أن اطراح الهموم لا يخلو من صعوبة تذكر، وإذا طردناها وخلا الفكر منها ومن سواها، كانت هي الأسبق عودة إليها، ولذلك أخلق بنا أن نرحب بالأفكار الصالحة والمسرة إذا شئنا إبعاد الشريرة والمحزنة عن نفوسنا. ولا أفضل في مثل هذه الأحوال من الانعكاف على مطالعة كتاب في التاريخ القديم أو في العصور السابقة للتاريخ، أو آخر يبحث عن طبقات الأرض والعصور الخالية، أو آخر يبحث عن طباق السماء ونجومها القاصية إلى غير ذلك مما يحمل الفكر ويبعده عن الحاضر وقلاقله ويضلله في ظلام الماضي وأبعاده.

أما الضمير التَّعِب المثقل، فلا راحة معه ولا سلام، وكما قال روشفوكولد: «من لم تكن راحته داخل نفسه، فعبثًا يطلبها خارجًا».

نعلم أن الرؤى والأحلام كانت تهبط على الحكماء والأنبياء والليل مرخٍ سدوله لا والشمس في رائعة النهار. وإننا ننظر أغلب ما ننظر بفضل نور الشمس، ولكن إذا غابت وتوارت عن العيان وغمرنا جناح

الظلام، تألقت السماوات بملايين النجوم، وعلمنا أن الشمس تخبئ عنا أكثر مما تبدي لنا. وهكذا نحن في أيامنا هذه إذا اتفق أن لاح لنا الغير محدود، فلا يكون ذلك والشمس في القبة الزرقاء ساطعة باهرة، بل حين يتجلى القمر بضيائه اللطيف وتسفر النجوم دررًا ولآلئ. وإن في الليلة المقمرة لسرًّا عجيبًا!

الفصل الثالث

العقل

الجسم هيكل للنفس- النفس كل العالم لصاحبها- ملك عدس- نار برموثوس- قصر الحياة- الزعم أن الإنسان مخلوق حقير- شقاء الحياة- لا بأس في الموت بالنظر لشقاء الحياة- قولان في الإنسان مترادفان لا متناقضان- القوة- المرأة- الجمال- هيلانة- الشعراء والنساء- دروبادي- قول سليمان الحكيم في مرأة حكيمة- شرف الحياة- سر الحياة- وضوح الواجبات- قول ملتن في الحياة.

والجسم مع أنه يقضي بالعجب العجاب، إن هو إلا هيكل للنفس. والنفس ليست أهم من الجسم فقط بل من العالم بأسره؛ لأنه «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه». ونرى في الحكاية المسيحية القديمة أن ملك عدس استحق الملامة لأنه لسماعه بعجائب المسيح أرسل يرجوه أن يشفي جسمه لا عقله. إلا أنه لا يجوز مطلقًا أن نبخس الجسم حقه من الأهمية؛ لأن الاثنين معًا يؤلفان إنسانًا «والإنسان لله اليد التي صنعته. ما أشرفه بعقله! وما أبعد شأوه بقواه! وبهيئته وحركاته ما أدعاه للإعجاب! وبتصرفاته ما أشبهه بملاك! وبفهمه ما أشبهه بإله»[1].

إن للنار التي استمدها بروموثوس من السماء لقليل اضطرام أو كثيره في كل واحد منا، ومَن يفكر لا يسعه أن يتجاهل عظمة الحياة وجلالها. والإنسان بعبارة سير توماس برون: «ما أشرفه من حيوان. إنه رائع باهر ولو رمادًا، وذو هيبة ولو في ظلمة القبر»[2].

وبالحقيقة إنه لفخر عظيم للكائن أن يكون إنسانًا. ولا شك أننا -بمعنى ما- لسنا إلا مزيج أجزاء كيميّة وقد قدروا معدل شغل الإنسان

(١) شكسبير.

(٢) توماس برون.

اليومي بقوة أربع ليبرات من الفحم. وحسبما وصفنا الأستاذ هكسلي بطريق الهزل يقال إننا ائتلاف كربونات النشادر وفوسفات الصودا وكالورس...إلخ.

وعدة من الكُتَّاب وصفوا الإنسان بما يحقره كل تحقير. وإليك قول أحدهم ذاكرًا أن قصر الحياة موضوع يطرقه الفلاسفة والشعراء على حد سواء.

مثل طلّ سحرًا يعلو الجبـال كلما لاح الضحى تلقــاه زال

أو كما فقّاعة الإزباد في النهــــر تلفى حالها في الحال حال

هكذا أنت أيا إنســــــان إن تمضِ فالعودةُ وعدٌ بالمحال[1]

تشبّه التوراة الحياة بحلم وبنوم، وبخيال يزول، وبخارٍ يضمحل، وماء يهرق على الأرض، وبحكاية تُحكى. ناهيك عن أن الحياة لم تنعت بالقصر فقط، بل بالذمامة والحقارة أيضًا. وبوذا جعل إساءة الظن في الحياة بمقام العقيدة والمذهب، فكان يتراءى له أن الحياة كلها أحزان، وهاك قوله: «الولادة حزن، والكبر حزن، والمرض حزن، والاجتماع مع مَن لا نحب حزن، والانفصال عمن نحب حزن، وبالاختصار إن علاقاتنا الخمس مع حطام هذه الأرض جميعهنَّ أحزان».

وهوميروس أنطق أفلون بما يأتي:

أمن أجل أهل الأرض نحو بنو السما

غدا بيننا هذا الخصام مضرَّما

---

(١) سكوت.

أيجدر بالعقل السماوي وقد سمـــا

تدنٍّ لهاتيك الشؤون ليحكمـا

ولادتهم شرٌّ عليهـــــم ودَينهـــم

عليهم لها واهٍ حياةً ومطعمـــا

كأنهم الأوراق يومًـــــا ترونهـــا

تتيه جمالًا تفتن الشمس مبسما

ويومًا على سطح الأديم ترونهـــا

وقد ذبلت لا تبهج العين مثلما...

دعوهم وأحوالًا عليهم وبالهـا

وعهدي بأهل الخلد أسمى وأعظما[1]

وفيكتور هيغو نظر إلى الحياة نظرة اليأس والانقباض حين قال:

أولادة لنعيش في طلب الممات

ومنية فيها نتوق إلى الحياة

فإذا شببنا شاقنا عهد الصبـــــ

وَة حين كان القلب في عمق السبات

وإذا كبرنا نستعيد ولا يعـــــو

د شبابنا من بعد ما ولّى وفـــــات

(١) لم أعثر على هذه الأبيات في الإلياذة، ولعلها من ملحمة هوميروس المعروفة بالأوذيسية.

ولدن نموت نقول أواه الحيــا

ة ولو شيوخًا آه ما أقسى الممــات

ومع ذلك فكثيرون من أولئك الذين يتأففون من الحياة ويعافونها يتذمرون شديد التذمر عندما يُقضى عليهم بتوديعها. فكأنهم في موقف الوداع يعتبرون وهذا لسان حالهم:

أفخر القيادة والسطـــــوةِ وذاك الجمال مع الثـــــــروةِ

وكلُّ سبيل لمجد العلـــى يؤدي أخيرًا إلى الحفـــــرةِ[1]

ولكنهم يستأنفون ويقولون كأنهم ينتحلون لأنفسهم عذرًا:

إذا حلَّ موت فما نوجـــــلُ من الموت لولا الذي نجهلُ

فبعد الممات ترى ما نكون؟ وأين نكون؟ لذا نوجــلُ[2]

وحقًّا ليس الخوف من أن كل حيّ عرضة لسهام الموت المسددة، بل مما يليهِ إذا نفذت سهامه:

نجدّ الرحيل لذاك البلـــــد وما آب منهُ إلينا أحـــــد

ونخشى المعدّ لما بعد موتٍ لما نحن نجهل ذاك المعـد

فنحمل رزءًا هنا يعترينـــا توقع رزءٍ هناك أشـــــد

كذاك الضميـــــر يصير كلًّا جبانًا ويخلق فينا الجلـد[3]

---

(١) كراي.

(٢) دريدن.

(٣) شكسبير.

ولا مراء أن الوُجَه التي يُنظر منها إلى الموت مختلفة جدًّا، فهو «منية البعض ونجاة البعض وآخرة الجميع»[١]. وكثيرون يرهبون الآلام الشديدة، أما الموت فغالبًا ما يكون سهلًا جدًّا ولا سيما في الشيخوخة.

رأت في المنام سمًا فحلَّت ولن تستفيق بتلك السمـــــا

بكل هدوءٍ تتبع فيها الـــــ ـحياةَ المماتُ ويا بئس ما...[٢]

اعتبر حكماء الإسرائيليين ميتة موسى وهارون ومريم كأنها قبلةٌ لا يكاد يشعر بها. فهل هذا يصدق على هؤلاء الثلاثة فقط؟

وآخرون يعزّون أنفسهم بالاعتقاد الآتي:

لا موت أن العيش صاح ارتحالْ

فيها وموت المرء عنهـا انتقـال

وإن يمرّ العمر مرَّ الخيـــــال

في سرعةٍ فلنقطعنَّ المجـــال

والقبر ذاك الباب حين يُنـــال

نأوي ديارًا نحوها الارتحـال[٣]

لما وقف سقراط لدى المحكمة، وشرع يدافع عن نفسه، ذكرها (المحكمة) كيف أنهُ قاوم غضب الشعب برفضه أن يكون ممالئًا على الحكم بإعدام العشرة قواد، وبالتالي كف أنهُ واضعًا روحهُ على

(١) سينكا.

(٢) دريدن.

(٣) لونفلو

راحته بكل هدوء وسكينة، أبى الرضوخ لأوامر العتاة الثلاثين. وكم أجاد ماكولي بقوله: «إن سقراط صرح باعتقاده تصريحًا ثابتًا وواضحًا حينما قال إن الموت هو ربح، وأنه ليس إلَّا نومًا هادئًا خاليًا من الأحلام وأضغاثها»، ثم أردف بمقالة هذا الفيلسوف قول الشاعر ملتن المختلف عنها:

أي جهلٍ إن قلت إن المنيـــــه هي برءٌ من سقم كل بليــه
مَن ترى يفقد الفكار وهـــذي تتمشى في عالم الأبديــه؟

وقال (أي ماكولي): وإني وإن كنت فكرت فكر ملتن مرة في الزمان، فكل يوم أراني أقرب فأقرب من المبدأ الذي وضعهُ سقراط».

والأجدر بنا في كل حال أن نقابل الموت إذا أقبل كما قابله سقراط الذي لم يتكلم في دفاعه كمحكوم عليه بالإعدام، بل كمزمع أن يصعد إلى السماء.

إن هذين القولين -إن الإنسان أحط قليلًا من الملائكة، وإنه أسمى قليلًا من الحيوانات الهالكة- ليسا بمتناقضين، بل إنهما معطوفان الواحد على الآخر. ولكل إنسان الخيار بين أن يتصف بالأول أو بالثاني. وكل شخص يمكنهُ أن يكون شريفًا وصالحًا، أو دنيئًا وطالحًا، ذلك كما يختار لنفسه. وكلنا رب قضاء نفسه وقدرها، وإنه لفي استطاعتنا واختيارنا أن نصير ضعفاء وأشرارًا وأشقياء أو أقوياء وموضعًا للثقة وسعداء. وإنه لامتياز وفخر مجيد لكل إنسان أن يكون كذلك، كما أنه مسؤولية عظمى وعبءٌ ثقيل على عاتقه. أجل يمكننا أن نرفع النفس إلى قدس الأقداس، أو نهوي بها إلى دركات الجحيم، وإذا كان الإنسان

ذميمًا محتقرًا، فهذا ما هو صيّر نفسه إليه لا ما يمكنه أو ما قُصد به أن يكون.

الأطفال في بدء نشأتهم «أدنى من الملائكة بقليل». وبعبارة سير توماس برون: «لا بد أن فينا مسكة من الألوهية أو شيئًا ما سبق العناصر بوجوده ولا يدَ للشمس فيه». فبحق قد قيل إذَنْ إنه يجب حب الناس جميعًا، وبالأحرى اعتبارهم اللهمَّ بقدر ما يصونون كرامة نفوسهم ويحافظون هم على اعتبارها.

إن الأولاد في نعومة أظفارهم خاضعون بحكم الطبع لمؤثرات الوسط الذي يكونون فيه، ومن ثم فالوالدون والمعلمون مسؤولون عنهم كل المسؤولية. وعقل الولد أشبه بصفحة بيضاء طاهرة نكتب عليها ما نشاء، ولكن إذا كتبنا شيئًا تعذر علينا محوه. والمثال الذي نضعهُ نصب أعينهم مهم كالمثالة التي نلقنهم إياها إن لم يكن أهم بكثير.

وجميعنا مدينون ليس لوالدينا ومعلمينا فقط، بل للعصور التي خلت وسلفت.

«لأجلنا عاش المسيح ومات. ولأجلنا تعذب الشهداء وماتوا. ولأجلنا صلت الكنيسةُ الوثنية حربًا عوانًا. فكيف نقرأ تاريخها كأن لا دخل لنا فيه؟».

الإنسان بالحق تركيب عجيب من الحيوان والملاك. وفنلون يقول: «جسدنا شبيه بالحيوان ونفسنا شبيهة بالملائكة»، ولكن كثيرون لسوء الحظ يحتقرون أنفسهم ويحطونها، فيصيرون ليس أدنى من الملائكة فقط، بل أحط وأدنى من الحيوانات أيضًا. ولكي نحفظ النفس على

طهارتها، يلزمنا أن نحرص على الصحة ما أمكن. على أنه لا ينبغي لنا أن نبالغ في مقدرة الجسم واستطاعته؛ فإنه أحقر من أن يدنينا من كل غاية.

القوة عطية عظيمة، ولكن ماذا أَجْدَتْ هرقل قوتهُ! إنه على رغمها لم يكن حرًّا بل عبدًا مأمورًا لظالم ضعيف. وعاش عيشة كدح ونصب، ثم آل أمره إلى أن قتل أولاده، ومات هو أشنع ميتة ذاهبًا غنيمة باردة لامرأة غيورة. وشمشون مثال آخر للقوة، وهو أيضًا مات عن حياة غير حميدة وكانت آخرته غاية في الشقاء.

إن الشرائع المدنية تتناول الرجل والمرأة جميعًا. وإنا لكذلك نعني المرأة في ما نقول. على أنه لا بد من تخصيصها بشيء من القول. فإذا كان العقل في الرجل أقوى منه في المرأة (وإني لا أقطع بذلك)، فإن نور النفس فيها لا شك أسنى وأبهى. وآدم لم يستطع أن يعيش حتى في الفردوس من دون حوائه. «ومن دون المرأة يمسي بدءُ الحياة وآخرها لا قِبَل لنا بهما وأوسطها لا مسرات لنا فيه». ولكن لا شك «أن خفة رأس المرأة تثقل قلب الرجل».

كالقوة للرجل كذلك الجمال للمرأة. إلا أن عطية الجمال كسائر العطايا ليست نفعًا خالصًا غير مشوب بشيء من الضرر، بل غالبًا ما تكون لا نفع فيها أصلًا. والجمال منجم أخطار. ويا لسرعة ما يذبل جمال الشباب وتذهب نضارته. «لما وقفت هيلانة مرة أمام مرآتها وتأملت تجعدات الكبر في وجهها، تعجبت في نفسها كيف أنها سُبيت مرتين لمجرد جمالها». ولقد حاولت في غير هذا الموضع أن أظهر كيف أن اليونان أساؤوا فهم حياة هيلانتهم. وحسبي أن أقول في هذا المقام:

إنها لو لم ترضَ بأن تُسبى مرة فأخرى ولو أنها عاشت بحظ أوفر من الحكمة، وأحسنت اختيار أصحابها، لما كان فارقها حسن صباها، بل لكان تحوَّل إلى جمال الكبر الرزين والشريف، وعندئذٍ لكانت الرجال تفتخر بالركوع تحت قدميها، عوضًا عن محاولة سبيها بالخداع والقوة.

كل النساء عليهنَّ نطاق الزهرة إذا أردنَ استعماله. وقد قيل إنه ليس للفتاة أن تختار أن تكون جميلة في الربيع العشرين من عمرها، ولكنها هي الملومة إذا كانت غير جميلة وقد وصلت إلى خريف الخمسين. وفضلًا عن هذا مهما كانت المرأة جميلة في العشرين من سنيها، فليس من الضروري أن يدوم جمالها لطويل.

والمرأة طالما حركت قلوب الشعراء الحساسة، وضربت على أوتار نفوسهم، فأسمعتنا أنغامًا شجية. وتأثيرها لا يقتصر عليهم فقط، بل قد يتناول الفلاسفة والكُتَّاب أيضًا. وقد ذكر بلوتارك: «إن مطمع المرأة الأسبرطية كان محصورًا في صيرورتها زوجة لرجل عظيم، وأُمًّا لأولاد فائقين». أما الشعراء الناظمون فطبعًا أشد لهجة وتأثيرًا من الكتاب الناثرين. وهربرت سبنسر زعم أن الشعراء اتفقوا على إتلاف المرأة بفرط ما يطرونها ويتملقون إليها، وقلّ ما يبعد زعمهُ عن الحقيقة. وإذا أردت الاستشهاد، فلا حاجة بي إلى الرجوع إلى الأزمان القديمة، ولأبدأ بقول شوسر:

كأنـــي بها مما بهـــا من فضيلــة

صحيفة حسن قد حوت للفضائلِ

فناظرهـــا يقرا جميل خلالهـــا

على وجهها الحاوي جميع الشمائل

وتعشق من راءٍ يشاهد حسنهـــا

وتمـــدح طـــرًّا في مقالـــــة قائـــــلِ

وإليك ما قاله بن جنسن في ضريح الياصباط:

حجرٌ يحوي جـــمالًا ذابلًا مائتًا من بعد ما كان نضيـــــرا

بل جمالًا كان أبهـــى مظهرٍ لمعاني مفضل إن عزَّت ظهـورا

وملتن يصف لنا أمنا حواء بقوله:

كان الجمال مرافقًا خطواتها وسنا السماء قد كان في لحظاتها

والنُبل كان مضمنًا سكناتها والحب كان مصاحبًا حركاتهـــا

وهاك وصف سير هـ. تايلر لإحدى أبطال رواياته: «وإذا تحركت فكأنما الموسيقى هزَّتها وأطربتها»، أو خذ قول وُلّر في نطاق يضمّ خصر سيدة:

هو حلقةٌ مع ضيقها اشتملت علـــى

خير الشمائل في جوانب خصرها

دارت على المحبوب طرًّا والجميـــ

ـــل فدعهُ لي وخذ السماء بأسرها

وبلايك لا يقلّ عنه بحماسه الحبي؛ إذ يقول:

إذا كلمتني فصوت السمـــاءِ أو اقتربت فجـــــواري طهُر

وإن تصطحبني فكل الحقول فراديس تبهج مني النظـــــر

وإما وقفنا بوادٍ سكـــــوتًا فأرض مقدســـة يا بشـــــر

ومن أبدع ما جاء في الروايات الخيالية أمرُ دروپادي في ملحمة ماهاباراتا الهندية؛ فهي التي أسرها الملك دُوريودهان وطلب إليها أن تتزوج به، ولما رفضت سؤله رفضًا باتًّا محتقرة إياه كل احتقار، أمر أن تُعرَّى وتُجلد على أعين الأشهاد، فضرعت إلى معبودها كرشنا وشكت حالها إليه، ثم خلعوا عنها أول ثوب، وإذا بثوب آخر تحته فنزعوه، وإذا بغيره تحته أيضًا، إلى أن أتوا أخيرًا إلى ثوب تعذر عليهم نزعهُ، فخجل الملك ولام نفسهُ، ولم يسعهُ إلَّا أن يلغي حكمهُ ويسترد أمره.

ولكن أي قول يفوق قول الحكيم سليمان صاحب الأمثال المشهورة والأقوال المأثورة: «المرأة الفاضلة مَن يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلئ. بها يثق قلب زوجها، تصنع له خيرًا لا شرًّا كل أيام حياتها. تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة. تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين. العز والبهاء لباسها، وتضحك على الزمن الآتي. تفتح فمها بالحكمة وفي لسانها سنَّة المعروف. تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبيز الكسل. يقوم أولادها ويطوبونها، زوجها أيضًا فيمدحها. بنات كثيرات عملنَ فضلًا أما أنتِ ففقتِ عليهنَّ جميعًا. الحسن غش والجمال باطل. أما المرأة المتقية الرب فهي تُمدح».

فإذا كان للنساء أن يوحينَ إلى الرجال الخير أو الشر، فأي قوة بعد هذه يعوزهنَّ!

ومع أن الرجال يختلفون عن النساء من عدة وجوه، فإن أكثر ما يصدق على الجنس الواحد قد يصدق على الآخر تمامًا. فيمكننا أن نشمل الجنسين؛ إذ نقول إن تشبيه الإنسان بقصبة تحركها الريح لا يخلو

من الصحة إلَّا أنه قصبة ذات عقل وتفتكر.

العظمة نصيب كل إنسان. والمرء يبقى عظيمًا إلى أن يصغّر نفسهُ باختياره وإرادته. فهو عظيم في قواه وفي الفرص التي لديه وفي الامتيازات التي يتمتع بها، وفي البركات التي يتنعم فيها. وهو صغير بقدر ما ينقاد لشهواته وأهوائه ويستسلم للتجارب. وأن تكون رجلًا حقيقيًّا أعظم من أن تكون ملكًا ليس كذلك. والمجد إنما هو أن تحكم نفسك لا مَن دونك. وإحسان الخدمة والإطاعة فيهما من الشرف ما في الاستخدام والإمرة لا مشاحة.

فما عنوان الرجولية إذَنْ؟ ليس المقام الاجتماعي ولا البيت الفخيم ولا الأموال الوفيرة ولا الملابس المجوهرة ما يجعل الرجل رجلًا، إنما العبرة بالشيم والأخلاق لا غير.

يُقال: «الولد أبُ الرجل» بمعنى أن رجل اليوم هو بعينه طفل الأمس، وطفل اليوم رجل الغد. ولكن كثيرًا ما لا نرى نسبة بين طفولية بعض الناس ورجوليتهم لكثرة ما يختلفان.

وإنهُ ليمكننا أن نعيش بحيث يُقال عنا أخيرًا كما قيل عن حياة كاسّيو: إن في حياته لجمالًا يوميًّا.

لا ريب أن الحياة سرّ مكتوم. وقد قال الفيلسوف پاسكال: «وُلدت ولم أعرف لماذا وُلدت، وعشت ولم أعرف كيف عشت، والآن أموت ولا أعرف لماذا أموت»، وهو القائل: «الإنسان أغرب ما في الطبيعة؛ لأنهُ قليل ما يمكنهُ أن يتصور ماهية الجسم وأقل ماهية العقل وأقل أيضًا كيف الاثنان يتحدان. ففي اجتماع الاثنين حيرتهُ وما هو إلا اجتماعهما».

الإنسان ملاك، إنما ملاك في حيوان. وإذا هو افتخر بعلويته، فإن أصله الحيواني يعيده إلى التواضع. فماديًّا وروحيًّا إن نحن إلَّا مخلوقات حقيرة أحيانًا.

«كل إنسان حيٍّ هو سرّ منظور يتراوح بين أبديتين وثلاث لا نهايات»[1]، ومع أن الأمر كذلك، أليست واجباتنا واضحة تمام الوضوح؟ أوَلسنا نفهم ما يوحيه إلينا الضمير؟

وإن سلمنا أن الإنسان ضعيف مسكين وغبي بوجه من الوجوه، أفننكر أنه وزن الأرض على ضخامتها وقاس الجبال على علوها وسبر غور البحار على عمقها وقرّر مسافات السيارات والشمس وأقرب النجوم على بعدها الهائل؟ بل إنه وزن الأجرام السماوية وقاسها وعرف حركاتها ومقدار سرعتها، ولم يقف عند ذلك الحد، بل عرف نوع تركيبها الكيميّ.

فالعقل لا شك أنهُ يترفع عن شهوات الأرض ودناستها، ولكنهُ كالمستحيل على النفس كما على الجسم أن تتحرَّر من ربقة الوجود المادي وترتفع بكليتها إلى السماء. ومع ذلك فإنه يتسنى لنا أن نعمل كثيرًا. وإذا كنا نبذل جهدنا حُق لنا أن نأمل أن نكون يومًا ما كما قال ملتن: «متقدين بحب العلم وحب الفضيلة، مفعمين آمالًا أن نعيش رجالًا أصحاب إقدام وذوي وطنية حقة، أعزاء في عين الله ومعروفين في كل العصور».

---

(١) كاريل.

الفصل الرابع

الأمل

ماذا يجب أن تكون آمالنا؟ البخل والطمع- القسم الأثيني- قول شيشرون في المجد- أضرار الثروة والقوة- المخاطر في سبيل الحياة- شكسبير والطمع- الثبات- رأي الاشتراكيين- رأي القدماء في التقدم- العصر الذهبي- العلم والتقدم- مستقبل العلم.

أملوا!! هذه هي الكلمة التي قال سير جايمس ستيفن إنها تحوي جميع النصائح التي قدمها لجمهور شبان وقف فيهم خطيبًا.

وإنها لنصيحة سديدة. إنما ما الذي يجب أن نؤمله؟ أأن نملك كل شيء ونحاول العلو فوق كل مَن دوننا. لا لعمري! وبئست تلك من غاية. إنما لتكن غاية كلٍّ منا أن يرتفع بنفسه فوق ما هي عليه وأن يكون ارتفاعه مع الغير لا عليهم ما أمكن. وإن الذين يحتقرون رأي سواهم قلما يستحقونه. وحسن بنا أن نرمي إلى العالي (من الغايات) لئلا نهبط إلى الحضيض. وهو من المستحيل أن يسلم المرءُ من ركوب الشطط، ولكنه يمكنه كل الإمكان أن يجرب الابتعاد عن سبيل الغلط. وبعض الناس ينتظرون ريثما تأتي الفرص إليهم عوضًا عن أن يسعوا هم إليها فينتهزوها.

قال القديس أوغسطينوس إن البخل والطمع يعتبرهما الناس من الأعمال البارَّة، ولو أدَّيا إلى اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصي حين أنهما خطيتان كبيرتان. ومقالته هذه صحيحة لا مراء فيها، بشرط ألا يلتبس الطمع بالطموح والرغبة في الاعتلاء إلى الأفضل والأصلح وألَّا يُقصد بالبخل الاقتصاد، بل التقتير الذي يتناول ضنّ الوالد على أولاده بقوتهم الضروري.

فماذا يجب أن تكون آمالنا؟ أولًا يجب أن نفتكر بالآخرين كما نفتكر بأنفسنا. ومن ثم وقد أتيح لنا أن نكون أبناء مملكة عظيمة، فيجب علينا أن نطبع على صفحات صدورنا القَسَم الأثيني القديم القائل: «أنا لا أدنس ترسي المقدس ولن أغادر أخي الجندي في صف القتال وأتركه وحده، بل أخوض المعارك ذودًا عن هياكلنا ومنازلنا سواء معانًا أم غير مُعان. وقسمًا أن أترك بلادي لا أصغر بل أشرف وأعظم مما أُلقيت بين يديَّ».

أجل يجوز لنا بل ينبغي علينا أن نتطلب اعتبار مواطنينا ومعاصرينا لشخصياتنا، أما الجشع في طلب المجد فتهلكة وتغرير بالنفس. وإليك ما قاله شيشيرون بهذا المعنى: «كما سبقت فقلت – كذلك يجب الحذر من الإفراط في حب المجد؛ لأنه قد يحرمنا حريتنا والحرية أعز شيء يجدر براقي الشعور أن يشتريه بكل غالٍ ونفيسٍ لديه. وليس للقوة صفة ذاتية تحب من أجلها، بل ما أولاها بالرفض والترك أحيانًا. وكذلك ينبغي أن نكون أحرارًا خالصين من شوائب العقل ومزعجاته وأحرارًا من سلطة الشهوات خالين من الخوف، بل ومن الارتخاء والكلال والاندفاع والحدَّة؛ لكيما يتيسر لنا أن نفوز بذينك الهدوء والسلام اللذين يمنحاننا الثبات وعزة النفس».

كثيرون يغبطون الأغنياء الأقوياء لزعمهم أن هؤلاء مُسعدون يشترون ما يشتهون ويفعلون ما يشاؤون. على أن المُسعد ليس بالضرورة سعيدًا. ففي الصيد مثلًا ليست اللذة في قتل الطريدة، بل بمطاردتها. ولذة الارتقاء وهو مستمرّ أعظم من لذته بعد تمامه. وإذا لم يكن عندنا

شيء نتمناه، أو شيء نأمل الحصول عليه فخسارتنا هي خسارة نصف رونق الحياة والرغبة فيها.

والذين يولدون على «الأطلس الوثير» لا يُنكر ما لهم مما ليس لغيرهم من أجل ذلك. فقليل ما يتمنونه، ولكن كثير ما يخافونه ويخشونه. إنهم يبددون وقتهم - والوقت هو الحياة والحياة هي أثمن ما يُملك- بين الرسميات والعوائد المملّة التي تقضي عليهم بلبس البدل اللائقة ونزعها. فهم أبدًا بين مقابلات ومخابرات ومراجعات وحضور جلسات خصوصية أو محافل عمومية أو ولائم عمومية أو نصف عمومية... إلى غير ذلك من إرساليات وانتدابات... إلخ. فضلًا عن ذلك أنهم مضطرون لأن يكونوا أبدًا على حذر من المتزلفين والمتملقين ومن تجارب هي أكثر مما يعرض لمَن كان أقل نفوذًا وظهورًا منهم. وليس هذا كل أمرهم، فإن مهامّهم والمسؤولية الملقاة على عواتقهم تقوّس ظهورهم وتحنيها. وما أصدق قول شكسبير بهذا المعنى: «لا راحة لرأسٍ تحت تاج»، فعندهم أشياء كثيرة، ولكن الراحة والسلام قلما يكونان من جملتها. «الأمراء كالأجرام السماوية التي تسبّب السعد أو النحس والتي لها من أجل ذلك اعتبار كبير، إلا أنها لا سكون لها ولا راحة»[1]. إنهم عُرضة للوقوع في تجارب قد ينجو منها الوضيع والصعلوك، بل قل كم من ملوك خلعوا أو ثلَّت عروشهم وكم منهم مَن ذاقوا مرارة النفي وكم منهم مَن سقطوا فرائس باردة إما في يد العدل وإما تحت أقدام الخائن والجاني.

(١) بايكون.

كتب البرنس لودوِك أوف ورتمبرج إلى روسّو الفيلسوف التهذيبيّ الشهير يستشيره في شأن تهذيب أولاده، فصدر جوابهُ إليه بهذه العبارة: «لو كنت سيئ البخت وولدتُ أميرًا...».

الظالم الذي يسجن مظلومًا هو من ظلمه كسجينه في شقائه، بل إن حياتهُ لفي خطر أشد.

وقد قال بايكن: «مَن اعتاد أن يتقدم دائمًا ووصل إلى موقف لا يمكنهُ أن يتخطاه، انقلب من تلقاءِ نفسه وبات على غير ما كان عليه بالأمس».

والعيشة في السجن بضمير نقي لا يَخِسُ ولا يبكّت وبعقل سائد عليه السلام أفضل من العيشة على أسمى العروش بالهم والقلق والاضطراب، ولا سيما إذا كان العرش مغتصبًا بالقوة أو مرتقًى بالخديعة. والقوة ليست كما يقولون دواء لكل داء. وسيفشل الآملون العاملون بقول سعدي: «بقوة الذراع نجتذب الرغائب من تلابيبها»، وزد على ذلك أنه إذا كانت العلياء مصدر وجد وجزع، فالسقوط ينبوع آلام لا ينشف. وكثيرون بعبارة ملتن:

هُمُ خوفًا من أن يصيروا أقلا أن يعيشوا ما همَّهم ذاك أصلا

ومَن كان على جناح بناءٍ شامخ، كان أبدًا عرضة لخطر السقوط إلى أسفل. وجميعنا نعلم كيف تدور بنا الرأس إذا وقفنا على جرف هوة، وكيف نأخذ بتجميع قوانا حذرًا من الإلقاء بأنفسنا إلى أعماقها. وإن مركزًا عاليًا في هذه الدنيا مرتفعًا على سائر الناس لهُ نفس التأثير على عقل صاحبه. وكثيرون ممن لم يكتب لهم العلاء في دنياهم يمكنهم أن

يسيروا في طريقهم على وطوءها بكل أمان وإكرام - وهو الأولى.

وقد يصح ما يقولون من أن:

ساعة المجد تساوي حقبةً من دون مجدِ

ومع ذلك فقد نشتري الذهب بأكثر مما يساوي. «ويا له من غبن أن نفقد السلطة على أنفسنا والحكم على وقتنا ابتغاء نيل السلطة على الآخرين. وغريبة هي رغبتنا في طلب القوة ولو بخسارة الحرية. وغريب أن نرضى بالحكم على الآخرين ولا حكم لنا على أنفسنا»[1]، ومدام دي ستايل وصفت الشهرة بقولها: «إنها فجر السعادة المبهج»، إلا أنها ككثير سواها لم تتبع قولها وتعمل بهِ.

أتحفنا ماركيز إف مونتروز بشعر لطيف عنوانه «حبيبتي العزيزة الوحيدة» يقول فيه:

إذا كان غيري يخاف القــدَر وقلّت فعالٌ عليهـــا قـــــدر

فمجدكِ من ذا اليراع الأغــر وصيتك من ذا الحسام الأغــر

وفي رواية أخرى «فصيتك من ذا اليراع الأغر»، وأظن أن الرواية الأولى هي الأصل، وهي الأفضل في رأيي. وفي بعض الأحوال تصبح نصيحة ولسي قابلة للارتياب؛ إذ يقول مخاطبًا كرمول:

ألا دع بربك هذا الطمع فإبليس فيه قديمًا وقع[2]

وفي نفس المخاطبة أيضًا:

---

(١) بايكون.

(٢) رواية شكسبير هنري الثامن.

فوق ما في الأرض من جاهٍ كبير راحةٌ أمنٌ سلامٌ في الضمير

وزد على ذلك أن بسطة الثروة وعرض الجاه وصول القوة قد يحول دون تمتع المرء ببعض بركات الحياة الحقيقية. وولسي مع أنهُ ينهى عن الطمع وحب المجد، فهاك ما يقوله في هذه الأبيات:

ليالي العز طولي ودّعينـــا أو امضي في تنعمنا دعينـــا
أيومٌ نزرع الآمال فيـــــه فتنبت بهجةً للناظرينـــــا
ويوم تزهر الأغصان منهـا فنصبح بالمكارم مفعمينـــا
ويوم زمهرير القرّ منـــــهُ يميت أصولها إن تدن حينا
فبينا نحن نأمل جني غرسٍ نموت كأننا وهمًا حيينـــا؟

فمن كانت آمالهم في القوة فلا أمل لهم في السلام. والذين يطلبون حياة سلام وطمأنينة فليدعوا حب العظمة جانبًا. «إنهُ لا يوجد طريق جميلة وسهلة المسلك بين هذه الأرض وتلك النجوم»، «لا عمل في هذه الدنيا أكبر مشقةً من العمل على تكبير الاسم (الشهرة)، وقد تنتهي الحياة قبل تسطير الحرف الأول»[1]، وربما آلت شدة الطمع في النجاح إلى الفشل وإخطاء المرمى، أو كما قال شكسبير:

رام إن يرقى إلى رأس الجبل فاعتلـــى الرأس وللوادي انسفـل

على أنهُ «لا يلزمك أن تلح في طلب القوة أو أن تجاهد في سبيلها؛ إذ إن تكن حكيمًا وصالحًا فهي أتبع لك من ظلك»[2]، ولئن نقف على

(١) لابرويار.
(٢) الملك الفرد.

صخرة الفضيلة أفضل لنا من الوقوف على جليد السعد السريع الانكسار. والنجاح في أي خطة كانت لا يُنال بغير الكد والاجتهاد ولا وصول إليه لمن يهبُّ تارة وينام أخرى ويثب وثبة ثم يجلس منهوكًا. والثبات وتوطيد العزم هما من ألزم شروطه كما لا يخفى. فكمتسلق جبال الألب أنه ينقل خطاه متثبتًا مستمكنًا فلا يسرع ولا يتأخر، بل أبدًا إلى الأمام. ولا شك أن الثبات من أهم أباب النجاح. ولله در شكسبير القائل:

داومْ فعالك يا مـــولاي مجتهـــدًا

تلبسْ من الفخر أثوابًا لها جُـــددا

وطارف المجد فيهِ الخير فاعـــنَ له

لا خير في المجد إن ما فات أو تلدا

وتالد المجد سيف مات صاحبهُ اسْـ

ـتبقوا عليه فأمسى يعتليهِ صـــــدا

إذا عجزت عن تخليف ثروة أو منصب عالٍ لأولادك، فاترك لهم بالأقل ذكرًا جميلًا. ومَن فاتتهُ فعال الأريحية والبسالة في الحروب، فإن في استطاعته ومن الواجب عليه أن يمارس العدل والشرف والكرم والوداعة والاعتدال في كل أطوار حياته. واعلم أن أحسن ميراث يتركه الوالد لأولاده إنما هو فضائله ومآثره»[1].

وكل إنسان مهما قلّت قسمتهُ ينفع العالم بأفعاله، إذا بذل جهده وأفرغ ما في وسعه، بينما كثير من الأغنياء والأقوياء يضعون ما لديهم

(١) شيشرون.

في كفة الشر من الميزان ويرجحونها على كفة الخير.

يؤيد الاشتراكيون مبدأهم وخطتهم بدليل أن الحالة الحاضرة غير مرضية. وإنه ليسهل على جميعنا أن نشعر بما يشعرون من دون أن نصير اشتراكيين مثلهم. والاشتراكية ضربة قاضية على الحرية والاستقلال الذاتي. ومن وجهة اقتصادية لا أمل لها بالقيام مطلقًا؛ لأنها تحمل على التقاعد عن العمل وتحصيل القوت وغيره من الضروريات، بل الأنكى فيها أنها تنطوي على الخضوع الاختياري التام للحكومة، بل لذات موظفيها. وما الذي أدّى بحكومة الرومان إلى الظلم فالخراب؟ بعض رؤسائها كهادريان وماركوس أوريليوس وأنتونيوس بيوس وأمثالهم، كانوا من خيرة الرجال، ولقد ضُربت بهم الأمثال في الحكمة والفضيلة. أما حكومة كالتي يقصدون فلا تكون إلا استعبادًا منظمًا، وإذا كانت الحكومة تتولى أمر قوتنا وسكننا وكسوتنا، بات من الواجب إذ ذاك أن نأكل ما يُقدَّم لنا ونلبس ما يُعطى إلينا وأن نعمل كل ما نؤمر بعمله. فلا يبقى لنا مجال للاختيار في شؤوننا ولا في شؤون أولادنا. فلا يحق لأحدنا بعد ذلك أن يختار مهنة لنفسه أو لأحد أبنائه، بل يصير محتمًا علينا أن نرضى بما يختاره الكاتب في المجلس المحلي أو أحد مستخدميه. ولعمر الحق إنْ هذا إلَّا محض عبودية وغلٌّ للأيدي عن العمل وعقبة في سبيل التقدم وعقال يُثقل به معصم الحرية. فلا أمل لنا بتحسين الحال عن طريق الاشتراكية، وإنني آمل أننا سنسلم من هذه الأخطار وعلى يقين من أن العالم سيتقدم.

يظهر أن القدماء كانوا يجهلون ماهية التقدم، فكانوا يتصورون العصور الذهبية كأنها ماضٍ مضى. أما نحن فنعتقد ونرجو أن تكون الأواتي عصورنا الذهبية.

ولئن كنا نأسف أن نرى «حقيقة مستكرهة تقتل نظرية جميلة» فبحق قد نبكيها ونندبها، إلا أنه يجب أن نقبرها ونواريها تراب النسيان. والأفكار تتقادم مثل الدراهم والمسكوكات. وقد يُنتج الدماغ فكرًا يكون خطوةً إلى الأمام في سبيل التقدم، ولكنهُ كقطعة سُكَّتْ من خالص الذهب لا تلبث أن تبرى بالاستعمال وتقل قيمتها». «والنقطة التي كانت غير منظورة لعين الفكر بالأمس، هي اليوم غايته وغدًا نقطة ارتحاله»[1].

عجيبًا كان تقدم العلم في القرن الأخير، فإنه مكَّننا ليس من زنة النجوم وقياسها فقط، بل من تحليلها ومعرفة العناصر المركبة منها. وبفضله صرنا ننحدر إلى جوف الأرض وأعماق البحار، ونشاهد بروز الجبال وتكوّن الأودية ونفهم تعرّجات الأنهار. وبوسائله بتنا نمشي فوق الأنهار العظيمة ونقطع البحار الشاسعة ونخوض عبابها ولا نخشى ضلالًا. وبواسطته قرّبنا البعيد وتغلبنا على المسافات. بل إنه منحنا نورًا ونارًا وخفَّف عذاباتنا وآلامنا بعلاجاته، وأطال الحياة وضاعف لذة الوجود. وإن كنا نعرف شيئًا عن العصور الخالية أو كان لنا فكرٌ ما عن رقي العصور الآتية فبفضله كل ذلك.

لقَّب «رنان» القرنَ الماضي بالمسلّي. أما أنا فلو وصفتهُ لقلت إنه كان قرنًا فائقًا باكتشافاته واختراعاته. فالقطار والباخرة والأسلاك

---

(١) ماكولي.

البرقية والتصوير الشمسي، والغاز والبترول والنور الكهربائي، والتحليل الطيفي وأشعة رونتجن، واكتشاف عدة عناصر بسيطة أهمها الراديوم، واختراع الناقل والحاكي، وتحويل الهواء والهيدروجين إلى ماء، واستنباطات داروين، ووضع علم طبقات الأرض على أساس راسخ، واكتشاف العلاجات المخدرة والمانعة للعدوى -جميع هذه أشبه بمجرَّة في سماء العلم ليس لقرن آخر مجرَّة تضارعها. وما قيل في العلوم المادّية يُقال في النظرية والأدبية أيضًا. فحرية التجارة وقدر التهذيب قدرهُ وتطهير الديانات من شوائب الخزعبلات والقضاء على السحر والعرافة اللذين طال تعلقهما على العقل الأوروبي تعلق غطاء النعش فوق الميت، وقطع الزيادات التي لحقت بالفنون والآداب- كل هذا من بركات القرن التاسع عشر أيضًا.

ولما كان الأمر كذلك، فلا بدع إن تساءَلنا عما إذا كان القرن الجديد -أي الحاضر- يجود بتحقيق مثل تلك الرغائب البعيدة. والمرحوم لورد دربي -وهو بلا ريب أحد ساستنا الكبار- ذهب إلى أن ذلك أبعد من أن يؤمل. وأنا مع أني أتردد في مخالفته عادة، فإنني لا أتمالك من الاعتقاد بأنه يحق لنا أن ننظر إلى المستقبل بعين ملؤها الأمل والرجاء. ولو كان العالم معروفًا لدينا أكثر مما هو الآن، أو لو كان يوجد بعض النسبة بين ما نعرف وما نجهل، لكانت الحالة غير ما نقول. أما الواقع فهو إن معرفتنا ليست إلَّا كسرًا جزئيًّا مما لا نزال نجهله. فأي عنصر من العناصر نعرف جميع خاصياته أو استعمالاته؟ أم أي حيوان أو نبات نعلم تاريخ حياته من الأول إلى الآخر؟ ألا إننا محاطون بقوًى وفواعل

لا نكاد نعرف عنها شيئًا بعد. والغشاوة التي أثقلت أبصارنا لم تكد تزاح. وما نحن إلا مبتدئين لا نرى إلَّا سرّ القليل مما نرى. ونحن في عالم ملؤه الأسرار والغوامض. إلا أنه بالنظر لثلاثة أمور يجوز لي أن أزيد آمالًا في رقي الإنسانية وتقدمها. الأول استمرار التحسين في الآلات والمعدَّات واختراع آلات جديدة تساعدنا على البحث والاكتشاف. الثاني تزايد عدد النازلين في هذا المضمار، وإن يكن يحق لنا حتى اليوم أن نقول: «هو ذا الحصاد كثير، أما الفعلة فقليلون». والثالث أنه كما أن شمس الاكتشاف تقشع غيوم الجهل وتبددها، وكما أن نور العلم يخرق ظلمة الأسرار والمبهمات التي حولنا، فهكذا احتمال التقدم في المستقبل يقرب من الإمكان شيئًا فشيئًا. فكل اكتشاف جديد يفتح بابًا جديدًا ويمهد سبيلًا جديدًا لاكتشاف أهم ولفوز أسمى.

إن أولادنا اليوم يتلقون العلوم على معلمين قديرين ولهم امتيازات وفرص عظيمة لم تكن لأسلافنا. وإني لآمل، بل أعتقد أن تقدم العلم المأمول لن يُعدم يدًا بيضاء حتى من الأقرب إليَّ والأعز لديَّ فيأتون ما ينيلهم شرف العمل بالعلم ويزيد الإنسانية معرفة. «والعلم قد أطال الحياة وخفَّف الآلام وأفنى الأوبئة، وزاد الأرض خصبًا، والبحري هداية، وسلَّح الجندي بعدة جديدة، وأقام فوق الأنهر الكبيرة جسورًا فخيمة بأشكال لم يحلم بها أجدادنا، وذلّل الصاعقة المنقضة من أعلى عليين وأنزلها إلى تحت التراب مخزيةً مخذولة، وأنار الليل بسناء النهار، بل أطال بصر الإنسان فصار يرى بعيد الأشباح كأنها أقرب إليه من الوريد، وزاد حركة المتحرك وضاعف سرعة السريع، وحكم على

البعد والمسافة بالإعدامك، وسهل المخابرات والمراسلات، بل مكَّن الإنسان من النزول إلى قرار البحار، ومن التحليق في طبقات الجوّ، ومن الدخول في ظلمات الأرض، وقطع السهول على مركبات لا تجرها الخيول، وقطع البحار بسرة عشر عُقَد في الساعة ضد الريح»[١].

قال ملتن: «شبه الكتاب الحقيقة بنبعٍ جارٍ، فإذا كانت مياهه ترجع إلى الوراء، لا تلبث أن تصير مستنقعًا قذرًا».

للعلم أهمية عظمى في حياتنا. وأخلق به أن يكون أخلب لألبابنا من حكايات الجن والروايات جميعًا. ومَن يهمل تتبّع سير الاكتشافات الباهر الذي يتحفنا كل يوم بطرفة، ويحدث فينا تأثيرًا أدبيًّا بما يظهره للعيان من جمال الطبيعة وعجائبها التي طالما عشنا بينها ولم نشعر بوجودها، قلت مَن يغفل عن مراقبة تقدم العلم كان كالرافض بإرادته واختياره إحدى بركات الحياة العظمى وخير عطية حبتنا بها العناية.

ولكن ليس ذلك كل الأمر، فيا للأسف أن رجال العلم لحد الآن لم يقابلوا بحقهم من التشجيع. «فالرجل الذي اخترع المقِرب[٢] وقرَّب السماوات من الأبصار، كان طرحه في السرداب جزاءَه، والرجل الذي اخترع المجهر وكان أول مَن نظر الأرض بدقةٍ مات جوعًا وطُرد من بيته»[٣]. «وإذا عد اختراع المركب ذا أهمية عظمى؛ لأنه ينقل خيرات بلاد إلى أخرى، ويسهل المواصلات، واشتراك الأمم المتباعدة بعضها

(١) مكولي.
(٢) التليسكوب. (المحرر).
(٣) رسكن.

مع بعض، فكم يجب بالأحرى أن تكبر حروف الكتابة التي كالمراكب تجتاز بحار الأزمان الشاسعة وتمكن عصرًا من مشاركة آخر في أنواره وحكمته ومخترعاته»[1].

ما هو التقدم؟ ليست العبرة في التقدم والرقي بزيادة حاصلات البلاد ومدخولاتها، أو بتجارتها وصناعتها وخطوطها الحديدية وأسلاكها البرقية ولا بانتصاراتها الحربية. لا لعمري! لا يتوقف توفيق البلاد ونجاحها الحقيقيان على أحد هذه الأمور، بل على ازدياد أبناء البلاد صحة وسعادة وجدارة وأهلية. وإنه لمن أبرك الامتيازات التي لنا وأعظم الآمال التي فينا أن يعمل الواحد منا في حياته ما يقرّبنا من هذه الغاية الشريفة.

(١) بايكن.

الفصل الخامس

القناعة

نور الشمس والظل- التذمرات غير المعقولة- سليمان الحكيم- أدوار الحياة: الطفولية، الصبا، الرجولية، الشيخوخة- الموت- القنوط (السويداء)- التفكير في المصائب- العيش في فردوس- الحرية- الاضطراب والبلبال- الشجاعة.

(إذا لم يكن ما تريد، فأرد ما يكون).

والشمس مهما اشتد لمعانها، تظل الأرض ذات وجهين من ليل ونهار، بل قل لأن الشمس تسطع بنورها يتحتم وجود الظل والخيال. وكقول بندار:

هكـــذا حـتـى الأبـد بـحـرنـا جـــــزرٌ ومـــدّ
مـوجـة الأفـــراح تعلـو ويـلـي جـــــزر الكمد

إلا أنهُ إنكار للجميل أن تستطرد إلى مثل قوله:

وإذا الأرباب جادت بجميلٍ لأحد
تبتليهِ بنصيبين من الرزءِ الأشـــــــد

قال بلوتارك: «يستوقفني قول ديوجونيس التالي لدى مشاهدته رجلًا غريبًا يبالغ في استعداده لحضور وليمة: (أحرِ بالإنسان الصالح أن يحسب كل يوم من أيامه يوم مآدب وولائم)، والحق يُقال شائقة هي ولائمنا اليومية لو درينا وعقلنا. فعالمنا هيكل إلهي مقدس يدخله المرءُ حين يولد لا ليعاين أشباحًا غير متحركة من صنع يد الإنسان، بل ليشاهد ما صنعتهُ يد الحكمة الإلهية من ممثلاتها التي لا يدركها إلا العقل، وقد بعثت فيها علة الحياة والحركة، كالشمس والقمر والنجوم والأنهار المتدفقة بالمياه العذبة والأرض التي تجود بمادتها غذاءً للحيوان والنبات. ولما كانت الحياة بثًّا وبعثًا في جميع هذه الأشياء، وجب أن تكون ملآنة من الراحة والسرور. أما الناس فكأنهم يحتقرون المآدب التي

يأدبها لهم الخالق، فيقضون أغلب أيامهم بالبكاء والنحيب، وبانقباض النفس والاضطراب والاهتمام. وكيف ذلك؟ إنهم لا يصغون لأقوال الناصحين العارفين. على أنهم لو فعلوا لكانوا يعيشون في حاضرهم أنعم بالًا، ويذكرون ماضيهم بالخير، ويعملون للغد الآتي بأمل وسرور ومن دون خوف ولا ريبة».

وإذا كنا لا نرى الحياة بركة، فما بالنا نحسب الموت لعنةً. وفي الحقيقة ما أقل الذين يطلبون الموت:

ليس إنسيٌّ بهِ بعض النَفَس يتمنى ســـــاعةً لو يُختلَسْ[1]

ورغمًا عن ذلك، كم نقرأ من تأفّفات وتذمّرات في غير محلها، فيُخيّل لنا كأنما قصد بالعالم منذ خُلق أن يكون منبعًا للاضطراب والعذاب وظلمةً حالكةً بأحزانه وأكداره، وكأن «الحياة إذا طالت فهي المصيبة تكبر»[2]. وإليك هذه الأغنية القديمة:

حياتك إن تكن فيها مُعيـرًا غنيًّا مسرفًا تهب الكثيـــــرا
تجدها حلوةً فاقت جمـالا فلا تلقى بها إلَّا الســـــرورا
ولكن إن تكن فيهـــا فقيرًا تُعار وتطلب المهضوم جورا
تقل قولي لهـــــا تبًّا وتبًّا لدنيا ما عرفت لها نظيـــــرا

قال پوركاس: «خير للإنسان أن لا يُولد، وإن وُلد فأن يموت حالًا»، وهو القائل أيضًا: «جسمنا عالم صغير، بل جهنم شقاء».

---

(١) تنسون.

(٢) جنسون.

وحتى الملك سليمان الذي أُمطر شآبيب النعم والآلاء، وأُغدق بالبركات، تذمَّر من الحياة قائلًا: «فكرهت الحياة؛ لأنه رديءٌ عندي العمل الذي عمل تحت الشمس؛ لأن الكل باطل وقبض الريح. فكرهت كل تعبي الذي تعبت فيه تحت الشمس حيث أتركه للإنسان الذي يكون بعدي. فتحولت لكي أجعل قلبي ييأس من كل التعب الذي تعبت فيه تحت الشمس؛ لأنه ماذا للإنسان من كل تعبه ومن اجتهاد قلبه الذي تعب فيه تحت الشمس؛ لأن كل أيامه أحزان وعمله غم. أيضًا بالليل لا يستريح قلبه».

يؤكد لنا لورد بيكنسفيلد «إن الشباب غرور، والرجولية جهاد، والشيخوخة حسرات»، و«إن فشل الرجولية ملحق لغرور الشباب». فيظهر أن الجميع يشعرون بأن دور الطفولية هو عهد طهارة القلب، وعهد السعادة، وينظرون إلى الحياة كأنها تظلم وتفقد رونقها مع مرور أيامها. وكاستيليون يقول: «وفي الكبر تسقط أزهار المسرات من قلوبنا سقوط الأوراق في فصل الخريف»، والشاعر هرِك يجاريه بقوله أيضًا:

ألا إن أحسن عهدٍ نعيشُ لعهدُ حداثتنـــا الأولُ
وإذ نحن نخرج من دوره ففي شرّ أدوارنا ندخلُ

وفي نظر شكسبير:

ما للشبيبـــــــة والكبَرْ أبدًا لقـــــاءٌ أو مقـرْ
فهي المسرّة والهنـــــا وهو التحسُّر والكـدر

وهي الضحـــى بغزالةٍ تبدو يغازلها القمـــر

وهو المسا بغيومـــــه والليل فيـــه اشتدَّ قرّ

وهي البسالة في الفتـى وهو الجبانة والحـــذر

هو أعرج يمشي وهـي ظبي بوادٍ قد طفـــــر

هو داجنٍ فقد الحيـــا وهي الغزال إذا نفـــر

وشكسبير غالبًا يغض من قدر الكبر. وإني لأتردد في إيراد ما أنطق به ماكبث[1] القائل:

كبرتُ وغصني اصفرَّ اخضر لونه

وأوراقهُ عما قريبٍ تـــــودّعُ

فلا مجدَ لا إكـرامَ لا شمـل رفقةٍ

ولا خدَم فيهم أُطاع وأُسمـع

ولا عزَّ إلَّا عزُّ فيَّ وإنهـــــــــا

لأنفاس مصدور به تتقطـــع

أهمُّ إلى إخمادها فتعيقنـــــــي

حشاشة قلب من مماتي تجزع

أما ماكبث فإنه هو الذي جرَّ شقاءَه على نفسه عقابًا وجزاءً، وربما كان شكسبير مخالفًا له في رأيه في الهرَم والكبر.

(١) بطل إحدى روايات شكسبير.

وقد لا نستغرب أن نسمع بيرون[1] يندب أيامه، وهو في السادسة والثلاثين من سنيه بقوله:

ألا إن أوراقي تغير لونهـــا
وقد أصبحت صفراء والغصن قـد ذوى
ودوح الهوى أزهاره وثماره
لقد سقطت والسوس في عوده ثـــوى
تمضَّت ليالي الأنس لا عودة لها
وحلّت ليالي البؤس ليس لها نوى

وهو نفسه القائل:

تحرث المـــرءَ السنينُ وبهـــمٍّ يُـــزرعُ
وكذا الموت اللعيـــنُ حـــاصدٌ لا يشبعُ

ثم هاك أبيات كِراي من قصيدته «ذكرى كلية أتون»:

آهٍ لها تلك التـــــلا لُ ويا لها تيك الظـــلال
آهٍ لها تـلك الحقـــو لُ وحبها الماضـي خيال
حيث الفتوَّة عشتهـــا بمسرَّةٍ وصفـــاءِ بـــال

ولكن يا للأسف! كم من مسافر في بحر الزمان يسلّم دفته للمسرات، ويترك شبابهُ في مقدمة السفينة، فتتلاعب به أهواؤه ولا تلاعب الأنواء بالشراع.

(١) شاعر إنجليزي.

أما جوبرت فكان يرى أن الطفولية والشيخوخة هما أحسن أدوار الحياة؛ فالأول دور البراءَة والطهارة، والثاني دور العقل والحكمة. وسعادة الأطفال أبدًا منوطة بالآخرين، ولا سيما بالوالدين. أما سعادة الكبر فمتوقفة علينا لا غير.

والصبوّة يجب أن تكون ملأى بالسعادة، وخالية من الهموم، بل كالربيع بزهائِهِ ومصداقًا لقوله:

يا ربيعي بل يا صبوَّة عامي يا صبائي بل يا ربيع حياتي

وسعيد هو الولد إذا كان في بيت سائد عليه السلام، سالمًا آمنًا تحت جناح أم حنون، وفي ظل والد رؤوف، خلوًا من الهموم ملآنًا صحةً وحياةً ونشيطًا في ربيع عمره، كل يوم بنشاط جديد وأفكار جديدة. وقليلة هي المسرات التي تفوق المسرة بفكر جديد. بل إن الولد يكون أوفر سعادة بآماله السامية وغاياته الشريفة وبامتلائه من حب هذا العالم الجميل الذي يبدأ يتجلى له جماله، فيشعر إذ ذاك بقيمة عطية الحياة وعجائب الوجود وأسراره، ويأمل أن يعدَّ نفسهُ ليجيءَ شيئًا يُذكر في حياته. وأسعد من هذا الولد ذاك الشاب الممتلئ قوة، الناظر إلى المصاعب كأنها فرصٌ يغتنمها، والحاسب ما يحل به من الآلام إخطارات وإنذارات يستفيد منها. وهو إما متنعم بزواج سعيد، وإما آمل البلوغ إلى نعيمه –وهو نعيم يتمناه الجميع لمن يستحقه ويأهل له. أما أسعد أوقات الحياة فقد يكون الشيخوخة. وهو وقت إذا أحسن استعماله كان إعطاؤه أكثر من أخذه؛ ففيه يسعد المرءُ بأولاد محبين له يراهم ينمون ويكبرون حوله. وبعد أن أنجز فروضه وفرغ من أشغاله لا قلق ولا اضطراب يضيق صدره، بل

حتى بعد الكبرة والشيب و«اصفرار ورقة الحياة» قد لا نعدم إكرام الغير ولا نفقد عاطفة الحب، أو نخسر ثقة مَن كان يحبنا إذا كنا أهلًا لجميع ذلك. والشيخ في شيخوخته ما أعظم سعادته بذكره أنه خدم أبناء وطنه بشيء وعمل ما يؤول إلى تحسين حال إخوانه بني البشر، كإنارة ظلمات عقولهم وبعث أشعة السعادة إلى قلوبهم.

يتعجب الكثيرون من إيعاز الرسول بولس إلى المسيحيين بأن يعزُّوا بعضهم بعضًا بفكرة الموت، وما ذلك إلا لأنهم تطير نفوسهم شعاعًا من خوفه. مع أننا لا نفتأ نصلي من أجله كل يوم؛ إذ نقول: «ليأتِ ملكوتك»، فاقتراب الموت إذَنْ ليس دليلًا على انتفاء السعادة من عهد الشيخوخة. وأن لهذا العهد بركاته الخصوصية يتمتع بها الشيخ اللهمَّ إن لم يكن سبق فحوَّلها إلى لعنات بمجرد سقطاته وغلطاته.

أجل لا يسعنا أن نمنع الوقت من تسطير غضون الجبين، إلا أنه في طاقتنا أن نمنع الهموم من تدوين سطورها في صفحة الفكر. وما ضر المرء إذا وضحت تجعدات وجهه وصفحة عقلة مستوية لا تعاريج فيها؟

«يُخيَّل لكل امرئٍ أنهُ يحق له أن يكتئب اكتئاب هاملت[1]، ولو لم يظهر له خيال يوعز إليه بالثأر لأبيه»[2]. ألا إن ضحكة واحدة خير من مائة أنة وزفرة. وفي رواية (كما تريد) لشكسبير، يدَّعي جاك الكئيب أنه أكثر من الأسفار، وأُوسع من الاختبار، وأن اختباره سبَّب إكداره وجعله

(١) بطل رواية هاملت، وهو الذي قتل عمه أباه.
(٢) جوته. شاعر الألمان.

كئيبًا حزينًا. فيجيبه روزلند «واختبارك صيّرك حزينًا!! لعمرك إني لأفضّل غبيًّا يسعدني على اختبارٍ يحزنني. وها أنتَ من أجل الأحزان والإكدار قد ركبت الأسفار وتجشمت الأخطار!».

أنّى لنا أن نود لو كانت الحياة كلها «سمنًا وسكرًا»، أو «لبنًا وعسلًا».

فبأعتاب زفس قـــارورتان ذي لخيرٍ وذي لشـرّ الهوان

فيهما كل قسمة الإنسان

فالذي منهما مزيجًا أنالا زفس يلقى خيرًا ويلقى وبالا

والذي لا ينال إلا من الشـــرِّ فتنتابهُ الخطوب انتيابــا[1]

مصائبنا أسرع زوالًا من أفراحنا. وكما يقول جوبرت: «تفوت المرءَ أتراحه كما تفوته أفراحه». و «يا لجهل مَنْ يمزج النات والتأوّهات بنغمات الحياة المطربة!»، فكيف ترانا نقبل نصيبنا من الدنيا؟ أبفرح وشكر أم بذلٍّ وكمد؟ و«باطلة هي الحياة- إنما للباطل فقط»[2].

المسرات والآلام متداخلة متواصلة في نسيج الحياة، ولكلٍّ همومه وأحزانه. إلا أن أغلب الكُتَّاب أنكروا كثيرًا من البركات التي ينبغي أن تُشكر لواهبها.

وإذا جئنا نقدر الحياة قدرها، ونعرف قيمتها كهدية وُهبت لنا، وجب علينا أولًا أن نسقط من مجموع الأحزان والعذابات والهموم ما نحن جررناه على أنفسنا بأغلاطنا الشخصية، كالسُّكْر وسوء الخلق

(١) هوميروس، الإلياذة. تعريب العلامة سليمان البستاني.

(٢) الشاعر يونك.

وغيرهما من النقائص؛ لأن هذين وأمثالهما سببٌ لقسم كبير من أنواع الشقاء، ثم ترتَّب عينا أن نحسب حسابًا للهفوات الممكن الحذر منها، إلا أننا نقع في شرورها لقلة حكمة وعلم، أو لعدم تيقظ. ولزمنا إذ ذاك أيضًا أن ننزّل من نفس المجموع تلك المصائب التي تحل بنا مطلقًا، وأن نخفف أهمية ما يقع منها ونصغّرها بقدر ما كبرناها عن جرمها الحقيقي. وكذلك أن نطرح البلايا التي ليست إلا بركات متسترة والمصائب الوهمية – وليست هذه بقليلة. وإذا عملنا هذه العملية الحسابية وأحسنّا الإسقاط والطرح والتنزيل وجدنا الباقي قليلًا جدًّا بالنسبة لما يُحال. وحاشا لي أن أقول إن المصائب الوهمية لا تؤلمنا ولا تعذبنا، فإننا عرضة لها وكم تنال منا! ولكن إذا اعتقدنا مرة أنها وهمية لا غير نجونا من شر سطوتها واسترحنا من ثقل وطأتها.

ظل الإنسان أظلم ظل تحت شمس الحياة، وقد يتتابع الظل والنور (أي الخير والشر في الحياة) تتابعهما في أيام نيسان، وقد يوجد الاثنان في وقت واحد. وبعض أمورنا في هذه الدنيا مستقيمة، بينما البعض الآخر متأود ومعوجّ. فالفرح والكدر والسعد والهم والسلام في البيت والخصام خارجه، أو الخصام في البيت والسلام خارجه، والصحة والفقر والغنى والعذاب، تأتينا بأدوارها وأحيانًا جميعها سوية. أما النتيجة فسعادة أو بؤس؛ ذلك حسبما نريد ونختار، فإن نُدر ظهورنا للبركات ولا نضع إلا المصائب نصب أعيينا، أشقينا أنفسنا لا محالة. وبالعكس إذا نظرنا إلى الشمس وتركنا ظل المصائب خلف ظهورنا ألفينا البركات تربو على اللعنات، وعلمنا أن كثيرًا من مصائبنا ليس إلا

خيرًا مستترًا أو تجربة وامتحانًا، أو إخطارًا وإنذارًا، أو معارك نفوز فيها، فنلبس أكاليل النصر. «وما من أحمق سعيد ولا حكيم غير سعيد»[١].

وقد قيل إن الإيرلندي لا يعرف السلام إلا محاربًا، والاسكتلندي لا يشعر أنه في بيته إلا وهو غائب عنه، والإنجليزي لا يكون سعيدًا إلا إذا كان مدمدمًا متذمرًا. إلا أن هذه الخلة لا يتصف به الإنجليزي وحده.

كثير من الناس يصعب إرضاؤهم وإعجابهم؛ فقد قال أپكتاتس: «لا يعجبني الخلو فإنهُ صحراء ولا الاحتشاد فإنه ضوضاء». إلا أنه دلّ على حكمة فائقة؛ إذ قال: «لا تتطلب صيرورة الأشياء كما ترضى، بل ارضَ بكونها كما هي، تعش عيشة هادئة ومطمئنة». وإذا كانت جميع المسرات لا تخلو من خسارة تتلوها، فهكذا أغلب النكود قلما تخلو من خير يأتي جزاءَ احتمالها. والولولة من المصيبة لا تزيلها. أما احتمالها بعزة نفس وشجاعة أدبية فقد يحوّلها إلى بركة. فخذ الحلو واترك المرَّ من كل شيء.

من الحكمة أن نسلك في الحياة ملك الرزانة والحذر والحسبان من دون أن نحسبها مرسحًا للتقادير وطوارق الحدثان. وكثير بل القسم الأكبر من مصائبنا منا وعلينا. أما البركات فهي مُهداة إلينا. «وأي شيء لك لم تأخذه، وإن كنت قد أخذته، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذه»[٢].

نعم! إن جدينا آدم وحواء قد طُردا من الفردوس، ولكن لا مانع يمنعنا من العودة إليه وبناء بيوتنا على نعيمه.

---

(١) شيشرون.

(٢) كروتشس ٤ – ٧.

وقد قال تراهرن: «إن النجوم اليوم لجميلة مثلما كانت في أيام جنة عدن، وكذلك الشمس بلمعانها والبحر بصفائه. وما ملأ الدنيا شقاءً وخرَّب نظامها وقضى على جمالها وسلامها إلا الخطايا والرذائل. فالزور والبهتان والحسد والترف والطمع وحب الفخر - هذه ملأت العالم شوكًا وقتادًا، وأوجدت الضغائن والتشكيات والحروب والدمار».

وإني لأكرر وأعيد أن النحس قد يكون سعدًا متخفيًا، فحرمان المرء حريتهُ مثلًا قد يعد مصيبة كبيرة، ولكن كم من الكتب العظيمة كُتبت في أعماق السجون! وقد قالت مدام دي ستال وهي في حبس الباستيل: «نعم! طالما أنا في الحبس لا أعمل بإرادتي -ولكن- ولا بإرادة غيري. فكأني استعدت نصف ما فقدت».

وأكرر وأعيد أيضًا أن كثيرًا من مصائبنا وهمي لا حقيقة له، وأغلبنا نتذكر عدة أحوال أشقينا أنفسنا فيها توقعًا لنتائج لم تحصل وخوفًا من أخطار لم نقع فيها. ولنسمع الكولونيل كودون إذ يقول: «لقد طعنت في السن وصرت كهلًا، وقد اتفق لي مصائب كثيرة وأغلبها لم يحدث مطلقًا». وكثيرون يثلّثون مصائبهم فيتركون الواحدة ثلاثًا بتحديقهم فيها والتفاتهم إلى ما وراءها وأمامها.

من جملة ما نكره ونخاف شبح الموت الهائل. ولكن إذا فقدنا عزيزًا أو حبيبًا، أفلا نجد بعض التعزية في القول مع مسز سجورني: «إنه الآن آمن لدى قويّ لا خطيئة بقربه ولا ألم ولا ممات»؟ ومدار الكلام الآن ليس على خسارة الأهل والأصدقاء، بل على فقد حياتنا وخسارتها. وهو

بديهي أنه إذا كانت الحياة شقاء، فالموت خير ارتياح من ذلك الشقاء. وبعبارة أخرى إذا كان الموت ضربة فالحياة بركة. والحياة ليست بركة دائمًا، إلا أنها غالبًا كذلك، اللهمَّ إن لم نلعنها بأفواهنا ونتلفها بأيدينا.

وغالبًا ما نبخس البركة بعض قدرها أو ننكر وجودها بالكلية حتى إذا فقدناها بكينا- كقوله:

قد تكون الكنوز عندي كثارًا ... وأنا جاهل لها الأقـــدارا
فـإذا بُـدّدت عرفت لها قـد ... رًا ولكن ما قد تقدَّر صـــارا
إن جهل الفتى لما في يديهِ ... تارك هذه الديار قفـــارا[1]
إن الطبيعة الكريمة و....
للحكيم العاقل المعتبـــرِ ... أينما حلَّ فيمنًا وســـــلام
فهو في عين السما إن ينظرِ ... يلفِ شمسًا ونجومًا وتمام[2]

وكما يقول الرسول بولس: «ليس أني أقول من جهة احتياج، فإني قد تعلمت أن أكون مكتفيًا بما أنا فيه»، وعدم الاشتهاء خير من الشبع. والدنيا مهما أعطت فإنها لا تسعد إنسانًا. فماريا ترازا قرينة الملك لويس الرابع عشر قالت على فراش موتها: «هذا هو يوم حياتي السعيد».

إذا ما عملت جهدك فصبرًا ورجاءً، ولا تكن عجولًا ولا قلقًا. إن ذلك لا يجديك نفعًا. وأذكر الآية الواردة في المزامير: «أيضًا كنت فتى وقد شخت ولم أرَ صدّيقًا تُخُلّيَ عنه ولا ذريةً له تلتمس خبزًا».

---

(١) كوبر.
(٢) شكسبير.

«ومن كان فقيرًا وقنوعًا، فحسبهُ غنًى»[1]، ويقول بولس الرسول: «فإن كان لنا قوت وكسوة، فلنكتفِ بهما».

وبالحقيقة ما أقل ما نحتاج إليه حق الاحتياج. «والإسكندر عاش بعظمته وجلاله إلى أن رأى أخيرًا صعلوكًا في (برميل) لم يستطع أن يسلبهُ شيئًا ولا أن يزيده شيئًا»[2].

وقليلون هم الذين تعوزهم ضروريات الحياة كالخبز والماء واللحم والفاكهة أو المبيت ليهتموا لها. ولكن الناس شديدو الاهتمام بكماليات الحياة، بل قل -زوائدها- كاقتناء المركبات والخيول وخزن الذهب والحجارة الثمينة، فيشقون من أجل البذخ والترف، ويكدون ويكدحون ويبتئسون في طلبها، مع أنهم قد يكونون أحسن حالًا من دونها.

لا شك أن التوفير حكمة عظيمة. وحسنٌ بنا أن نجمع حسبانًا لأيام العجز، ولأجل من يبقى بعدنا. ولكنهُ أهم وأجدر بنا أن نملأ الخزائن من سلام الفكر والتذكارات المسرة. والسرور والسلام قلما يفترقان. اعتبر ذلك بمآل هذه القصة:

سألوه أين يا هذا الولـــــدْ رفقة تلعب معهم أأحـــــد؟
قال يا قومُ (سرور) صاحبي (وسلام) أخته فخر البلـــــد
فهو يأتيني وتأتي معـــــهُ ونمضّي الوقت في هزل وجد
و(سلام) بي شديد حبهـــا و(سرور) حبه عندي أشـــــد

* * *

(١) شكسبير.
(٢) سينكا.

كبر الطفل وأمســـــى هرِمًا واعتلى جبهته لون الكمــد
ثم عادوا سألوه عنهمـــــــا فأجاب الشيخ لا يشكو تكد
إي سروري مات أو راح إلـى حيث لا أدري ولما لم يعـد
قلت قومي يا (سلام) ها يدي وهبيني يا عروسي منكِ يد
وتزوجنا وهذا ولـــــــــدٌ وسرورٌ اسمهُ هذا الولـــــد

«لا تدع السويداء تعلق بشغاف قلبك»[1] حاربها بقوة. وإذا عالجت إخراجها فبالكف عن التفكر والهجس. ولا خير في محاولة الهرب من المصاعب، فإنها تتأثرنا وتدركنا. فلنقف لها وقفة الباسل الجسور نُلفِها اضمحلت من تلقاء ذاتها.

(١)سيدني سميث.

الفصل السادس

الدهر

صروف الحياة وتقلباتها- المصائب لا بد منها- أنواع المصائب: إنذارية. تجارب. وهمية أو طفيفة. مصائب يخلقها المرء لنفسه. عقابات. بركات في غير زيها. الأمل- الشجاعة الأدبية.

عجيبة هي الحياة في تركيبها، ومتقلبة متغيرة في وجوهها، وأبدًا قابلة لتأثير الطوارئ الخارجية، بحيث لا يتسنى لنا أن نسلم من صروفها وننجو من مصائبها. وكقول الشاعر الأمريكي:

وهل من قطيع عاهدته ذئابها وعائلة ما حلَّ فيها مصابهـــا

هنالك حِملانٌ مضرَّجةٌ دمًـا وهذي بيوتٌ ليس يفتح بابهـا

والمصائب نوعان: حقيقية وظاهرية. والأخيرة منها يمكن تنويعها كما يأتي: (١) إنذارية. (٢) تجارب. (٣) وهمية أو طفيفة. (٤) مصائب يجرها المرء على نفسه. (٥) عقابات. (٦) بركات في غير زيّها.

الإنذارية

الألم غالبًا ما يكون إما عقابًا وإما إنذارًا وأخطارًا، ولولاه لكنا نموت صغارًا، ولكان يتمزق لحمنا أو يحترق أو يُتلف بسبب من الأسباب... فهو الذي يدعونا إلى الحذر، ويجبرنا على معالجة أسبابه وإزالتها. وكذلك في ضروب التجارة كثيرًا ما يستفيد التاجر من الخسائر الزهيدة حكمةً وتدبيرًا ينفعانه في مستقبل تجارته.

التجارب والفرص

بعض المصائب ليس إلا تجربة نُبلى بها أو فرصة تسنح لنا. والمصائب التي يحسبها الجاهل بلايا عليه، قد يغتنمها العاقل فرصًا ثمينةً لهُ.

مصائب دهـــــرك تحلو وتنفع وهنَّ ببحر الزمـان كضفـــــدع

قبيح مســـــمٍّ على رأســـــه كمثــل الجواهر ما راح يسطـع

ونحن إذا ما عقلنا رأينـــــا الـ ـحقائق توجد في كل موضـــع

ففي الغصن نطق وفي النهر كُتبٌ وفي الصخر وعظ لمن يتسمَّع[1]

أما الغنى والقوة فتجربتان مهلكتان. وبعض ملوك الرومان لو لم يُبلوا بأموال لا تُحصى وقوة لا تُحد، لربما كانوا من أنفع الأبناء لوطنهم، وعاشوا غير تلك العيشة المكروهة وماتوا غير ميتاتهم الشنيعة. «والمصائب توّلد الرجال، والحظ يخلق الوحوش»[2].

ومن جملة المصائب أنها تجيءُ «امتحانًا للصداقة». والمثل الفرنساوي يقول: «يكثّر السعد أصدقاءَنا فيأتي النحس ويمتحنهم لنا». والشدة تجمع الأصدقاء الحقيقيين وتحكهم حكًّا، فينجلي لنا جوهر كلٍّ منهم ونميز خالصهم من مشوبهم وغثهم من سمينهم، بل إذا ألمَّت الشدة بشعب جمعت شتاته وألّفت بين متفرقاته.

كلما اشتد الظلام ازداد لمعان الشمس. والغيوم تنير الجلد وضباب المدائن ودخانها تظلم النهار وتسوّد الدنيا في أعين مَن يجهلون كيف يُجتلى السناء من السماء، وتزيد غروب الشمس بهجةً وبهاءً لمن لهم أعين ويبصرون.

لما ابتغى إبليس إهلاك أيوب، بادر إلى حرمانه أولاده وأمواله. كان

---

(١) شكسبير.

(٢) مثل فرنسي.

لأيوب بنون وبنات وسبعة آلاف رأس غنم وثلاثة آلاف جمل وألف ثور من البقر وخمسمائة حمارة، وكان عنده حاشية وأهل منزل. فسلبه جميع ما ملكت يمينه. ولكنه تصبر وتجلد وثبت لدى التجربة، «فقام أيوب ومزق جبته وجزَّ شعر رأسه وخرَّ على الأرض وسجد وقال: «عريانًا خرجت من بطن أمي، وعريانًا أعود إلى هناك. الرب أعطى، والرب أخذ. فليكن اسم الرب مباركًا. في كل هذا لم يخطئ أيوب ولم ينسب لله جهالةً». ثم إنه رُدَّ إليه ماله وغناه وعاد إلى ما كان عليه ويظهر أنه قاوم هذه التجربة أيضًا، وإن يكن ذلك غير مذكور في الكتاب. وتجربة الغنى يغلب أن تكون أشد خطرًا من تجربة الفقر.

وليس عالمنا عالمًا يجدر بأهله أن ييأسوا ويبادروا إلى جعل الخيبة نصب أعينهم. والأستاذ هكسلي مثلًا يُعدّ بين خطبائنا الكبار ومن أشهرهم، إلا أنه في بدء أمره كان مُبتلى بكل عيوب الخطيب؛ فبعد أول خطبة ألقاها دُفع إليه كتاب من دون إمضاء يُنصح فيه ألَّا يعود إلى الخطابة ثانية؛ فإنه لا يصلح لها رغمًا عن صلاحيته لغير هذه المواقف. وبعد ذلك اتفق أنه خطب في موضوع «علاقة الحيوان والنبات» فملّهُ سامعوه لدرجة أن ودُّوا ألَّا يُدعى للتكلم فيهم مرة أخرى. وهو من فمه قال لي إنه استمرّ لمدة طويلة يرتجف حالما يأخذ بالإلقاء، وأن الارتجاف كان يفارقه شيئًا فشيئًا مع توغّله في الموضوع. ودزرائيلي نفسه لم تكن خطبته الأولى في مجلس الأمة إلا محض خيبة وفشل.

الوهمية أو الطفيفة

بعض المصائب وهمية أو طفيفية لا أهمية لها. على أن أنكى المصائب هي التي نُبلى بهمها ولا تقع بنا مطلقًا. وكم من مرة نشقي أنفسنا ونتعسها من أجل أمور عديمة الأهمية.

ولماذا ترى اضطراب البـــال ودموع تســـحُّ مثـل اللآلـــي
حرت في الأمر حيرة جئت منها أسأل الخلق أن يجيبـــوا سؤالـي
لِم بكانا وما فقدنـــــا حبيبًا أو خسرنا دنيـــا وطال مـــــالِ
أفهذا من كثرة الإيغـــــالِ في التقصّي والهذر في الأقوال؟[1]

«وهو من الغباوة أن يربو الحزن على السبب ويزيد عليه. وكأني بالناس يلحقون ما يخافون ويشقون خوفًا من أن يشقوا»[2].

أأن يُحرم المرءُ السعادة يُتعسِ لعمرك بل إن حقها منهُ تبخـــس
سعادته تأتيه تُدعى «قناعـــة» لتأنس منهُ بابتسامـــة مؤنـــس
فينكرها حتى تعود لأهلهـــا وتتركه كأس الشقاوة يحتســـي
فكم طمع في صدره قام حاجبًا وإن أقبلت في وجهها الحلو يعبس
فيُبلى من الأرياح في كل زعزعٍ وما بعد يُلفى ساعة غير متعـــس

(١) مسز برونن.
(٢) ليوناردو دي فينسي.

الخوف من الخطر قد يولّده. وكم من رجل «جرب أن يهرب من الموت فوقع فيه»[1].

نصف الذي في القلب من حرَقاتِ

مَن غيرنا أذكى له الجمــراتِ[2]

وكثيرًا ما نجمع الشقاء بطرح السعادة. والأمر مألوف قليل الكلفة كثير السهولة.

لما ذهب نعمان إلى أليشع ليشفيه من برصه، وقيل له أن يذهب ويغتسل في الأردن سبع مرات «غضب (نعمان) ومضى وقال: «هوذا قلت إنه يخرج إليَّ ويقف ويدعو باسم الرب الإله ويردد يده فوق الموضع فيشفى الأبرص. أليس إبانة وفرفر أحسن من جميع مياه إسرائيل؟ أما كنت أغتسل بهما فأطهر. ورجع ومضى بغيظٍ».

المصائب التي يخلقها المرء لنفسه

كثير من مصائبنا ما نحن نخلقه لأنفسنا. «وربَّ مكروه يلقينا في شرٍّ منهُ»[3].

وروسّو كان يزعم هذا الزعم أيضًا. «وربما طلبنا بركة وهمية

(١) بتلر.
(٢) بروكتر.
(٣) بوالو.

فحمّلنا النفس ألف لعنة حقيقية»[1]. وأحزان الحياة وهمومها قد نُبلى بها ولكن نادرًا. أما عذابنا الدائم فهو نتيجة القلق والوسواس وقلة الصبر وكثرة الهوس.

ولنذكر أننا لا نوجد في هذا العالم لكي نتمتع ونلتذ فقط. وتوماس أكمبس ينبهنا إلى الواجب الكبير بقوله:

ما وُجدنا فيها لعرشٍ مؤبّدْ بل لكي نخدم السوى نحن نوجد

وكثيرًا ما نأبى احتمال صغيرات المصائب، فتعظم علينا بسبب ذلك الإباء. «أوَلَم يكتب ديكاركوس قديمًا مقالةً جمع فيها الأسباب المختلفة التي أفنت القبائل من أمثال الطوفانات والأوبئة والغزوات وهجمات بعض الحشرات المسمَّة القتالة. إلا أنه عاد فأحصى ووجد أن الناس بحروبهم ومظالمهم أذرع فتكًا بالناس من سائر الشدائد؟»[2].

والطريقة الأخرى التي تزيد فيها الحياة مشاغب ومتاعب هي تحرّشنا وتداخلنا في ما ليس من شأننا ولا يعنينا. وأحدهم كان يقول إن السواد الأعظم من الذين لم تربح تجارتهم هم جمهور الذين يتخلون عن شؤونهم الخصوصية ولا يستطيعون أن يلزموا جانب السكون إلى واجباتهم الأصلية.

وقد قال توماس أكمبس: «إذا استطعت أن تترك الناس وشأنهم، تركوك وشأنك وكنت حرًّا».

---

(١) كتاب الاقتداء بالمسيح.

(٢) شيشرون.

العقابات

المصائب الناتجة عن أغلاطنا أو الآتية عقابًا على خطايانا يمكن إدخالها في باب المصائب التي نولدها في أحضاننا ولا يحق لنا لذلك التذمُّر منها. ليس الفقر ولا المرض ولا العذاب ما يُعدم الحياة سعادتها، بل الكبرياء والطمع وحب الذات والخطيئة ما يفعل ذلك.

البركات في غير زيّها

وأخيرًا جملة من المصائب الموهومة ليست إلا بركات في غير زيّها. والحزن مثلًا إذا احتملناه بشدة وثبات رفع همتنا وزادنا فخرًا؛ فهو كبرد الشتاء وثَلجِهِ اللذين يشدَّان العزم ويقوّيان البنية.

«رخاء العيش بركة «العهد القديم» والشدائد بركة «العهد الجديد»[1]، «ولا يندحر من وجه الشدة إلاَّ مَن سبق فخانه رخاؤه[2]. وقد يجّلد سطح نهر الحياة أحيانًا، إلَّا أن مجراه يستمر في سبيله تدفقًا وترقرقًا. الرخاءُ أهلك من الناس أكثر مما أهلكت الشدة، والله سبحانه وتعالى.

يُمسك المطلوب عنا رحمةً حيث قد يودي بنا مطلوبنـا[3]

(١) بايكون.
(٢) سينكا.
(٣) مور.

فإذا كنا لا نصلّي مكررين هذه الكلمات: أعطنا اللهمَّ ما يؤول إلى خيرنا- فلتكن روحها فينا كلما طلبنا شيئًا.

قال لوتسي الفيلسوف الصيني القديم: «الريح العاصفة لا تدوم كل الصباح، وشؤبوب المطر لا يستمر طول النهار، ومَن يحرّك الرياح ويُسقط الأمطار؟ أغير السماء والأرض؟ وإذا كانت السماء والأرض تعجزان عن إطالة مدة هبوب الريح وهطل الأمطار أكثر مما هي، فما عسى الإنسان أن يستطيع من ذلك؟» فاليأس لا يحسن بنا في حال من الأحوال.

وليصبرْ مهما يصرْ من مسيءٍ ومسـرّ
أي حال لم يحـل أي وقت لم يسرْ[1]

وإذا كان وجه الأمر عبوسًا لا نور فيه ولا رجاء، فللمرء أن يعزّي نفسهُ بتأمل قوله:

«رماني الدهر بالأرزاء حتى فـؤادي في غشاءٍ من نبـالِ
فصرت إذا أصابتني سهامٌ تكسّرت النصال على النصال»[2]

قال جرمي تايلر: «الرجاء والصيام هما جناحا الصلاة اللذان يطيران بها إلى عرشه السماوي. أما الصيام فجناح طائر. وأما الرجاء فجناح ملاك. والصلاة محال من دون الرجاء وبه تصير معقولة ملؤها حرارة وتقوى لأن الأمر منوط بوعد الله وعنايته. وصلاتنا تكون حارّة وصادقة بالنسبة للرجال والأمل اللذين يصحبانها».

---

(١) شكسبير.

(٢) بتلر، والبيتان للمتنبي.

لا ريب أن الثقة الزائدة والتطوّح بالآمال ليسا من الحكمة على شيء.

قلّل الآمال في الدنيا تفز فدليل العقل تقليل الأمل[1]

وفي التجارة خصوصًا كم تجسم المضارب بقدر ما تشوط به آماله. وهكذا الميزان لا بد له من كفتين راجحة وناقصة. وكم مَن يفضل الفقر مع أمل الاغتناء يومًا ما على الغنى مع خوف الافتقار في الغد. على أنهُ إذا كانت شدة الأمل تؤدي إلى الخسارة غالبًا، فالخشية والخوف قد ينتهيان بها أيضًا؛ فللجسارة والإقدام مَوْقف وللخشية والحذر آخر. والحكمة كل الحكمة في معرفة أي الموقفين موقفنا. ومتى كنا على غير اليقين من أمرنا، كان الإحجام أفضل لنا من الإقدام؛ لأنه إذا أقدمنا وفعلنا شيئًا، ربما استحال علينا بعد ذلك أن نعيده إلى حيّز التردد بعد ما دخل في حيز الحدوث.

«كثيرًا ما نحسب الحظ أعمى، والحقيقة إنما نحن العميان، ولأن أبصارنا مغشّاة فلا تجتلي أنوار نجمه لذلك نظنه أعمى، ونلقي ستارًا على العناية العلوية أيضًا»[2]، وعلى كل حال إذا قلنا إن الحظ أعمى، فهل نفينا وجوده؟ إلَّا أنه «يجب أن نحكم الحظ ونتدبره كما نحكم الصحة ونتدبر أمورها. فإننا نتمتع بوجودها ونصبر على فقدها وندخر منها في إبَّانها ما يقينا شر السقام مدة هجرانها»[3].

(١) ابن الوردي.
(٢) ريليجيو مدبسي.
(٣) روشفوكولد.

على أن الحظ الحسن أصعب مراسًا من السيئ؛ لأن نكد الطالع إذا حل بنكباته فواحدة هي الفضيلة اللازمة - ألا وهي الصبر. على أن السعد إذا أتى برخائه فقد يودي بمن يأتيه، اللهمَّ إن لم يكن عنده من أمثال التعقل والحذر والاعتدال وعدم حب الذات والإحسان فضائل عديدة.

والتقاء النكبات والبلايا يجب أن يكون بروح كالروح التي أظهرها ملتون بعد ما فقد بصره ومال إلى اليأس، إذ قال:

لئن بت أعمى فلا أبصـــرُ فلست برب السما أكفـــر
ولست لأفقد كل الرجـــاء ولا القلب يفقد ما يقطـــر
أنا كالسفينة من ذا الزمان الـ ـخضم ولست أني أمخـــر

«لأن الذي يحبه الرب يؤدبه. وكأب بابن يسرّ به».

وحتى ولو لم يكن الأمر كذلك، فمن الواجب علينا أن نعرف للشدائد قدرًا، فإن احتمال العذاب نصرٌ وكل نصر عزٌّ وفخر.

إذا ما حسبت القتاد الخطر وقلت الســـلامة زهـــر عطـــرْ
وطلت الأزاهر رغم القتـــاد سليمًا فانعم بنيل الوطـــرْ

وإذا ذكرنا أيوب وصبره قلنا مع القائل:

إياك واليأس لا تذهب مذاهبـــه أما الرجاء فعش ما عشت طالبه
والليل مهما دجى واشتد حالكـــه فالبث فآخـــره صبح تعاقبـه[1]

(١) كوپر.

وربما احتوت البلايا نفعًا عامًّا تظهرهُ الأيام، وإن كان لا يشعر به المرء في حينه؛ فالطوفان يزيد الأرض خصبًا، وفيضان البراكين كم أغنى الأرض تربة، وحريقة لندرا لم تكن عليها وبالًا محضًا. واعتبر ذلك أيضًا بخراب بومباي. وكمدينة أنها حفظت تمامًا. وغوتة[1] قال فيها: «نكبات الزمان كثيرة، ولكن ليس بينهن واحدة عادت على الخلق بما عادت به هذه النكبة. ولا أخالني أعرف لذة تفوق لذة تأمل هذه الخرابات والبقايا»، وهو القائل في موضع آخر: «قد تنزل بالمرء شدائد عمومية أو شخصية فتسحقه ولا سحق النورج للسنابل، أما طربيل[2] الأقدار، فإذا سقط على حزم السنابل الملأى سحق قشها سحقًا، وما مسَّ حبوبها بضرر، فانتثرت هذه تطفر فوق الأرض كأنها ترقص جذلًا. فلا تبالي أإلى التلم مصيرها فتجدد حياتها، أم إلى الطاحونة فتقوم بحياة زارعيها.

إن الشدائد كالنار تطهّر الإنسان وتمحص معدنه وتفرّق بين تبره وترابه.

«فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس، فإن هذه كلها تطلبها الأمم؛ لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولًا ملكوت الله وبرّه، وهذه كلها تزاد لكم. فلا تهتموا للغد؛ لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفي اليوم شرُّهُ»[3].

(١) شاعر الألمان.

(٢) الطربيل: آلة تدق بها السنابل.

(٣) متى.

الفصل السابع

المعروف

التسامح مع الصغار والمرضى والموتى- لماذا لا نتسامح مع الجميع ؟- نقائصنا تضر بنا أكثر من نقائص الغير- الإحسان: الجود بالدراهم والجود بالنصائح- العناية وتعاليمها- الصلاة- غريغوريوس وتراجان- الصفح والغفران- تعزيز الشكوى- البيت.

إننا لا نستاءُ من الأطفال، بل نتسامح معهم ومع المرضى إذا أساؤوا إلينا، ونسلم بصحة المثل اللاتيني القائل: «واذكروا الموتى بالخير»، فلماذا لا نوسّع دائرة هذا المبدأ ليشمل المومئ إليهم وسواهم أيضًا؟ فإننا نرى الفعال وتخفانا التجارب التي قاومها المسيئون قبل وقوع الإساءَة. وقد قالت مدام دي ستايل ما يقابله: «لا تَلم الغائب إلَّا بعد حضوره. ومتى عرف السبب بطل العجب».

وسينكا يقول: «يجب علينا أن ننتحل أعذارًا للجميع- فللأولاد لأنهم صغار، وللنساء لأنهنَّ ضعيفات، وللحكام لأن مهامهم عظيمة فلا بد لهم من الخطاء، وللصالحين لأنهم لا يقصدون الإساءة، وللأشرار لأنهم يستحقون الشفقة إذ الشقاء مستقبله».

سُئِل ثايلس عن أصعب الأشياء وأسهلها فعلًا، فأجاب: إن أصعبها معرفة الإنسان نفسه، وأسهلها انتقاد الآخرين.

الأجدر بكل إنسان أن يهتم بواجباته، بقطع النظر عما يجب على سواه، وأن يكون متساهلًا وحليمًا مع الجميع إلَّا نفسه. واعلم أن التنويه بحسنات الأعداء خير من التنديد بسيئات الأصدقاء.

إذا كنت تعجز عن أن تصيرَ كما قد أردتَّ بعــزمٍ وطيـــد
فكيف تؤمل أنَّ ســـــواك يجيئك طبقًا لما قــد تريـــــد

فجار تُجارَ وساعدْ تُساعدْ صواب وحق ورأي سديد[1]

ولكم نتشكى ونتذكر من نقائص الناس. أما النقائص التي فينا فتجر العذاب علينا ولا نفتأ نحرص عيها، بل قد نحتمل التوبيخ والاحتقار ونتكبد العقاب من أجلها، ونغرر بالنفس، وتحمّل الخسائر من جرَّائها، كل ذلك ولا نمسها بتكميل.

فمن أجل راحة الفكر وسلامه، إن لم يكن لقصد أسمى، الأولى بنا ألَّا نسيء ظنًّا وأن ننظر إلى معائب الغير وهفواتهم نظر الحلم والإحسان، ونطوي كشحًا على أقوالهم وأفعالهم حاسبين لأحوالهم الشخصية حسابًا تصغر معه سيئاتهم وتكبر حسناتهم. وإذ نحن غير كاملين فكيف يسوغ لنا أن نتطلب الكمال من سوانا؟ والغضب لنقائص الغير ومستغرباتهم كالغضب على العواصف والزوابع. وما عسانا أن نستطيع إذا غضبنا على الجو وتقلباته؟ بل إذا غضبنا على الناس، فقد نترك أحوالهم أسوأ وأردأ. واذكر أن إيذاء الغير آلم وأضر من احتمال الأذى. وكم نحاول ردّ أذية ودفع إهانة (وربما كانتا وهميتين فقط) فنبدأ خصامًا كنا في غنى عنه. وربما كان من حولنا مَن مهد لنا سبيل اعتماد الأذية، على أنه في الغالب نحن موضع التخطئة والملامة. وإلَّا فتجربة وجبت مقاومة ومعركة أدبية نحسن البلاء فيها على أمل العودة بالنصر فخرًا وكسب الصديق غنيمة.

ومن لا يشعر مع غيره، كان غير مستحق لشعور غيره معه. وإذا كان قلبك باردًا نحو الآخرين، فربما كانت قلوبهم أيضًا باردة من نحوك. وإن

(١) توماس أكمبس.

لم تكن، فعلى كل حال ليست محبتهم لتنير حياتك وأنت غير مستحق لذلك. وليست لتضرم حرارة فؤادك، بل لربما جمعت جمرًا ونارًا على رأسك. ومن أقام حول نفسه سياجًا، فقد منع عنها أكثر مما منع عن سواها. وإذا كنا لا نحب الآخرين، فلا سبيل لمحبتهم إلينا. وإذا كنا لا نستطيع المحبة، فأنى لنا أن نعرف لها قيمة وقدرًا؟ وإن كنا لا نستحقها، فلن نتمتع ببركاتها، بل تبقى قلوبنا باردة كالجليد وكالجليد تذوب إلَّا أنها لا تعرف الحرارة. وإذا كان في «أنا» «نون» واحدة، فإن في نحن «نونين». ومن ثم إذا حسبنا النون من النور كانت «نحن» أكثر نورًا. والاهتمام بـ «أنا» حب ذات وذل حياة، أما الاهتمام بـ «نحن» فغيرية وعيش أوسع وأشرف.

وليس هذا واجبًا من الواجبات فقط، بل إنه من أصدق مسرات الحياة وأطهرها. ولكن قبلما يمكننا أن نساعد الناس، يجب أن نعرف الناس وأن نحب الناس. ودافع عمل الخير ربما أحدث ضررًا إذا جرى في غير سبيل الحكمة. وقد يستحيل أن تأتي شيئًا من النفع بمجرَّد حسن النية، أي من دون الحكمة المبنية على المعرفة والاختبار.

أما الفقراء المتسوّلون المتكلون على حسنات الغير وصدقاتهم، فالأولى أن يمنحوا استقلالًا لا مالًا يزين لهم الاعتماد على الغير في معيشتهم. ولا شك أن سد حاجة المُعوِز حسنة من الحسنات، أما تحسين خُلُقه فحسنة هي كل الحسنات. والصدقات الواقعة في غير محلها قد تُعَدَّ ظلمًا وقساوة. وإن الطبيعة لقسطاس العدل وإذا أدَّبت المرء بالفقر، فلكي تعلّمهُ كيف يجب النظر في الأمور. والإحسان أعمى أكثر منهُ أصمّ. ولله درّ المحسن القائل:

جدت للسائل يومًا بقليل الذهـــــبِ

من يسير المال مما حزتـــهُ في تعبي

فمضى ثم أتانـــي ودنا من رُكبـــي

عاريًا يرجف بردًا مائتًا من سغـــبِ

***

جدت للسائـــل يومًـــا بكـلامٍ ذهبـــي

فاغتدا منهُ كبير النَّفـــ ـــس حرًّا وأبـــي

لم يعد لي بعـــد حين صاديًا لم يشـربِ

جائعًا ما ذاق شـــيئًا شاكيًا من وَصَـبِ

***

فليكُ الإحسان نصحًا لفقيـر بل غبـــي

فالإحسان إذَنْ من المسائل العظمى، ومجرَّد الجود والإعطاء، سهل جدًّا، أما التكرم على السائل بذات الجيب دون سلبه «ذات النفس»، أي اعتبارها والاعتماد عليها فأصعب من صعب. فكما قال بايكون: «لتكن غايتنا مع المعوز لا سدَّ حاجته فقط، بل مساعدته على الاستقلال فيسدّ حاجاته بنفسه». وإذا كنا نزيد حالة العجزَة الملتجئين إلى مآوي الشفقة عسرًا وضنكًا، فكأننا نزيد طينتهم بلة وسبيلهم معاثرَ. إلَّا أنه لا حدّ للإحسان، أو كما يقول لون فلو: «العقل محدود، أما العواطف فلا. وما أشبهها ببئر حية يستقى منها ولا تنشف».

فضلًا عن ذلك إن لكل منا مقدارًا معينًا من المال لينفق منه، وما تصدَّقتَ به على غير مستحق فقد خرج من يدك، فكيف تجود به لسواه إذا عرفته مستحقًّا؟ وكذلك إذا فتحت باب العمل للطالح فقد أوصدتهُ في وجه الصالح. وإذا جدت بنقودك للسكّير فكأنك تزيد شر السُّكْر انتشارًا. ومن هذا القبيل يا للفرق الكائن بين الدراهم وعواطف الحنو ومشاطرة الغير إحساسهم! فإن هذه لا تقف عند حد مطلقًا- وكأنها لعنة الأرملة.

وليس من الحكمة ولا من العدل أن يحمل المحسن القيام على ماله حمل المسرف المبذّر؛ لأن ذلك يفقر الأول ولا يجدي الثاني نفعًا. وقد صدق سبينوزا بقوله: «إذا كنا نحب التقدم والخطو إلى الأمام، فلنتجاهل العلاقة التي أوجدتها العناية بين السلوك ونتائجه».

وصحيح أنهُ لا يجوز «الامتناع عن الإحسان خوفًا من الجحود والنكران؛ لأن الله جعل الثواب من خصائصه وحدهُ»، ولكن الخوف الحقيقي ليس من الجحود وعدم الإقرار بالمعروف، بل من الأذى الذي قد يلحق بمن نحسن إليه.

لا ننسى ضعف الطبيعة البشرية وسهولة التمادي في الكسل والخمول، ولا أيسر من جعل المعدمين أشدّ حاجة إلى المساعدة. أما مساعدتهم لكي يساعدوا ذواتهم فليست من الهنات الهينات. ولكن إذا كانت الصدقات عرضة للشك في كونها رفقًا ورحمة، فالإحسان بمعناه الحقيقي لا يستهدف لمثل هذه الشكوك. وقد يكون بذل الدراهم ضررًا وخطيئة، أما مدّ يد المساعدة وتكريس الوقت للخدمة وتمحيض

النصح والحلم والحنو فليست كذلك. وإذا كنا نخطئ أحيانًا ببذلنا ما يطلب منا، فلا خطأ في تركنا ما يطلب لنا أو نسيانه بالكلية.

من جملة أقوال الملك «ألفريد العظيم»: «عزّوا المساكين حتى إذا فعلتم أحبكم الله وكان لكم أكبر جزاء». ومن جهة أخرى نرى أن حب الذات هو نبع الشقاء الأكبر، ولولاه لكانت همومنا أقل من القليل. فإذا كنا نهتم بالغير وبمصائبهم، فغالبًا ما يؤول ذلك إلى سلواننا مصائبنا ونسيانها ونعم النسيان.

إذا كانت العواطف لا تتجلى للعيان بالأعمال التي تدل عليها، فقد يستفيد منها صاحبها، أما الحبيب فلا؛ فهي بالنظر إليه كأنها غير موجودة أصلًا. أما إذا أظهرت وتجلّت فما أجملها وما أكبر قيمتها! فما أعظم ديننا لأمهاتنا بالنسبة لاعتنائهنَّ بنا وتأثيرهنَّ علينا وحبهنَّ لنا -وإني أقول هذا وكلي محبة وعرفان- وقيل سُئل مرة سير بنجمن وست رئيس المجمع العلمي الأميري عما صيره مصوِّرًا عظيمًا، فأجاب: «قبلة من أمي».

وقد قيل إن الرسَّام روبنس حوَّل صورة «ضحك الولد» إلى صورة «بكاء الولد» بحركة واحدة من ريشته. إنما لا يتحتم أن يكون المرءُ رسَّامًا أو مصوّرًا ماهرًا لكيما يستطيع مثل هذا التحويل، فاللسان قد يفعل فعل ريشة الرسام وأكثر. والناس لم يخلقوا من الحجر الصلد، ولكنهم كم يتصرفون حتى كأن قلوبهم قُدّت من الصوان. ويا لها من محمدة إذا كنا:

نداوي سقم نفس جل أمـــــرهُ وننسى ذاكرًا ما ساء ذكـره

ونمحي للشقا في العقل سطرًا إذا في صفحتيه خُط سطره

وقلبًا دسّ فيه الهـــــمّ سمًّا نذيق حلاوة فيقل مـــرُّه[1]

وكلنا نستطيع أن نساعد الغير ولو بالصلاة، ولا يستخفنَّ بتأثيرها؛ فقد رُوِي أن صلوات البابا غريغوروس العظيم نجّت الإمبراطور تراجان من عذاب الجحيم، إلَّا أن ذلك البابا حُظرَ عليه أن يعود إلى مثل ذلك ثانية... وعلى كل حال ينبغي للقوي أن يذود عن الضعيف. وكقول الشاعر:

تبسَّم للضعيفة واعتبرهـــا وكن عن عيبهـــا أبـــدًا عميًّا[2]

تكلم جُوبرت عن رقة الطبع، فقال: «هي التساهل»، ولأن تحِبّ خير من أن تُحَبّ. واللطف أفعل من القسوة ولا سيما مع الأطفال.

لا تنتظر من الناس فوق طاقتهم، واذكر أننا كثيرًا ما نخيّب أنفسنا، فلا عجب إن خابت آمالنا في الآخرين.

قال سقراط مخاطبًا جورجياس وكلّيكلس: «فحصنا تعاليمكما فكانت ناقصة. ولم يجتز الامتحان ويسلم من المتهان إلا واحد منها فقط وهو -الأولى أن نكون أشد حذرًا من الإساءة إلى الناس منا من إساءتهم إلينا. وإن أهم أعمال الحياة ليس التظاهر بالصلاح، بل الصلاح الحقيقي في السر والعلانية».

إذا كان لنا أعداء، فنحن مَن أوجدهم. ويا لشر سوء الظن! وكما

---

(١) شكسبير.

(٢) بريور.

قالت مدام دي سڤيني: «من تجنَّبته كعدوٍّ وسئت فيه ظنًّا لا غرو إن صار لك عدوًّا حقيقيًّا بعد ذلك؛ فإن في معاملتك هذه سببًا كافيًا».

من أشرف الامتيازات الإنسانية التي نسبها المسيح لنفسه، مقدرته على الصفح والعفو في هذه الدنيا، أو ليست هذه المقدرة فينا جميعًا؟ إلا أنه تعوزنا الإرادة لا غير! ومَن كان فظًّا أو ظالمًا في معاملتك فقد يؤذيك من جهة ويمنحك امتياز العفو والصفح من جهة أخرى. «وقد جعل الله في المحبة والبلية شيئًا من قوته الكاملة»[1].

والثأر طبيعة بشرية، أما العفو فصفة إلهية، وإننا لنصلي كل يوم طالبين أن تُغفر ذنوبنا «كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا».

وننسى أننا لا نغفر لغيرنا فلا يغفرون لنا. ورب جواب لطيف «يردّ غضبًا» ورب جواب حدة وسخرية يضرم الغيظ ويزيد السخط.

قال كوسمو ديوك إف فلورنس: إننا أُمرنا بمسامحة أعدائنا، ولم نُؤمر بالعفو عن أصدقائنا. على أن العفو واجب في الحالين. وإذا أخذت بثأرك من عدوك، فربما بتَّ وأنتما ندّان أو كفتا ميزانٍ. ولكن إذا ترفعت عن مقابلته بالمثل حلمًا وعفوًا، فقد ارتفعت عنه مقامًا، ولربما حولته إلى صديق تمامًا. ناهيك عما في التفكير وإعداد العدة للانتقام من اشتغل النفس بالضيم، وحك حزازات الصدر، ونكء جروح القلب، بحيث يتعسر بعدئذ شفاؤها- وإن في ذلك لعذابًا أليمًا. ومَن يحاول مسّ غيره بأذى فقد يتعذر عليه ذلك، ولكنه لا يسلم من جرح نفسه.

---

(١) مسز كرافن.

وفضلًا عن ذلك «إن العفو عن العدو خير انتقام، وأخلق به أن يُعدّ نصرًا كسرويًّا وغلبة مُبينة من دون سيف ولا حسام، بل إنه تذليل للعدو وإحناء لرأسه تحت الأقدام حزينًا خجلًا ندمانًا، بل ربما آل الانتقام بالعفو إلى تحويل العدو إلى صديق ونعم المآل. فالفرُّ من وجه الأعداء كر عليهم بهذا المعنى، ومقابلة الشر بالخير هي السياسة السماوية لحفظ السلام على الأرض. والعنف والقوة قد لا يُنهيان الشر، أو إذا أنهياه فقد ابتدأت البغضاء والشحناء على الأثر. والخصم الذي يصالح رغم أنه فقليل ما يكون موضعًا للثقة؛ لأنه لا بد من المحبة والإخلاص قبل تبادل الثقة، وقد يكون سلامه وقتيًّا واضطراريًّا لا غير؛ فإذا كنت لا ترحم غيرك، فبالأقل لا تظلم نفسك. وأي ظلم أشد على النفس من أن تبيت لا تهجس إلا في اتخاذ الحذر وإعداد العدة وتعمُّد الأذى حتى كأنك افترشت القتاد، ونمت مع العقارب، فلا تذوق للنوم طعمًا؟».

ولماذا تُرانا نبحث عن مساوئ الغير ونُمعن النظر فيها ونكبرها عما هي؟ وإن لكلٍّ حسناته، فما بالنا نغض الطرف عنها؟ «فتشوا، تجدوا». وإذا طلبت الحسن، وجدته في كل مكان وزمان. ورب ضعفات في الصديق تحببنا به، أو بالأقل تزينه لنا بوشاح التواضع والوداعة.

ولقد نستغرب أن نرى إنسانًا خاليًا من الرأفة والحلم. على أننا لا ننظر إلى دواخلنا فنعرف أننا نظيره وأنه هو أيضًا ينتظر منا نفس ما ننتظر منه.

وقد أخطأ بستلوزي بقوله: «ليس تحت السماء مَن يريد أن يقدر أن يساعد غيره». وإني كأحد الناس أشعر أني لا أستطيع إيفاء جميل

الأقرباء والأصدقاء حقه من العرفان. وزد على ذلك أنه بقدر ما نعمل كذلك تزيد مقدرتنا على العمل. فكأن الصالحات أمهات يلدن.

وربما صح قول شكسبير:

الشر يحيا بعدَنا والخير يدخل لحدنا

على أن الأغلب هو أن يعيش كلا الشر والخير بعد موت صاحبهما.

لا غرو أن الذهب والفضة ينيلاننا ضروريات الحياة من مأكل ومشرب وملبس ومنزل، ولكن أن لهما أن ينيلانا البشر والفرح اللذين تبعثهما فينا نظرة اللطف؟ وأنى للفقر أن يجرح القلب ويسمه كما تفعل كلمة فظة قاسية نخاطب بها؟ وإليك قول شاعرنا سكوت بهذا المعنى.

وكم من سهام على غير قصدٍ تصيب وتصمي خلاف الهدَف
وربَّ كلام بـه فهتَ عفوًا من القلب حلّ محلّ الشغف
فكان كسيرًا وعاد سليمًا أو ازداد كسرًا ويا للأسف

إن في الأمر لسرًّا خفيًّا؛ فالعطايا ولا سيما المالية منها، مع أنها مفيدة غالبًا، فكثيرًا ما تضر أكثر مما تنفع، وخصوصًا إذا أعطيت «تصدقًا»، كما يقال، وليس عن عاطفة محبة حقيقية. والهدايا لا شك أنها تُوثق عرى المودَّة وتمكنها، ولكن ذلك محصور بين الأصدقاء والأقارب. أما المثل الإنجليزي القديم فيقول: أهلًا بما يسرّني ويطيب نفسي».

فمع الجميع وخصوصًا الأطفال:

بلطفٍ تكلم فإن الفؤاد كبئر لفيض العواطف حيّه

وإن رمتَ تعلم قدر الكلام اللـ ـطيـــف وتسأل فالأبديــة[1]

وبنتُ الشفة إذا خرجت من تحت سقف الحلق، فقد مضت في سبيلها، وربما عدت فوددت لو تعود، ولكن «عزّ ما كنت تريد».

وكــم عبثًا نستعيد الكلاما وليس يعود فليس حَماما
حمامة نوح إلى الفلك عادت وأمــا الـغـراب فعلَّى وحاما

«عبَّر أحد الحكماء عن الفرق بين السماء والجحيم بقوله إن في السماء كلًّا يريد أن يهبَ جميع ما عنده لسواه، بينما في جهنم كلٌّ يريد أن يسلب الآخر ما عنده».

وعاطفة المحبة وروح الإحسان وسلام العقل -ربما كنا أغنياء وأقوياء من دونها، ولكننا لا نكون سعداء، بل إن السماء نفسها إذا خلت من هذه الثلاثة لا تظل سماء وبها كل إنسان ملاك، وكل بيت نعيم وسماء.

سانت فرانسوا دي سال يشبه الأفعال الكبيرة الآتية عن محبة، بالسكر، والصغيرة منها، بالملح؛ وهو معلوم أن السُّكَّر ألذّ وأشهى طعمًا، ولكن قليلًا ما نستعمله. أما الملح فلا يخلو منه طعام. فمن الخطأ أن نقصر المدح والثناء على الأعمال العظيمة، أو أن نحتقر الأعمال الصغيرة. ولنعرف لكل شيء قدره.

كثير من الناس يصرّون على حقدهم، ويحرصون على الاذية التي تنالهم حرص البخيل على درهمه. يجرحون فلا يرضون أن يُذرَّ البلسم

(١) لانكفورد.

على جروحهم، فكأنهم يعشقون دمها ويلتذون بألمها.

وإليك هذه القصة مثلًا لهذه الفئة من الناس: اتفق للورد دربي يومًا أنه وعد أحدهم أن يعينه لمركز في الحكومة، وعاد فعيَّن فيه سواه سهوًا ونسيانًا. وما إن جاءه الموعود حتى قابله بإظهار الأسف لِما وقع منه عفوًا وسهوًا، وقدم له مركزًا أهم وأسمى من الذي كان قد وعده به، إلا أنه آثر أن يكتم استياءه ويصرَّ عليه على إشغال هذا المركز، وخرج من لدنه يغلي حقدًا ويتميز غيظًا.

وما هو البيت؟ وما العيشة العائلية الهنيئة؟ ربما بنيت بمالك وجاهك قصرًا فخيمًا وحصنًا حريزًا. أما المحبة، فهي ما يجعل المنزل بيتًا بل سماء. اعتبر ذلك بفحوى قوله:

ألا لو كنت لي لجعلت بيتي السـ ـعادة طائر يأوي إليه
وكنا حول «نار البيت» نهنا بتذكار الصبا والعيش فيه
وكنا نسمع الأجراس تدو إذا الميلاد حلّ بنعمتيه
وقلبانا يطيران ابتهاجًا ولا شيءٍ يفوت فنشتهيه[1]

وقل بربك لماذا نغلظ في الكلام طورًا، ونملأ الصدر حسدًا تارة، ونخليه من عواطف الرأفة والحلم أخرى؟ ألسنا بذلك نشقي الآخرين ونظلم أنفسنا. والحسد في المرء شر من السم في الحية، بل أشر؛ لأن الأفعى لا يضرها سمها والمرء قد يقتله حسده. وما كان أسعد الدنيا لو كنا نتساهل الواحد مع الآخر ونتلاطف ونتحاب جميعًا.

(١) ألفريد أوستن.

«سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم وصلّوا لأجل الذين يسيؤون إليكم ويطردونكم»[1].

(١) متى: ٥ - ٤٣.

الفصل الثامن

التهذيب[1]

أقوال مأثورة في التهذيب- عهود العلم في تاريخ المدنية- التعليم الإجباري- من هو المهذَّب؟- ماهية التهذيب والغرض منه- ماذا يجب أن نتعلم؟- المعلمون- التهذيب وطرقه- التهذيب والإنسان- المدرسة والعالم- إزالة وهم- رُبَّ علم يكون بالنسيان- كلمة إلى طلبة العلم- كيف ندرس؟- الإنسان والكمال.

(١) أتيت على ترجمة آخر سطر من «فصل التهذيب» في كتاب «السعادة والسلام» وأنا أتراوح بين إثباته وبين تلخيص ما ورد في «معنى الحياة» لنفس المؤلف تحت عنوانَي «التهذيب والأمة» و«تهذيب المرء لنفسه». وبعد التردد الطويل آثرت إثبات التلخيص متوخيًا الحرص على لذة المطالع العربي، ولا سيما وأن الفصل المشار إليه يبحث في التهذيب بحثًا يهم أبناء إنجلترا خصوصًا وقد لا يوافق إخواني أبناء مصر وسورية موافقة مضمون هذين الفصلين. وحسبي حسن النية إذا فاتتني الأمنية.

أساطير الأقدمين، وكتب المتأخرين، وكتابات المعاصرين وأقوالهم، جميعها مجمعة على الإقرار بفضل التهذيب، محرّضة على إعلاء مناره.

وإليك سلسلة أفكار وأقوال جاءت بهذا الصدد: «التهذيب؛ قال أفلاطون: «هو أجمل شيء في أحسن إنسان». «التعليم» يقول فوللر: «أعظم صدقة يجود بها المحسنون إذا أرادوا مد اليد البيضاء إلى المعوزين والفقراء. ومونتين الفرنساوي يصرّح بأن الجهل هو أبو الشرور والجهالة أمها. «والقوة» قال فيلسوف أدبي «من دون معرفة خطر ووبال ومعها مصنع خيرات ومنافع». وشاعرنا شكسبير يقول:

إن الجهـــالة لعنـــة وجهنـــم

لأولي الجهالة بل هُمُ أهل الجحيم

لكنَّ معرفـــة الفتـــى ترقى بـه

أوجدِ العلاء وداره دار النعيـــــم

وسليمان الحكيم يوفّي كلًّا من العلم، والحكمة، والمعرفة حقه من التنويه بفضله، والذكر لحسناته، والدعوة إليه. بل إن أقواله في هذه الثلاثة جارية أمثالًا، فهي أشهر من أن نفسح لها مجالًا.

في العصور الخالية، كانت تقوم الفلاسفة، وتنبغ النوابغ، من آونة إلى أخرى، وتظهر العلم بأجلّ جلال، وأجل رونق. إنما لا يُهمنَّ من

هذا أن التهذيب رقى معارجه العمرانية رقيًّا مستمرًّا من دون عقبات ومشاكل. الحق يُقال إن له ثلاثة عهود متداخلة متلاحقة.

فمن عهدٍ كان فيه العلم من ميزات الرجال، محظورًا التوسع فيه على النساء، حتى جرى المثل الألماني «إن خزانة المرأة هي مكتبتها». وشاع القول الفرنسي «المرأة يجب أن تلزم ما بين الأربعة أناجيل أو ما بين أربعة جدران غرفتها». وبلغ ذلك التقيّد مبلغ أن حسبوا العلم من خصائص الرهبان والكهنة دون سائر طبقات الناس. وسببه أنهم جهلوا قدر العمل وما أدركوا شرف الشغل؛ إذ كانوا ينظرون إلى القارئ الكاتب كمن يحسن به الترفع عن كل عمل يدوي، حتى إن الدكتور جونسون نفسه، مع تضلعه من العلوم ووثوقه من الحقائق، قال: «لو تعلّم كل الناس وتهذَّبوا، فمن يقوم لنا بالأعمال اليدوية؟».

ومن عهد آخر، عُوّل فيه على اقتباس اللازم، واللازم فقط من أصول الخط والقراءة والحساب مما يستعمل في الأعمال البسيطة. فكانوا يعلمون تلك المبادئ آتين بالطالب إلى الحد المعين منها، فيوقفونه عنده، حذر أن يؤهل نفسه للاندماج في أهل طبعة أسمى من الطبقة التي وُلد فيها. تلك كانت أيام الظلمة والظلم، أيام لم تكن عرفت الحرية ولا المساواة بعد.

أما اليوم والعلم في عهده الأخير، فإننا لا نقول إنه يطلب من الحكومة أن تعمم التعليم الإجباري بين جميع رعاياها، لا نقول هذا فقط، بل نزيد ونطلب منها (ولنا أن نطلب وعليها أن تجيب) أن تعمم

«التهذيب» تهذيب الناشئة القائم بتهذيب عواطف الأحداث وأخلاقهم، بحيث يشبون على شريف الخصال، ومستقيم المبادئ، ويصيرون رجالًا عالمين عاملين.

قال أحد ساسة سويسرا: «أغلب أولادنا يُولدون فقراء، ولكننا لا نتركهم ينشؤون ويترعرعون، ويعيشون جهلاء». والحمد لله نحن أيضًا، قد انزاحت تلك الغشاوة عن بصائرنا، وصرنا نرى أهمية تعليم كل ابن أمير، وكل ابن صعلوك، من أبناء الوطن. ولماذا؟ ألأن ذلك من الكماليات، ونحن كدولة راقية قد أحرزنا الضروريات، وهذا من جملة الكماليات التي تنقصنا بعد؟ لا لعمري! إذ ليست تربية أطفال اليوم أي رجال الغد، وتثقيف عقولهم، وتهذيب نفوسهم من الكماليات فقط، بل إنها من ألزم اللزومات. فالعلم هو أساس العمران، به تقوى أركان الأمة. وكل أمة جاهلة ينهدم بنيانها وتسقط أركانها لا محالة. بل لأن سَن الشرائع يستدعي علمًا - علمًا بالتاريخ وبفلسفة الاجتماع وكل العلوم العمرانية، ولأن تنفيذ الشرائع يستدعي تهذيبًا- تهذيبًا يشرب النفوس حب العدل وكره الظلم، حب العفة والنزاهة، واحتقار الهوى والرشوة.

ولأن الشعب إذا تعلم، وبالأحرى إذا تهذب، أحب الحكومة ورعى حرمة قوانينها.

كيف لا، وإذا قابلنا بين إحصاءات الجرائم وبين إحصاءات المدارس لسنين معينة، وجدنا معدل عدد المجرمين يقل بنسبة زيادة عدد المتعلمين.

وسببهُ أن جزءًا من الجرائم الفظيعة ينتج عن ميل الإنسان الغريزي إلى الشر، وعن ضعفه لدى التجارب.. أما المصدران الكبيران فما السكر والجهل.

وحسب المدارس منفعة أنها تحفظ الأولاد الميالين إلى التقليد والتشبه، من مشاهدة مفاسد ومساوئ أهل البطالة والكسل، المنتشرين في الأزقة وحوشًا ضارية تغتال أطفال الإنسانية. حسب المدارس أنها بمجرَّد تنفيذ قوانينها تقلّل فُرَص معاشرة طلبتها للأوباش والأجلاف والسكيرين، وبالنتيجة فرص اقتباس عوائدهم. هذا فضلًا عما فيها من الرياضة على الحسن الشريف من العادات والمعاقبة على الدنيء منها.

أهذا صواب أم خطأ؟ أهذا خيرٌ أم شرٌّ؟ أهذا جميل أم قبيح؟

إن هذه الأسئلة لتقوم في النفس مرارًا كل يوم؛ إذ الإنسان خلقٌ عاقل يتصرف بعد أن يفتكر. وأعمال الحياة يغلب أن تكون من نوع الصواب والخطأ أو الخير والشر، أو الجميل والقبيح. فالمهذّب هو من يسأل نفسه أحد هذه الأسئلة في وقته، ويجاوب حسنًا، ويعمل حسنًا إذا لزم العمل.

والغرض من التهذيب تهيئة المرء لسعادة الحياة وللقيام بعمل يذكر فيها.

ومجرد القراءة والكتابة ومعرفة أصول الحساب وصرف اللغة ونحوها، ليس كل التهذيب، كما أن السكين والشوكة والملعقة إذا وُضعت على المائدة لا تكون الغذاء المطلوب.

وكثيرة جدًّا هي الأشياء الممكن تعلمها، ولكن على الإنسان المعين في أحواله المعينة أن يختار لنفسه بعضًا منها مما يوافقه من كل قبيل.

لدينا كتب السلف المحتوية على أفكارهم وأساليب تعبيرهم، وعديد مفرداتهم، مما طمسه الزمان فصار في حكم المجهول. فدرس تلك الكتب لا أقول إنه مضرّ لكل إنسان، ولكنه لا مشاحة غير ضروري لكل إنسان؛ ذلك لقلة ما يُرجى من الفائدة من معرفة مترادفات لا تُحصى لكلمات يكفي القليل المألوف منها لأجل التفاهم، ولامتناع هذا مع استعمال الغريب القديم من التراكيب والعبارات، بل رحمة بالوقت! فإننا نصرف في درس اليونانية واللاتينية القديمتين وقتًا يجب أن نصرفهُ في غير سبيل.

والمعلمون عظيمة هي واجباتهم وثقيلة هي المسؤولية المنوطة بأعناقهم؛ إذ التسلية وتمضية الوقت مع التلامذة أمر بسيط هين، أما تعليمهم، وتربيتهم، وتهذيبهم، وتثقيف أذهانهم، وترقية مداركهم، فهذا هو الفرض المقدس المرسوم عليهم.

وربما كان أسهل من سهل على المعلم أن يفهم التلميذ مسألة نحوية أو حسابية. «أجل سهل ويسير هذا، أما أن تساعد النفس الحديثة أن توفر وتزيد قوتها، أن تبعث في صاحبها روح الأمل والرجاء والاجتهاد، أن تنفخ في رماد الإهمال تلك الجمرات التي استودعته إياها الطبيعة، فتظهر نورًا ونارًا - ذلك ليس بالسهل، بل هو عمل عظيم لا يأتيه إلَّا المعطون من الله»[1].

(١) إمرسن.

وعلى طلبة التهذيب -ولا أقول العلم[1] أن يتعلموا أشياء وينسوا أخرى على حد قولهم، تعلم السحر ولا تعمل به.

وفي الاختيار بين ما يجب اتباعه وبين ما يجب الإقلاع عنهُ مما يستفاد من الكتب، تنحصر مقدرة المعلم على تهذيب الطالب، ومقدرة الطالب على تهذيب نفسه.

والتهذيب لا يقصد به إعداد محامين وقواد، وأساتذة، أو أرباب صناعات وتجارات وعملة مجيدي لا غير، بل إن صفته اللازمة إنما هي إنماء رجل الغد من طفل اليوم. والتهذيب التام بنظر مِلتن هو ذلك الذي يؤهلك إلى إتمام كل الواجبات الشخصية الخصوصية والغيرية العمومية، آن الحرب، وآن السلم بكل إتقان وحذق وأمانة. قال جونسن: «مَن يتصور أن الأفكار لا توجد إلَّا في الكتب وأنَّ في الكتب كل الأفكار، فما هو إلا متصور. فالأفكار تجري مع الأنهار والمجاري وتطفو على وجه البحر، وتنكسر على شواطئه، وتسكن التلول والوعور، وتسطع مع نور الشمس، وتنسدل طي أجنحة الظلام. فالأفكار موجودة في كل أين وآن. وما الطبيعة، إذا اعتزلت الناس إلا سفر، لله مَن يقرأه ويفسر آياته.

و «ثلاثة هي طرائق التهذيب تبتدئ الواحدة حيث تنتهي الأخرى.

الأولى: قراءة الكتب وإدراك معانيها.

الثانية: التفكير والتأمل الشخصي في تلك الأفكار والمعاني.

---

(١) لأن العلم شيء والتهذيب آخر.

الثالثة: محادثة الغير بها واختبار سقيمها من صحيحها، وسليمها من فاسدها»[1].

وبعبارات أخرى إذا قرأت فتمعَّن وتفهم. وإذا خلوت بنفسك ففكّر واجترّ ما قرأت وأنعم النظر فيه. وإذا وُجدت مع أحد فلاحظ بدقة ما قد تسمعهُ أو تعاينهُ مما يتعلق بموضوع تلك الأفكار. هذه هي الطرائق المثلى.

والتهذيب هو التناسب بين القوى والمواهب الإنسانية، إنماء وترقية.

وهو يبتدئ مع أول أدوار الحياة، ويستمر على تواليها. فالمربية أو الأم تكون أول مهذب للولد، ثم الأب، ثم المعلم، فالاختبار والأيام والتجارب. وكم من آدميٍّ خرج إلى حيز هذا العالم، ولم يعرف أُمًّا ولا أبًا، ولا عرفه معلم - فاتخذ الوقت الثمين أبًا، والفرصة العزيزة أُمًّا والأيام والظروف إخوانًا وأعوانًا، وعاش ما عاش، وترك هذا العالم شاكرًا حامدًا.

فكل إنسان له تهذيبان تهذيب يحدثهُ فيه الغير، وتهذيب أهم وأجدى، هو يحدِثهُ في نفسه.

وكثيرون من رجال الدهر، الذين يتمنى المجتهد أن يقاس ولو بقيراط من عظمتهم، أجل عدد يذكر منهم عُرفوا ايام تلمذتهم بالبلادة وخمول الذهن، وبالطيش وقلة الاكتراث بالدروس. ومن هؤلاء،

(١) لوك.

القائدان دوق ولنجتون ونابليون. والفيلسوف الفلكي إسحق نيوتن والروائي الطائر الصيت وُلتر سكوت، والشاعر المعروف شريدان، والكاتب المرّدين سوِفت وغيرهم من طبقتهم.

هذه كلمة نقولها، لا لنُطمع الكسول ونشجع الطائش، من طلبة المدارس ونبررهما، بل رجاء أن يتمسك بها ذلك المهتم بدروسه، المستلب الساعات من مخالب الآفات، حبًّا بتهذيب نفسه واستزادة علمه فيتشجع ويثابر على جده واجتهاده، عالمًا أنهُ لا يُعدم جزاء في العالم إذا كانت تفوتهُ الجوائز في المدرسة.

يتوهم البعض أن العلم مصدر الشرور، و يعتبرون العيشة الطبيعية أم الفضيلة. وما توهمهم إلا لعدم فرقهم بين حقيقة الجهل وبين البرارة وسلامة القلب، فإنهم يزعمون أن البارَّ سليم القلب صافي النية كالطفل في سريره، إلا أن الواقع خلاف ما يتوهمون ويزعمون؛ فإن المرء بعد بلوغه أشده ورشده، إذا سلبته معرفته وجدته في طور الهمجية، لا في دور الطفولية، وكان لك منه وحش ضارٍّ بشكل إنسان. هذا لأن العلم هو دليل الإنسان وقائده في هذا العالم، يميل به إلى الخير تارة وعن الشر أخرى. ومن لا علم له، فالشهوات والأميال الحيوانية متغلبة عليه.

وخلاصة القول إن العلم للنفس كالبرارة والقداسة والطهارة – اللهمَّ إن لم يشَب ويفسد وقد يجرب السليم ويخبث الطيب.

ورب علم يكون بالنسيان.

نعم صعب علينا أن نتعلم ما نجهل، ولكنهُ أصعب وأصعب أن نجهل ما تعلمنا، إذا كان مما عِلمهُ مضر وجهله أنفع. فلنسهر على

تهذيب ناشئتنا، وتعليم أولادنا كل السهر لئلا ينشأ الطفل على اعوجاج في المبادئ والأخلاق، وهيهات أن يُقوَّم اعوجاجهُ بعد الكبر، آخذين بقول القائل:

(قد ينفع الأدب الأحداث في صغرٍ

وليس ينفع بعد الكبرة الأدبُ

إن الغصـــــون إذا قومتها اعتدلت

ولا يلين إذا قومته الخشـــبُ)

ويا أيها المطالع المهذب نفسه! اعمل على استبقاء الأحسن الأفضل فقط من كل ما تقرأ في الكتب، وتجد في الناس، أو تتلقاه من أفواههم. ولا تخجل من نفسك أن ترى غيرك أعلم منك وأخبر. إنما إذا رأيت من نفسك القعود عن الاكتساب والاستفادة، وكان لسان حالك غير:

(إذا مرَّ بي يوم ولم أتخذ يدًا

ولم أستفد علمًا فما ذاك من عمـــــري)

فعند ذلك فاخجل. ولمْ نفسك ما تشاء.

قال سرفتش: «أيام تلمذتي، كنت أدرس الكثير من مثائلي مكرهًا مرغمًا، لا كمن عرف أن كل ما يتعلمه لغة كان أو تاريخًا أو جبرًا أو هندسة أم غيرها سيعود عليه ببعض النفع يومًا ما. أما اليوم بعد أن قطعتُ مرحلة طويلة من مراحل الحياة، فإنني أنظر إلى الوراء، فأرى أن كل فقرة تاريخية وكل رأي فلسفية وكل قاعدة لغوية وكل عملية

حسابية وبكلمة كل ما كنت محمولًا على درسه ومطلوبًا مني فهمهُ قد أفادني بصفته الخاصة في ظرف من الظروف، أما في أثناء المطالعة أو في المعاملات والتخاطب أو في الكتابة أو في غير هذه من المجاريات اليومية». فليعتبرنَّ المتأففون من طلبة العلم المتذمرون من درس ما لا يوافق أذواقهم تمام الموافقة. فإن تكلف الصعب وفعل المطلوب لمجرد كونه مطلوبًا يكسب الفاعل قوة يفتقر إليها في أغلب الأحايين. وما تلك إلا قوة الإرادة.

ارحم الوقت ترحم نفسك، فإذا أردت أن تدرس شيئًا فانصبَّ عليه انصبابًا واجمع كل قواك قوى عقلك ووجدانك جميعًا حوله. فلا يكون إلا القليل إلَّا وقد درسته كما يجب. وإلا كنت قائلًا للوقت خادعًا لنفسك. ولا تكن ممن لسان حالهم قول القائل أو مماثله:

(لا تكلفني القراءة أني ... مغرم في هوى الغزال النفور
فإذا ما فتحت يومًا كتابًا ... طاف طيف الحبيب السطور)

الفصل التاسع

الأصدقاء والأعداء

الجهالة في تكثير الأصدقاء- صديق جاهل أضر من عدو- يوناثان وداود- قداسة الصداقة- نقائص الأصدقاء- الصديق الكثير الصراحة- الحديث- المجادلة- سوء التفاهم- الاجتماع- حب المدن- الغرباء- الانفراد- قيمة الأصدقاء- الخلو في الضوضاء- الكلمة اللطيفة- الهدايا- حضور الأصدقاء- الحب- الحسد.

يُعنى بعض الناس ويهتمون لتكثير أعدائهم، ويا لهما من مهمة وعناء في غير محلهما. ويا لسرعة ما يتكاثر الأعداء من تلقاء ذواتهم، ولا شك أن عدوًّا عاقلًا خير من صديق جاهل. ولكن العداوة قلما تعود بعائدة نفع، وغالبًا ما تكون مجلبة للمضرة. فضلًا عن ذلك إن الأعداء الذين يُرجى نفعهم هم غير الذين نعاديهم نحن. ومهما يكن من الأمر فلا مراء أنهم لا يخلون من منافع، أهمها تحذيرهم لنا من سقطات وهفوات لا يحذرنا منها الأصدقاء. ومن ميزات العدو أنه عدو قلبًا وقالبًا. وحبذا لو أخلص الصديق في صداقته إخلاص العدو في عداوته. ولا مشاحة أن الأدعياء من الأصدقاء شرٌّ من ألدّ الأعداء. والمشير ڤارس لما أتى ليستأذن الملك لويس الرابع عشر بالذهاب لقيادة الجنود الفرنساوية استعطف جلالته بأن «قِنِيْ شرّ أصدقائي، فإني أستطيع أن أتقي شر أعدائي وأكفاه».

« والصديق القديم ما أشبهه بمعتَّقة الدير التي يحتسيها شاربها ويقول حسبي القديم فلا تسقني جديدًا»[1]، ولكن كل صديق قديم كان جديدًا يومًا، فاحرص على الجديد الجدير حتى تصيره قديمًا.

إن اجتماع النفوس المتقاربة من عظمى المسرَّات. أما الوحدة والانفراد فمن التجارب الموبقة. والوحدة المكانية ليست شيئًا بجانب

(١) جرمي تايلر.

الوحدة الروحية النفسية. والتألم لفقد الأصدقاء دليل على بركة وجودهم. على أنَّ مَن كان من محبي الطبيعة فهو مكفيٌّ مؤونة العزلة والوحشة.

وليس في التاريخ ما يحرّك العواطف مثل أخبار محبة الأصدقاء؛ فمحبة پلايدس لأورستس التي ضُربت بها الأمثال، وعشق يوناثان لداود الذي فاق عشق النساء، من أبهج ما سطر في صفحاته.

واتخاذ الصديق الصدوق ليس بالسهل اليسير. ومن تسنى له ذلك فليعلم أنه فاز بكنز ثمين ينبغي له حسن القيام عليه.

والأصدقاء إذا جرَّبت صدقهـــمُ

فاشتدَّ حرصًا عليهم فالقليـــــل همُ[1]

بل أحلهم من صدرك محل الحياة التي لا تجازف بها ولا تبخسها قدرًا. ومزدوجة هي بركة الصداقة – تضاعف الهناء وتناصف العناء. فعزّز أصدقاءَك، وساعدهم جهدك، واتعب لهم، ودافع عنهم، وقف بجانبهم إذا هوجموا، وافرح معهم إذا أفلحوا ونجحوا، وشاطرهم الإحساس إذا ابتلوا، وعزّهم إذا أصيبوا.

والعرب يحسبون مهاجمة من ذاق ملح طعامهم مرة خيانة لا تغتفر. ومع أن الرومانيين كانوا يقولون في أمثالهم إن الصداقة لا توثق عراها إلَّا بعد أكل الأردبات من الملح، فمَن لا تنوي معاملته كصديق فخير لك ألَّا تدعوهُ إلى بيتك.

---

(١) شكسبير.

ولأن نتوهم محاسن الصديق وفضائله توهمًا أفضل لنا من غض الطرف عن حسناته والتحديق في سيئاته. ولكن مهما حق لنا أن نأمل ونرجو من أصدقائنا، فلا يجمل بنا أن ننتظر منهم ما كان ذنبًا أو عارًا ولا بهم أن يتطلبوا مجاراتنا لهم في مثل ذلك.

ولربما صعب علينا أن نتصوَّر كم يتسنى للوضيع أن ينير حياة الآخرين. أما شكسبير فيقول:

كمصباح ضئيل النور شق الـ ـدُّجى بضيائه وأنـار ليلا

كذاك قليل خير في دنانا الـ ـدنية ليس في عرفي قليلا

أما الصديق المتفرّش والكثير الصراحة عن جهل أو سلامة طبع، فقد يكون معرضًا الصداقة لما يؤول إلى حَلِّ عُراها. أما الصديق فلا يُحجم عن الإنذار والتحذير. وقد قال جلادستون: «ليت شعري لو أن كل صديق يثبت بجانب صديقه ثبات العدو تجاه عدوه». إنما هذه المواقف قليلة نادرة لحسن الحظ. أما الصداقة على كل حال فيجب أن تكون عونًا للفضيلة لا مشجعًا للرذيلة.

وقليلة هي المسرات التي تفوق السرور بفكر جديد. وإذا تركت لذة معاشرة الأصدقاء جانبًا، فإن مجرد تبادل الأفكار معهم فيه ما فيه من اللذة.

أما المجادلة فغالبًا ما تكون سيئة العواقب. وكثيرًا ما تأتي نتائجها بعكس المقصود منها على خط مستقيم. وما ذلك لأن العواطف تثير أثناء المحاورة وتهيج، بل لأن لهجة المناظر المناقض مهما رقّت ولانَت

فلا تخلو من رنة تقع من القلب موقع التأمّر والإهانة. زد على ذلك أننا بقدر ما نقترب من الاقتناع برأي مُناظرنا نزيد له تجهيلًا وتقبيحًا. ونفس التكلم بسلطة وعن ثقة يدل على أن المخالفة جهل وسخافة عقل. وإظهار الحدة في مثل ذلك المقام ضربة قاضية. وعليه فالإقناع بالجدل نادر الإمكانية. وهنا يحسن بنا أن نذكر زعم العلامة لوك أن قسمًا كبيرًا من الشقاقات الفلسفية نتج عن احتمال الكلمة الواحدة معانِيَ مختلفة.

وهذا لا يصدق في المباحث العلمية فقط، بل نصف الخصام في العالم ليس الأسوأ تفاهم لا أكثر. ورب كلمة أساء السامع سمعها أو فهمها، أو جملة تكررت على غير وجه الصحة، أو عبارة قيلت في معرض الهزل فحملت على محمل الجد، أو توبيخة صدرت عن إخلاص حقيقي واتخذت مأخذ الخبث والضغينة – آلت إلى حل عُرى صداقات وإلى تمرير حياة وحياة.

وكما قال جوته الألماني بلسان أحد أشخاص رواياته: «وإن أختي وزوجها كانا نِعم الزوجين، ولكن عوضًا عن أن يتداعبا في الكلام ويتلاعبا بأساليبه، كانا يحاولان أن يقنع أحدهما الآخر. وإنما لفرط رغبتهما في الاتفاق التام ماتا ولم يتفقا على شيء».

ولكي تأتي المعاشرة بخير ما يُرجى منها، لا بدَّ معها من سلامة ذوق وتبصر وحسن رويّة. ورب متضلع من التاريخيات، تعوزه كلمة يفوه بها في العلميات والفنيات. ورب آخر يلذ لك حديثهُ في المواضيع العلمية، تجده عيًّا إذا استطرد الحديث إلى موضوع تاريخي أو فني.

وإذا تجمَّع في نفسك عدد من الأسئلة اللائقة، فقليل مَن لا تسرّ

بمقابلته فتستجوبهُ إياها. ومن المعلوم أن كثيرًا من الناس أقدر على فهم ما يسمعون وحفظه منهم على مطالعته وتفهمه لذواتهم. فقول هوراس التالي لا يصح في هذه الحالة:

النفس أسرع ما تؤتى من النظر

والعين أحرص من أذن على الأثـر

في العين خُبر وفي آذاننا خَبــر

والخبر أصدق عند النفس من خبرِ

طُبع الناس على حب الاجتماع والتآلف، ولا قبل لهم بمقاومة دواعي المدينة بما فيها ومَن فيها. والنساء والرجال أخلب لألبابهم من الحيوانات والنباتات؛ فهم بحكم الطبع أميل إلى الاجتماع منهم إلى الانفراد. أما الطريقة المثلى للتمتع ببركات القرى والبراري، فهي الخروج إليها بسرب من الأصحاب المتفقين أميالًا وأذواقًا. ولكن أكثر الناس يحبون الاحتشاد والجمهرة، فإذا قصدوا البرية لزموا قارعة الطريق، وأجفلوا لكثرتهم أسراب الطير وجماعات الحيوانات. وإذا استلفتت الأزهار نظرة منهم، مدوا إليها الأيدي، واقتطفوها جميعًا، وما لبثوا أن رموها بازدراء. وجمال الطبيعة بأحراجها وحقولها وأنهارها، قلما يروق منهم عينًا أو يسر خاطرًا.

والفلاسفة -بل الأكثرية من الناس- يُؤثرون المكاتب والمتاحف والمجالس على جميع ما سواها. ولسنا ننكر أن هذه من أعذب موارد السعادة وأصفاها. وقد صدق شيشرون بقوله: «ولنضف إلى هذه الأمور

فوائد لطف معشره الذي يرى فيه العلماء شعائره وأذواقه، ويجدون من حديثه لذة وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب. وما الذي ينقص حياة كحياته ليزيدها سعادة؟ إن السعد نفسه ليعنو لدى حياة هذه مسراتها. فإذا كان السرور بمثل هذه من خيرات العقل يعد سعادة وكان هذا السرور نصيب العلماء والحكماء، فلماذا لا نقول إن جميع هؤلاء إذَنْ سُعداء في نفوسهم؟».

وربما طالت إقامتنا مع بعض الناس وظلوا لنا بمثابة الغرباء. «والقلب يعرف مرارة نفسه وبفرحه لا يشاركه غريب»[1].

وهذا القول لا يصح في الغرباء فقط، وكم من مرة يفاجئنا بعجيب مستغرب مَن كنا نحسب أننا عرفناه تمام المعرفة، وقال قال لورد هوتن:

لـم يـزالـوا كـأنـهـم غـربـاءُ بعد ما طال واستطال اللقاء
كـم قضينا سوية مـن سنين وأتـانـا فيها الهنا والعناءُ
كـم رحـلـنـا سـويـة وحللنا وعلينا من الشهود الفضاءُ
فلماذا كـان اللقا والتآخي إن يظلوا كأنهم غـربـاءُ

والحياة تزيد وحشة إن نحن لم ننتبه للأمر ونهتم له. وهل يجوز أن نكون:

كـل فـرد ضاحكًا أو باكيًا مستقل ليس مـن خـل مَعه
فـكـأن النفس فـي هيكلها ناسك مستعصم في صومعه

(١) أمثال: ١٤ – ١٠.

وبَلوَرْ لِيتون يضمن نفس الفكر قوله:

أفكّرتَ في أنَّا على القرب ها هنا

بعيدان والأفكار تفصل بيننـــــا؟

فجنبًا إلى جنب جلسنا وإنمـا

كأنا ابتعدنا واغتدى الوصل بيننا[1]

وأنى لثغرينا اقتـــــراب لقبلةٍ

وقلبك عــن قلبي بعيـــد وما دنـا

والشاعر برونن يلمع بقوله الآتي إلى أولئك الذين يسكنون السنين الطويلة في منزل واحد، ولا يستطيعون أن يوجدوا معًا في ناحية من نواحيه:

أبـدًا أدور على جميع جهاته عرصاته غرفاته وجناحه

وإذا التقيت بها استحالت طائرًا شق الفضاء مصفقًا بجناحهِ

ووحشة المكان وإن ثقلت وطأتها على القلب، ليست بشيء إزاء وحشة النفس. ومَن يحب الطبيعة حبًّا حقيقيًّا يعتزل وينفرد ولا يشعر بوحشة مطلقًا. ولا غرو فالطبيعة أم السلام والسكينة. وإذا خلا الفكر وارتاح من مشاغله استفاد القلب من ذلك الخلو وتلك الراحة.

ولا شك أننا نطلب الوحدة أحيانًا. والملكة فيكتوريا لما كانت ولية العهد بعد وبُلغت وفاة الملك وليم وبُشرت بارتقاء العرش البريطاني،

(١) البين هنا: البعد.

طلبت أن تخلو بنفسها ساعتين من الزمن. والوحدة تختلف باختلاف الأشخاص. وربما كانت معبدًا وميناء سلام لهذا، وسجنًا ومحل عقاب لذاك، أو سماء لواحد، وجحيمًا للآخر. وليس لكل إنسان أن يقول مع القائل:

يـا ليتني فـي بقعة مقفرهْ وظـل أشـجـار بـه أرتـع
عن كل أفعال الورى المنكرهْ عن مكرهم والظلم لا أسمع

وتوماس أكمبس يخبرنا:

قائل قـال من بني ذا الزمان وهـو قـول من الحقيقة دان
غالبًا ما صحبت ناسي حتى خلت نفسي أقـلَّ من إنسان

والشاعر شلَّر يستشهد بمثل قوله:

(وإنما رجل الدنيا وواحدها)[1]

يعيش لا ينتمي يومًا إلى رجـل

على أن قول بارناردن دي سانبيار يلوح لي أقرب الجميع إلى الحقيقة، وهو: «وما حال نفس وحيدة ولو في السماء نفسها!». ولكن أي سرور في الحياة يفوق لذة الاجتماع بمن نحب. وقد قال لابرويار: «العيش مع مَن نحب حسبنا وكفى». وقد يصح ما يُقال من أن البعيدين عنا قد يكونون أقرب لقلوبنا من الحاضرين لدينا. وربَّ زمرة ترى نفسك في عدادها وتحسبك في عزلة.

وربَّ امرئٍ ما بين مُبلى ومُكربٍ يعيش ولكن قلبه قلب مطربه

(١) .... من لا يعول في الدنيا على رجل.

يجد إلى الآمـال سعيًا وينالها ويطلب ما يهوى ويمنى بمطلبه

«والرجل العظيم هو ذلك الذي تحدق به الألوف ولا تعكر عليه صفاء، بل يظل منها كما لو كان معتزلًا منفردًا».

والحديث يجب أن يكون طبيعيًّا لا صنعة فيه ولا تكلف، وما يرينهُ إلَّا الإخلاص والحرية الفكرية. إلَّا أنه لا يكون طليًّا إلَّا إذا عُنينا لهُ. وحسن بنا إذا أردنا الكلام أن نعرف ذوق السامع ومبلغ مداركه. وقد أتاح لي الحظ معرفة أحد علمائنا الكبار الذي رغمًا عن سعة علمه كان عيًّا لا يستطيع مجاذبة أطراف الحديث مع مجالسيه. وكثيرًا ما كان يتفق له أن تنتهي المأدبة ويفرط عقد المدعوين وهو لم يَفُهْ ببنت شفة قط. ولكن يا لسعادة من ارتاب واحتار في أمر مسألة علمية واستفهمه إياها، فوجد فيه إذ ذاك جليسًا أنيسًا ومتكلمًا فصيحًا. كان متفردًا بمقدرته على الإيضاح والتفسير، ومَن أتاه مرتابًا في حقيقة خرج من لدنهُ وهو على اليقين من أمرها. إلَّا أنه لم يكن ليستطيع أن يفاتح غيرهُ حديثًا أو يبدأ معهُ كلامًا. والمحادثة كالمخاصمة لا بد من اثنين يقومان بها. ولا ريب أن من الناس مَن يهذرون ويكثرون من الكلام، ولو أقلوا ودلوا لزادوا في أعين سامعيهم اعتبارًا وإكرامًا. وحتى المجيدون والفصحاء قد يحسن بهم السكوت أحيانًا. وربَّ صمت أفصح من كلام. وربَّ فترات تزيد الحديث طلاوة وتأثيرًا.

وإذا كنا في هيئة مجتمعة، فلنذكر أن حسن الإصغاء مضارع لحسن الإلقاء في الأهمية. ومَن يحسن الاستماع يستفِد من جهة ويسرّ محدثه من جهة أخرى. ولما كان الناس عمومًا يحبون التكلم حبًّا، كان الإصغاء لأقوالهم لطفًا وأدبًا.

وعجيب هو تأثير الكلام:

بينا همُ يترشفـــــون من الطرَبْ

كاسات أنس في قصـــــور من ذهــب

للعود أوتار وألحان عليـــــــ

ـها الغيد ترقص لا هموم ولا كـــــرَب

والورد والريحان فاح شذاهما

يتنعمون وما عليهـــــم من عطـــــب

وإذا بقولٍ ساءَهـــم فتغيَّرت

ألوانهم والحال في الحـــــال انقلـب[1]

أجل إن ما يصفه الشاعر أشبه بما ورد في الخرافات وقصص الجن، على أننا في غنى عن الرجوع إلى عصور السحر والعرافة تأييدًا لما نقول. فمن منا لم يلاحظ مرة كيف ترتعد الفرائص وترتجف الأعصاب ويتزعزع العقل من مركزه وتفسد ساعة السرور فسادًا لمجرَّد سماع كلمة فظة أو كلمة غيظ وغضب؟ واعتبر ذلك أيضًا بالكلمة الصادرة عن شعور حي وعواطف رقيق، فهي الكلمة التي تفرح قلب الكئيب وتنتشله من بحر الأحزان والآلام والهواجس وتنير ما أظلم من دنياه في عينيه.

كل من قرأ «سياحة المسيحي» يذكر تلك الفتاة المسماة «بلادة»

(١) هاين.

وأصحابها «ساذجًا» و«كسولًا» و«مدعيًا» و«سخيف العقل» و«بطيئًا» و«جبانًا» و«عبد أهوائه وشهواته» و«قتيل النوم». ولا غرو أن كثيرًا من شرور العالم مصدرهُ البلادة والخمول. والسكر كثيرًا ما يُقدم عليه حبًّا بالتهيج وتخلصًا من القنوط والخمول، ولكن لماذا يخمل المرء ويقنط ويتبلَّد والحياة كلها حركة وأمل؟ وإذا كنت لم تُعْطَ أن تكون مجونيًّا تحسن الهزل وتسلية النفس، فاغتنم فرصة الاجتماع بمن كان كذلك. ورب ضحكة خارجة من أعماق الصدر تخفف عنك وطأة يومك على شدتها، والضحك وقل القهقهة فائدة للجسم والعقل جميعًا.

والصداقة لا بد معها من التكاتم والتسارر، وأسرارك لك الخيار بين أن تذيعها أو أن تكتمها. وأما أسرار صديقك فشأنك معها غير هذا الشأن.

والمرءُ يجب أن يكون طلق المحيا مفتوح القلب ما أمكن. وبعض الناس مولعون في الكتم والإصرار على أسرار تافهة ظنًّا منهم أنها أسرار عجيبة. وهذا خطأ مبين على أنه لا يُنكر أن هنالك أمورًا يجب كتمانها عن الآخرين خشية أن ينشروها بين الملاء جميعًا ولو خلت نياتهم من السوء وتعمد الخيانة، فإن كثيرًا من الناس يشق عليهم أن يكتموا سرًّا رغمًا عن رقة شعورهم وسلامة طواياهم.

والمثل الفرنساوي يقول: «لا أثقل من سر، ولله حامله». ولله درّ شكسبير القائل:

القول سهل كالهواء وجوده وكملتقى العنقا لقا الخل الوفي

وإذا كنت تعجز عن كتمان سرّك في صدرك، فمن الجهل أن تنتظر كتمانه من سواك.

وكثيرًا ما يأتي الشقاق وسوءُ التفاهم عن طريق النميمة ونقل الكلام. وربما أنكر المتهم أنهُ استغاب ووشى، ولكن قلما يقبل إنكاره واعتذاره. وكم من رسالة يبلغها الرسول على غير وجه الصحة وتقع التبعة على صاحبها ويسلم الرسول من عواقبها. ولنذكر تلك اللعبة التي فيها يهمس أحد الجلوس جملة في أذن جاره... فيعيدها الأخير على مسمع الجميع، وإذا بها مختلفة عما همس به الأول اختلافًا يستدعي الدهشة والضحك. ورب شهود عيان لحادثة من الحوادث يختلفون كل الاختلاف في وصفها رغمًا عن اتفاقهم على توخي الصدق والحقيقة.

فما بالنا إذَنْ لا ننظر إلى ما يُقال في ظهورنا نظرة تأنٍّ وتؤدة، ولماذا تُرانا لا نقبل للمتهم بالقدح فينا وباغتيابنا عذرًا ولا برهانًا؟ وقد قيل:

(واقبل معاذير من يأتيك معتذرًا

إن برَّ عندك في ما قال أو كذبـا)

والخصام حمق وجهالة ولا سيما إذا قام على غير سبب موجب لهُ. فلماذا نخاصم مَن يظهر لنا براءَتُه من اغتيابنا؟ ألا نكون بذلك ظالميه؟ بل وإذا ثبت لديك أنهُ اغتابك، فقد يكون إنكارهُ من باب النسيان لا غير، ومن ثم فعفوك عنهُ كرمًا وحلمًا، وصفحك عن ذنبه إليك يُعد لك فضلًا وهو الأفضل.

قرأنا في الكتاب أن فلس الأرملة النحاسي يعتبر أكبر قيمة من «وزنات» الإنياء الذهبية؛ لأن قيمة العطية الحقيقية، إنما هي الروح التي تُعطى بها. ولسنا لننظر إلى مقدار المال، حتى ولا إلى منافعه، بل إلى العاطفة التي تبعث على الجود به.

نِعم الحبيبُ وقد أتتـ ـهُ هدية من حِبّهِ
من ليس يعبأ بالهديّـ ـة عُبئَهُ فـي حبّهِ

وربَّ خصلة من الشعر يحرص عليها الحرص على مُلك عظيم.

وأصدقاؤنا أبدًا معنا إذا كنا كالقائل:

وأذكرها إذا ما الشمس أرخت حبال النور من أفق البحار
وأذكـرهـا إذا ما النهر ألقت عليه نورها درر الـدراري
وأسمعها وصوت الموج سارٍ إلى قمم الجبال مع السواري
وأصمت سامعًا إمـا وحيدًا أتيت الغاب.. يا حلو أذكاري[1]

ولما كانت أعمال الإنسان سريعة الزوال والاضمحلال، فلا بدّ لنا من أناس نحبهم ويحبوننا؛ لأنه متى نُفيت المحبة والعواطف من صدورنا، لا تلبث السعادة أن تهجرنا وتقصد منفاها»[2].

وللصداقة أويقات مقدسة تُسبّح فيها، وأمسية الشتاء رائقة صافية لكثير منا كأمسية الصيف وأكثر.

---

(١) جوته.
(٢) شيشرون.

أضرموا النار وأقفلوا الأبوابـــــــا

واجلسوا بعضنا لبعض قريبـــا

غابت الشمس. أسدلوا ذا الحجابا[1]

إن للبرد في الجســـوم دبيبـا

إي! وأعلوا عمود نارٍ صحابـــــا

آن للعيش ســـاعة أن يطيبـــا

وبصافي الكؤوس ذوقوا شـــرابا

مفرحًا للعقــول ليس سلوبـــا

فالمسا يا صحـــاب عـــاد وآبا

ولنرحِّب بعـــوده ترحيبـــا

وإنهُ ليسعنا أن نكثر الأصدقاء ما شئنا وما أحبت قلوبنا. وقد قال أفلاطون: «ما أعظم المحبة؛ فمملكتها تشمل كل شيءٍ؛ إلهيًّا كان أم بشريًّا. والمحبة هي أم الفضيلة في الحياة، وأم السعادة بعد الموت»؛ ذلك لأن العقل محدود، أما عاطفة المحبة فلا تعرف حدًّا ولا نهاية.

ومع أن الصداقة هي مِحوَر كلامنا الآن، فإني لا أتمالك من ذكر «الحب»؛ لأنه أعظم لذة يفوز بها الإنسان. وسماوية هي الملاذ الموسيقية. أما سير ت. برون فيقول: «إن في جمال «رب العشق»[2]

(١) المراد «الستارة» تقي من البرد.

(٢) Cupid.

ونغماته الخفية لشجّى ورقة لا يوقّعان على آلة». ولا ننكر أن سهام «رب العشق» اللطيفة قد تكون أذرع فتكًا من حراب «إله الحرب»[١]. أما بايكون فلم يعدل في قوله: «إن الحب «بنت الماء»[٢] تارة و«إله الغيظ»[٣] أخرى».

وإليك أمنية عمر الخيام أحد شعراء الفرس:

أديــوان أشـعـارٍ وقربة خمرةٍ وكسرة خبز تحت غصنٍ مظلل
وأنت بقربي تنشدين فتطربي وما القفرُ فردوس به الهم ينجلي

إلَّا أنهُ لا يجوز أن يُجازف بالحب ويوهب على غير رويّة وبصيرة، وقد قال مكدونالد:

أن همتَ في حب ومتّ قتيله خير من العمر الطويل بدونهِ
ولأنتحبتحبوتنتهيوتصدني خير لو أنك ما وجدت بكونهِ

وقد جمع شكسبير جلّ علائق الإنسان بأخيه في نصيحته هذه المأثورة:

حُب الجميع وثـق ببعض منهــمُ
واحذر فلا تدني المضرّة من أحـد
وعلى حياتك والصــديق كليهما
فاسهر وعش أقوى من الضد الألد

---

(١) Mars.
(٢) Siren.
(٣) Fury.

وهو يحذرنا ويعيذنا من الحسد، ذلك الوحش الضاري، ذي العينين الخضراوين الذي افترس كثيرين من أمثال أوتلّو. والحسد أكثر ما يكون من دون داعٍ ولا سبب. وكقوله:

تخذ الحسود من الغبار تلولا ورأى كثيرًا ما نــراه قليلا
والواهيات من الدلائل عنده ُوحــي بها أو أنزلت تنزيلا

ومَن لا ثقة لك فيه، فلا تتخذه لك صديقًا. أما إذا اتخذتهُ صديقًا فثق به وثوقًا.

ولكن مهما كان من أمر الصديق وخيره والعدو وضيره، فإن أعدى أعدائك وأصدق أصدقائك إنما هو «نفسك».

الفصل العاشر

المال

قدر المال فوق قدره- التمتع بما لا نملك- الحذر الأولي ليس من «المال» بل من «حب المال»- الجود غير مقصور على الأغنياء- فلس الأرملة- الوقت أثمن من الذهب- الأثمن لا يُشرى ولا يُباع ولا يُسرق وهو الأفضل- ثروة الأمة- الاقتصاد- المضاربة والطمع- المقامرة- الرجال تخلق المال، والمال لا يخلق الرجال.

كلٌّ يعد ملاذ الفنون والعلوم والأدب والموسقى بين ملاذ الحياة العظمى، وكل يعلم أن المال لا ينقص فيها ولا يزيد. والتماثيل والرسوم يتمتع بجمالها الفنيّ الذي يتأملها كالغنيّ الذي يملكها، بل أكثر. «وليس للمالك إلَّا ما نظرت عيناه».

وأرباب الملايين قلما يخلو فكرهم الخلو المطلوب لأجل قَدْر ملذّة العلم قدرها. ومن هام في غرام الأدب ففراغ الوقت يعوزه أكثر من الدراهم؛ ذلك لأن أنفس الكتب أرخصها، وأجرة يوم واحد تشتري لك ما قد تستغرق سنتك بمطالعته، والمكتبة الكبيرة مُلكٌ هو خير الأملاك. أما خيراتها فتدرّ على المطالع المنعكف على قراءة مجلداتها، لا على صاحبها الذي ربما كان نصيبهُ منها الإعجاب بزخرفة الكتب وتأمل حسن تجليدها. وإذا اتفق أن كان صاحب المكتبة من أهل السياسة، أو من أصحاب المناصب العالية، أو من أرباب الثروة الشديد الاهتمام بأموالهم، فقليل ما يتيسر له من الوقت للمطالعة.

وبالجملة إننا نقدر الغني فوق ما يستحق، ودليلنا على ذلك أقوالنا المتداولة في مَن رُزئ بماله «تلفت حاله وساء مآله» وما أشبه. والصفات أبدًا أفضل من البحبوحة والترف في المعيشة. وهوراس عبر عن رأي أهل رومية عامّةً؛ إذ قال: «المال سلطان يمنح القوة». وعند الفرنساويين سار المثل «ذلك حسن وجميل، أما الذهب فأفضل».

فمن جرّاء فرط المبالغة والمغالاة في تقدير فوائد المال، أصبح مجرد الشوق إلى وجه الأصفر الرنان مضرًّا كوصاله. ورب وصال يحسن بدءًا ويسوء عقبًى، بل ربما فاز صاحب هذا الشوق بوصال محبوبه، وحَظر على نفسه التمتع به خيفة أن يجفوه أو يصده فيفقده. والكتاب لا ينذرنا من «المال» كما ينذرنا من «حب المال وعبادته». وخطر المال يتأتى من ناحيتين: فأولًا إنهُ ينمي ذلك الحب ويزيده، وثانيًا أنهُ يغرُّ صاحبه فيسرف به ويسيءُ استعماله بأن ينفقهُ في المضرّ ويحبسهُ عن النافع. وهاك وداع هارپاكون[1] لدراهمِهِ المسروقة: «أين أنت يا مالي العزيز؟ أواه قد ذهبوا بصديقي الصدوق- حرموني إياه حرمانًا، ولم يهجرني هجرانًا- ذهب ذَهبي ولن يعود. سلبوني دراهمي، بل أعواني وتعزيتي وأفراحي - قُضيَ الأمر. فليقض عليَّ كما قضي عليها؛ إذ ليس لي بعد فقد دراهمي من مرام في هذه الدنيا».

يقولون: «الوقت ذهبٌ». والحق أن الوقت أثمن من الذهب. والناس جميعهم واحد باعتبار الوقت، فليس لأحد منا أكثر من أربع وعشرين ساعة في يومه. وأَحْرِ بمن ينام ثماني ساعات كل يوم أن يحسب نفسهُ عظيمًا كأعظم السلاطين وغنيًّا كأرباب الملايين، بل إنه أحسن من هؤلاء حالًا؛ لأنه أكثر أتعابًا وأقل شواغل؛ فهو ينام نومًا ألذّ من نومهم بكثير، ثم احسب ساعتين أو ثلاثًا للأكل والشرب ومهامهما، والجوع أحسن مقبّلٍ كما نعلم بالاختبار. والعامل الشغّيل يلذّ له طعامهُ كائنًا نوعُ ما كان، ثم إن الإنسان يحب امرأتهُ وأولاده. والوقت الذي

(١) بطل رواية البخيل لموليير.

يُصرف معها ومعهم، فيه لذوي العواطف من العمال، نفس ما فيه لذوي العظمة من الملوك. بقي أن نحسب ساعتين أيضًا للرياضة البدنية ولبس الثياب ونزعها... إلخ، والغني والفقير في هذه الأحوال على حدٍّ سواء. ولم يبقَ إلَّا ساعات الشغل الثماني أو العشر. والشغل العقلي أتعب من الجسدي كما لا يخفى، وهل هو أوفر لذةً لا ترى؟ ومَن يقرأ منشور المحكمة أو يتصفَّح الجرائد الأمريكية أشك في كونهُ يرضى بمنصب «رئيس جمهورية» بدلًا من مهنة نجار أو بنَّاء. وربما كانت الأعمال العقلية أوفر لذةً من الجسدية في أحوال شتى، إنما لا يصح القول إنها دائمًا كذلك. أما المسؤولية والعناء، فلا شك أنهما في الأولى أشدّ منهما في الثانية.

ومهما يكن مما مرّ، فليس للغني والقويّ في ثلثي زمنهما -وإن شئت فقل في ثلثي حياتهما- أدنى صفة يمتازان بها على الفقير. وأما الثلث الباقي، فالحكم فيه عرضة للنقض والإبرام.

يُقال أحيانًا إن لذة الإعطاء والتكرم من أعظم ملاذ الغنى وأطهرها، وهذا صحيح. ولكن الفقير أيضًا يتسنى له أن يجود ويسخو، وفلس الأرملة يُساوي دينار الغنيّ من هذا القبيل. فالفرق بين الغني والفقير من هذه الوجهة أقل من قليل. «لا يستطيع المرء أن يملك إلَّا قسمًا صغيرًا من العالم. ولكنهُ يستطيع أن يتركه بأسره ويتخلى عنهُ جميعًا»[1]. وكما قال أمفيون مرة وهو يتمشى في الأسواق: «ما أكثر الأشياء التي أريدها، مع أني لا حاجة بي إليها». أما من حيث الشعور مع الغير والرفق

(١) نيكول.

بهم، وهذان أسمى العواطف وأثمن من المال، فالفقير كالغني وأكثر؛ فالدراهم ليست غنًى حقيقيًّا.

وكم ممن نحسبهم فقراء وضعفاء مَن هم في الحقيقة أغنياء؛ إذ عندهم من العزة والشرف والمبادئ القويمة ما يحمل على إكرامهم إكرام ذوي الملايين تمامًا. والشيء الأثمن هو بالحقيقة ما لا يُباع ولا يُشرى. الغنى «أباطيل مزخرفة مطلية ومفاخر فارغة كفقاقيع الهواء»[1]. والمثل العربي يقول: «غنى المرء إنما هو العمل الذي يأتيه في هذه الدنيا. وبعد موتهِ يسأل الناس أي ميراث خلف، أما الملائكة فتسأل عن الصالحات التي أرسل بها إلى آخرته من أُولاه».

وما بال الناس يفدون الثروة بالحياة، فيسعون في سبيلها مضحِّين صحة أبدانهم وراحة فكرهم والقسم الأكبر من وقتهم؟ ومتى كان قنطار المال يساوي نقطة حياة؟ أما السعادة فلا تُباع ولا تُشرى. وأهم موجودات الدنيا هواءٌ نقي وماءٌ صافٍ وطعام صالح وعافية جيدة وضمير مرتاح. والمليونيّ ليس لهُ أن يتمتع بهذه البركات أكثر من العامل المسكين.

وشر ما في الدنيا الألم والاضطراب والهمّ والخطيئة، وهذه لا ينتفي وجودها بمجرَّد وجود المال، بل ربما كان المال مجلبة لها جميعًا. «يُنزل الله الأمطار، ويطلع الأنوار، على الأبرار وغير الأبرار. إلَّا أنهُ لا يمطر مالًا ولا يطلع فضيلة على جميع الناس بالتساوي؛ فالمنافع العمومية يشترك بها الجميع، أما الخصوصية فلا ينال منها إلَّا

(١) تراهرن.

الأخيار»[1]. «والقصر الفخيم مظهر من مظاهر العزَّة والمجد اللهمَّ إن كان ساكنهُ عزيزًا شريفًا»[2].

وما يصدق على الأفراد يصدق على الأمم أيضًا؛ فغنى الأمة الحقيقي ليس بالفضة والذهب في خزائنها، بل بعدد الصالحين والأصحاء والسعداء من أبنائها. والأمة كالفرد إذا عرضت ذاتها للهلاك والدمار هلكت وانقرضت. وكأني بالكثيرين يتصوَّرون أن غنى الأمة لا يُمس بنقصان، وهو عظيم حقيقة، إلَّا أنهُ كغنى الفرد المعين المحدود. ولسوء الحظ قليل مَن ينتبه لهذه الحقيقة. وكل بلاد تقتصد إذا حلَّت بها الأزمة وضرب فيها الفقر أطنابه. أما الأمة الحكيمة فهي المقتصدة حتى في أيام سعدها وأوج علائها. فهل أمتنا أمة حكيمة؟ إني لأشك في الأمر وأرتاب. وقد سبق دانيال دِفُو فقال: «الاقتصاد ليس فضيلة إنجليزية». والغنى من دون حكمة معدن لا قيمة لهُ مطلقًا. وإليك قطعة من أمثال الملك ألفريد تشير إلى ما نحن بصدده. «هكذا يقول ألفريد: لا قيمة للمال من دون الحكمة؛ لأنه ولو كان لإنسان سبعون فدانًا من الأرض، وزرعها ذهبًا أحمر، فنما ذلك الذهب كما ينمو العشب، ظل الغنى عنهُ بعيدًا وغريبًا لا يعرف له وجهًا. وما الذهب إلَّا الحجر إلَّا إذا كان في يد الحكيم العاقل».

وقد عبد الإسرائيليون من الأوثان أشكالًا وأنواعًا، أما العجل الذهبي فكان أدعاها جميعًا للسخط السماوي على قوم موسى.

---

(١) بايكون.

(٢) شيشرون.

وفائدة المال الذاتية إنما هي كفؤنا مؤونة الاهتمام والعناء للحصول عليه، ولكن إذا كانت النتيجة أننا كلما فزنا بشيء منهُ زدنا اهتمامًا واضطرابًا، فتبًّا لها من نتيجة. والمال تجربة عظيمة، يغر المرء، ويزين لهُ التمرُّغ في أوحال الملاذ الباطلة. وكثيرًا ما يبلغ الغرور بالأغنياء مبلغ أن يعتبروا الفقراء كالرصيف يدوسونهُ. أما الفقر فكل ما يلزم معهُ فضيلتان -هما الاجتهاد والصبر. والرجل الموسر إذا خلا من سجايا الإحسان والاعتدال وحسن التدبير، كان أبدًا رهن الخطر والهلاك. والتاريخ يفيدنا جليًّا كم من الأخطار تحدق بالقوي والغني. والملك سليمان ختم حياته زنيمًا كئيبًا. والبعض من ملوك الرومان أحسنوا ابتداء حياتهم وشبوا على الاستقامة، إلَّا أنهم ما ارتقوا عروشهم حتى تبدَّلت أحوالهم ووخم ما لهم. ونابليون أيضًا مات ميتة المتناهي في حب الذات.

يشبّه فنلون مَن يضحي نفسه في سبيل الثروة والمجد بمَن يركب مركبة زاهية فاخرة رغمًا عن علمه أنها سترمي به من أعلى هوة عميقة إلى أسفلها. وفنلون لم يكن ليحتقر الاقتصاد المعقول على ما أرجح. ورب ذي بصيرة يُبصر، وذي بصر لا يتبصر.

إذا كنت في أيام شبابك تشتري ما لا حاجة بك إليه، فستضطر بعد المشيب إلى بيع ما لا غنى لك عنهُ. فالحكمة تقضي بأن نعيش في شبابنا بحيث نكون في مشيبنا أحرارًا من ربقة الدَّين وكل قيد مالي. وإذا حسن بك أن تنفق من نتيجة الأمس، فما هو بالحسن أن تصرف مدخول اليوم الذي أنت فيه. فكيف بمن يُنفق نتيجة غدهِ قبل الحصول عليها! فلا حرَج إذَنْ إن قلنا إن مُسرِف اليوم شحاذ الغد.

يُقال إن ربلايس أوصى بما يأتي ساعة موته «ديوني كثيرة. لست أملك شيئًا. والباقي أتركهُ للفقراء».

وإذا تعاطيت التجارة فلا تتعجلنَّ الإثراء ولا تضارب مغترًّا بعظيم الأرباح والمقامرة أيًّا كان نوعها؛ فالخراب والدمار نهاية أمرها. أما الأرباح الخفيفة، فهي التي تصير الكيس ثقيلًا. ولا تنسَ في أيام النعمة والتوفيق أن أيام البؤس قادمة إليك. وإذا أحل النحس بأيامه فذكرى أيام السعد خير عزاء، وانتظار عودتها خير رجاء.

واعتبر أيضًا بأصحاب الأراضي والأملاك الواسعة، وكثيرون من أبناء وطننا يقضون الأشهر بطولها وهم ينتظرون بذاهب الصبر أن يمضوا شهرًا أو شهرين في بلاد سويسرا على شاطئ البحر أو سطحه، ولا يخطر ببالهم مرة أن تلك الجبال والسواحل والأمواج ليست لهم ملكًا شرعيًّا. فامتلاك الأحراج والحقول والأنهار، ربما عاد علينا بدخل يذكر، ولكن هذا لا يزيد شيئًا في لذة مرآها والعيش فيها وعاشق الطبيعة يبتهج بمنظر الجلد نهارًا، والقمر والنجوم ليلًا، وبشروق الشمس صباحًا وغروبها مساء. ومُلك من هذه يا ترى؟

وإذا كان المضيف يمتاز عن ضيوفه بشيءٍ، فما هو إلَّا أنه المضيف وهم الضيوف، ولا فرق بينهُ وبينهم في ألوان الطعام وأشكاله. والفقير يلذّ له زادهُ البسيط أكثر مما يلذّ للتاجر طعامه المتقن. ولما كان آدم وحواء في فردوس النعيم، نعم كانت تنقصهم وسائل البذخ والشرف إلَّا أن عذابهما لم يكن إلَّا من شوقهما إلى جني ثمر المعرفة قبل أوانه.

والأموال تزيد الناس عناءً واهتمامًا بخلاف الفقر، أو كما يقول

المثل الإفرنسي: «مال قليل، اهتمام قليل». والأموال بركات، اللهمَّ على المحسن القيام عليها، فهي عبيد الحكماء، وظلَمة الجهلاء. والسلاسل سلاسل ولو صيغت من ذهب. أما الطماع فلا يعرف الشبع، وكنوز العالم بأسره لا تسعد بخيلًا طمَّاعًا.

قال بايكون: «عندي أن المال للفضيلة ليس إلَّا بمنزل «الأرزاق» للجيش؛ فلا بدَّ لهُ من المؤونة إذا زحف ولو أنها تؤخرهُ وتعيقهُ زحفًا، وتبدد قوتهُ كرًّا وفرًّا. والمال إن جمع فنفعه في تفريقه. وما حُجر عليه وحبس في الخزينة فسرقة مخفية لا أكثر».

لما قيل لآجس إن بعض المساكين يحسدونهُ على ثروته وماله، أجاب: «إذَنْ امتعاضهم امتعاضان- الواحد من فقرهم، والثاني من نعيمي» وما أغناهم عن الثاني.

سُئل مرة ثيموستكليس عن رأيه في أي أفضل - تزويج الأب ابنته برجلٍ رجلٍ إلَّا أنه فقير، أم بغني أقل منهُ شيمة ورجولية. فأجاب: «لعمري إني بلا ريب أفضل تزوّج الفتاة برجل لا مال لهُ، على تزوجها بمال لا رجولية معهُ».

الفصل الحادي عشر

الخوف من الطبيعة

الخوف من الطبيعة- المذنبات والخسوفات- آلهة الوثنيين- السحر- المتوحشون- الرومان- فالنسية- النجوم والسيارات- الأرواح- عدم الاكتراث بالطبيعة- مدام دي ستايل- كولد سميث- جونسون- تنسون وقساوة الطبيعة- الموت- العلم والطبيعة.

كثيرون منا يعجبون بالطبيعة ويحبونها ويعترفون بفضلها، وكثيرون لسوء حظهم لا غير، لا يعبأون بها ولا يكترثون لها. بيد أنهُ يشق علينا نحن أبناء القرن العشرين أن نتصوَّر معظم الرهب من الطبيعة الذي كان مستوليًا على بني العصور الخالية، ولا يزال سائدًا على المتأخرين من الشعوب المعاصرة. ففي تلك الأزمان لم تكن المذنبات والخسوفات والكسوفات وحدها مما كانوا يحسبونهُ إنذارًا بالشر ودلالة على الغضب الإلهي السماوي، بل مظاهر طبيعةٌ أقل من هذه شأنًا كانت توحي إليهم مثل ذلك وتلقي الرعب في قلوبهم. فإذا دوَّى الرعد، قالوا صوت المشترى، أو هبَّت الأنواء وهاجت الأمواج، فسخط نبتون. على أن الشك الذي كان يخالج نفوسهم في مزاعمهم كان أدعى لخوفهم من تلك المزاعم نفسها.

والمتوحش يفسر الحركة بالحياة، فيعبد الحجارة والجبال والنار والماء؛ لزعمه أن هذه الجوامد تكتم ضغينة ضد بعض الناس لما فرط منهم. وفي جزيرة ڤنكوفر جبل يتحاشى السكان ذكر اسمه؛ خيفةً من أنهُ يغرقهم في قرار البحر إذا فعلوا.

والهمج لا يزال يعتقد في السحر والعرافة، وكذلك غير المهذَّب من بني الحضارة أيضًا. ففي عموم نواحي أستراليا وعند بعض القبائل البرازيلية، وفي بعض جهات إفريقية، يُعتبر الموت الطبيعي أمرًا

مستحيلًا. وفي جزائر هبريد الجديدة إذا مرض إنسان، عُرف أن ساحرًا ما يحرق متلفاته، فاجتمع ذووهُ ينفخون في أبواق صدفية تسمع لأميال، إشارة للسحرة أن يتوقفوا عن عملهم ريثما يؤتون بالتقدمات والهدايا.

والقبائل المتوحشة تخاف الصوَر والرسوم خوفًا شديدًا، فلا يرضى الواحد منهم أن يُرسم مطلقًا لزعمه أن واسمه يتسلط عليه ويصير ولي أمره. «وكاين» تخلص مرة من زمرة من الهنود تعلقت بأذياله بقوله: «أرسمكم إلَّا ما ذهبتم». وقد ذكرتُ في كتابي «أصل المدنية» الخطر الشديد الذي أحدق بكاتلين على أثر رسمه جهة واحدة من وجه أمير قبيلة؛ لظن قومه أنه سرق نصف وجه الأمير. والناس يتوهمون أيضًا أن هنالك علاقة عجيبة بين خصلة الشَّعر وبين صاحبها، والسحرة في أنحاء المعمورة المختلفة إذا تحصلوا على شعرات من رؤوس أعدائهم، أو على قلامات من أظافرهم، أو على بقايا من طعامهم، ظنوا أن كل ضرر يحدثونه بها يمس أصحابها لا محالة، بل حتى القطعة من ثوب وآثار القدم من طريق تستخدم لهذا القصد أحيانًا. وعند بعض القبائل مجرد معرفة الاسم يخوِّل المرء سلطة على صاحبه.

وهنود كولومبيا البريطانيا يحذرون شديد الحذر من ذكر أسمائهم والتصريح بها للجميع، فهم يُعرفون بألقابهم إلا عند الأهل والأقرباء والأعزاء من الأصدقاء. فاسم الفتاة التي اشتهرت بجمالها ولقبت *La Bella Sauvage* لم يكن *Pocahontas* بل *Matokes*، إلَّا أن عشيرتها أخفت اسمها الحقيقي عن الإنجليز. وحسبنا قال وارْد، تصريح الامرأة باسم زوجها يُعدّ جريمة لا تغتفر في بعض جهات الهند. وذكر أسماء

الموتى محظور لا يُتصدَّى له في كثير من أقطار المعمور كشمالي أميركا وجنوبيها وسيبيريا وأستراليا وشتلاندا. وفي شتلاندا تحذر الأرمل شديدًا من ذكر أزواجهنّ بشيءٍ. المتوحشون يرون ذواتهم أبدًا عرضة للممات بسبب من الأسباب التي تخفاهم. ولا غرو إن قلنا إن خوف المجهول أشبه بسحابة سوداء مكدّرة لكل صفاء. وعليه فالعذابات الفكرية التي يتحملونها والآلام الشديدة التي يقاسونها والذنوب التي يرتكبونها ليست إلا سويداء بالغة أقصاها.

والخوف من القوى الطبيعية لم ينحصر في المتوحشين وحدهم، «فالرومان مثلًا كانوا يشعرون بهزة خوف لدى كل مجهول يعرض لهم، فكانوا من أجل ذلك يدّعون وجود أشياء غير معقولة الوجود يعتبرونها بمقام الآلهة. أما اليونان فإنهم بعكس الرومان اجتلوا الغامض وفسروا المجهول، فابتدعوا تلك الخرافات والحكايا وضمنوها علائق الأحياء بالطبيعة»[1].

ويُقال إن اسم رومية الحقيقي كان «ڤالنسية»، إلَّا أنهُ لم يصرّح به خوفًا من سحرة الأعداء وعرَّافيهم. وڤالريوس سورانوس الذي باح بالسر حُكم عليه وأُعدم إعدام الخائن.

وحتى الآونة الأخيرة ظلت النجوم والسيارات تُعتبر ذوات تأثير عجيب وسيئ على البر لا قِبَل لهم بردِّه عن نفوسهم.

وفي الأجيال المتوسطة كانوا يعتبرون الإيذاء والإثار وتعمُّد الشر

(١) هايكل.

من صفات الأرواح، حتى الجميلات منهنَّ كزهرة تنهوصر التي كانت مجلبة للخطر بجمالها. أما الجبال والغابات والبحيرات والبحار، فكانت لهم مسكن الوحوش والجبابرة والغيلان والسحرة والشياطين. وهذه المخاوف مع أنها وهمية لا أكثر، كانت تؤثر على أفكار القوم كما لو كانت حقيقية تمامًا. ومن جملة الأوهام التي سادت على عقول الناس في العصور المظلمة اعتقادهم أنه إذا ذُوّب خاتم شمعي منقوش عليه اسم صاحبه أصبح هو أيضًا عرضة للهلاك. ولكن نور العلم الساطع اليوم قد بدَّد ظلمات الجهل وقضى على هذه الأوهام قضاءً مبرمًا.

ومع أن مناظر الجبال اليوم تستنفد إعجابنا وابتهاجنا، فقد كانت مصدر الرعب والخوف لأجدادنا السالفين. وليوناردو بروني يقول في سياق الكلام عن سياحته في أرلبرج: «رهبة بل خشية كانت تعتريني كلما نظرت إلى تلك الجبال الشامخة والصخور الشاهقة. وحتى الآن لا أزال أذكرها والخوف ملءُ نفسي». وغليك طلبة راهب من كنتربري قالها عندما عبر سانت برنارد ذاهبًا إلى رومية (سنة ١١٨٨): «ردّني اللهمَّ إلى ما بين إخواني فأوصيهم ألَّا يمرُّوا بهذا المكان فيذوقوا عذابي».

والقدماء قلَّ ما كانوا يعرفون قيمة المناظر الطبيعية إذا هم سلموا من خوفها، فالأزهار والأشجار والجبال لم تكن في أعينهم إلا أشياء مألوفة الوجود لا أكثر.

قيل أُخذت مدام دي ستايل إلى محل اسمه شاموني، وما كادت تصل، حتى قفلت راجعة وهي تتساءَل: «أي ذنب جنيتهُ في حياتي فجوزيتُ بزيارة هذه البلاد المخيفة!». ويُروى أنها قالت مرة لمحدّث:

«إنني لا أسوم نفسي مشقة فتح النافذة لأشرف على خليج نابولي، مع أني بكل سرور أسافر مسافة ١٥٠٠ ميل لأسرَّ بمحادثة رجل كبير ولو لم تسبق لي معرفتهُ».

ذكر نيكول الكاتب الفرنساوي في إحدى «مقالاته الأدبية» أنهُ ليس مَن ينشئ جنينة بقصد التمتع بمنظرها، فالناس ينشؤون الجنائن والحدائق لأجل المظهر والأبَّهة لا غير.

وكولد سميث فضَّل مناظر هولندا على مناظر اسكتلندا متذمرًا من كثرة الصخور والجبال في الأخيرة؛ لأنها تصد نظر المسافر وتقف في سبيل طرفهِ فلا يسرح.

والدكتور جونسون عدّ الطريق إلى إنجلترا أجمل منظر في اسكتلندا.

قال كلبن في مصنَّفه عن جبال كمبرلند وبحيراتها (١٧٨٨): «بالحق قيل عن بحيرة وندرمير إنها ذات الجمال في حضن الرهبة. أما الجبال التي تؤلم الطرف بقممها ورؤوسها المخالفة لجمال البساطة والعظمة، فإذا شُوهدت من بعيد فقدت تلك الضخامة والعيوب جميعًا، واكتست من الجمال ثوبًا قشيبًا لا يُعهد لها».

أما إذا أردنا أن نشعر بجمال الجبال الحقيقي، فلا يكفي أن نعجب بها إعجاب شاعر، بل يلزمنا أن نعرفها معرفة عالم أيضًا. وقد قال ثيوبالد: «لا نزال نجهل ماهية الجبال حتى يتجلّى لنا تركيبها الداخلي تجلّي البلور للعيان».

وكم من الناس مَن يغضون الطرف أو يغمضونه عوضًا عن أن يميلوا به ذات اليمين وذات اليسار فيعيشون ولهم أعين وكأنهم لا يبصرون. فمثلهم مثل «پيتر بَلّ»:

كم تمشي ما بين سهل وتل ومـــجـــارٍ وكـــم تـفـيـأ ظـلا
أي وادٍ مـا زارهُ أي كهف ما أتـاهُ عن أي غـاب تخلّى
سكن الحقل والطبيعة لكن حبها ما درى لجنبيهِ سُبُلا

ولا إخال تنسون قد أصاب كعادته إذ قال: «دامية هي براثن الطبيعة ومخالبها». وهل في الطبيعة كل هذا العذاب! إني لا أرى ذلك. والموت الفجائي الذي يدهم الحيوانات خصوصًا ليس فيه من العذاب ما في الداء العضال. وحب الحياة وخوف الموت يظهران كدليل قاطع على تساوي الكفتين من ميزان السعادة في الحياة. وإنا لنرتاع لوصف ميتة شنيعة من مثل القتل والشنق. إلَّا أن كل ميتة شنيعة بالحقيقة. ولكن الموت الفجائي وهو نصيب أغلب الحيوانات أخف آلامًا وأقل عذابًا. وإليك وصف لڤنستون لمعركة وقعت بينهُ وبين الأسد: «كنت على رأس تل صغير، وإذا بالأسد قد اعتلى كتفيَّ فانقلبنا معًا إلى أسفل، وأصبحت من حيرتي ودهشتي أشبه بالفأر وقد وقع بين مخالب الهرّ، فاستغرقت في حالة سبات وحلم وبت لا أشعر بألم ولا رعب مطلقًا، مع أني كنت واعيًا مشاهدًا لكل ما يجري بي. وبكلمة لم يجد الخوف إلى قلبي سبيلًا، فكنت أتفرس مفترسي من دون أدنى خوف أو ريبة. ولعل هذه هي حالة كل الفرائس التي تُنشب فيها الأظفار وتمزَّق إربًا».

وقد وصف همبر سقوطه من محل مرتفع، وقال: «كنت أعد تلك القفزات والطفرات الهوائية وأحسبها غير مزعجة ولا مؤلمة. على أنهُ لو طال بي المجال لكنت فقدت الشعور وودعت الحياة. فها أنذا الآن أعتقد أن الموت بسقطة من محل هائل الارتفاع من الميتات الأقل آلامًا من غيرها».

والموت غرقًا أيضًا من الميتات السهلة بالنسبة لغيرها، وهذا أقولهُ عن اختبار شخصي، فإني غرقت مرة وخبرت بالغرق[1].

والحيوانات لا تهتم ولا تضطرب بالًا على ما أرى، فقليلة هي عذاباتها في كلا الحياة والموت، والعلم ما أنبأنا بذلك، وبفضله قد بتنا نعرف قيمة الطبيعة وتتمتع بها. والعلم لم يقشع عن أفكارنا غيوم السحر والعرافة فقط، بل أنار قلوبنا بحب الطبيعة حبًّا نحسبهُ نعمة عظيمة.

(١) والمعرّب أيضًا غرق مرتين، فهو يؤيد المؤلف عن اختبار شخصي.

الفصل الثاني عشر

حب الطبيعة

كل مهم وضروري عادي الوجود- الولوع بجمع الحشرات والأزهار- المجموعة كمكتبة- مسائل الطبيعة- درس طبائع الحيوان- وصف رسكن للسنجاب. للحية. للأزهار- الجلد- الليل- كلمة في العلم- الطبيعة والجمال- الطبيعة والألوان- البحر- الأوراق في الخريف- أرضنا- يد الطبيعة والجمال- الطبيعة كصديق- الطبيعة والسلام.

حبذا لو كان الربيع لا يجيء إلَّا مرة في الزمان[1]، والشمس لا تشرق وتغيب إلَّا مرة في العام، وقوس قزح لا يظهر إلَّا يومًا كل مائة عام، أو لو ندرت الأزهار ندور الياقوت وقطرات الندى ندور الماس - إذَنْ لراعنا جمالها وأخذ منا الابتهاج كل مأخذ.

نراها كثيرًا ونأبه لها قليلًا، وهل يشينها أنها اعتيادية مألوفة أو أننا نُمنحها بلا مقابل؟ على أننا إذا رضنا أنفسنا على حب الجمال نزيد بها إعجابًا ولها حُبًّا. وقد لاحظ جوته أن الناس يحولون أنظارهم عن قوس قزح إذا دام أكثر من ربع ساعة، كأنهم يملون جماله. ولا خفاء أن المألوف من الأشياء أفضلها وأكثرها ضرورة:

ويـروقـه مـن كـل وادٍ زهـره نظرًا ويشجيه غناءُ نسيمه
وكـأنـه مـن شمسه وسمائها يختال في فردوسه ونعيمه

«ليس الجدير بالاهتمام في هذه الدنيا من الأمور غير الاعتيادية»[2].

وعجيبة هي الأزهار بألوانها وأشكالها، ولا بدع فالطبيعة هي اليد المتفننة التي صاغتها في قالب الجمال الفاتن للبصائر والأبصار.

وحتى أسماء الأزهار والنباتات تطرب السماع كما يروق منظرها النظر ورائحتها الشم. وألوانها الجميلة من بيضاء زاهية وحمراء

(١) الحياة.
(٢) سير والتر سكوت.

وردية وبنفسجية وبرتقالية تلذ للعين والأذن جميعًا. وعاشق الأغصان والأشجار إذا ضاق به الزمان ذكر تنسون وقوله:

أفعمت الغابات بالألحان وقعها الطائر في الأفنان
وكل ما سمعتهُ أشجاني وما رأيت راق للعيان
دخلتها والهم في وجداني فلم يعد للهم من مكان

زعم شيشرون أن الإنسان لا يستطيع أن يشعر بجمال الجبال إلَّا إذا كانت في وطنه فأحبها من أجله، أو إذا ألفها نظرهُ بعد ما جاورها مدة من الزمن. وأما نظر تنسون فأقرب إلى الحقيقة؛ لأنه عشق جبالًا خارج بلاده، وقال في أحدها وهو «مونتا روزا»:

لله واديه ووارف ظله ولجين ثلج قد كسا أطرافه
وأشعة ذهبية تُلقى على فضّيهِ... أعرفتمُ أوصافه؟

والكاتب الشهير روسكن كثيرًا ما يتغزَّل بجمال الطبيعة بمثل قوله: «هنالك كهف لا تضيرهُ السيول ولا الأمطار، وهنا جبل لم يَحْنِ رأسه لصاعقة ولا لعاصفة». وحكيم هو القائل: «لنرفع بصرنا إلى الجبال من حيث يأتينا العون». والحق يقال إننا مدينون للشعراء بمثل ديننا للعلماء؛ لأنهم يعلموننا حب الطبيعة وعشق جمالها. «والجبال تجود على الجداول بمائها وعلى الجو بنقي هوائها، ولها دون هاتين منافع أعظم وأسمى؛ فإنها تروي غلة المشتاق لرؤيا صنعة يد الله، وتفعم القلب والنفس ابتهاجًا وإعجابًا ووقارًا. وهي المباني الفخيمة الشاهقة، تأوي إليها من الزوبعة فترحب بك، وتلتجئ إلى ظلال أشجارها فتؤهل وتهلل وتسمعك حفيفًا لطيفًا وتحتفي بك ضيفًا. وإذا جلت بنظرك

يمنة ويسرة ألفيتها مزدانة بالنقوش والرسوم وما هي إلَّا الأزهار كست أطرافها بساطًا سندسيًّا وتركت منظرها فاتنًا سحريًّا»[١].

وما قولنا في السماء؟ وحسبنا اسمها جمالًا. ومليكة النهار إذا ارتفعت بموكبها الوهَّاج بهرت أبصارنا وأخجلت نواظرنا. وحسبنا ما نشاهد من جمالها قبلما تطفر من أحشاء الظلام غزالة، وبعد ما تنقلب من سمتها إلى أفقها جونةً، وقد سقتنا من لعابها الذهبي راحًا تُسكر النفوس. أما إذا غابت وغرقت في البحر أو ضلّت في غابة علمنا إذ ذاك أنها هي التي تخفي عنا ملكات أخوات لها في السناء يتحجبن في النهار ويسفرنَ في المساء.

وإذا ما الظلام أرخى سدولهْ ... برَز البدر والكواكب حوله
وانبرى كالخطيب يخبر هذي الـ ... أرض تاريخها ويحصي حؤوله
والدراري والزهر تصغي حيارى ... وبعرض الأفلاك تنشر قوله[٢]

وكأن الليل معهد السلام والراحة:

ألا فاجلسنْ قربي على ضفة النهر ... وقد أصبحت مهدًا لأنوار ذا البدرِ
وهذا خرير الماء تلحين مُرضعٍ ... حنونٍ تغني من شعور ومن شعر
وهذا سكون الليل حبًّا ببدرهِ ... سكون به نام الحبيب بلا ذعر[٣]

قال سانت بسيل: «وإذا كنت تقف بالسماء مرة وتجيل طرفك في تلك القبة الزرقاء وفي ما يزينها من درر النجوم وأزهار الدراري

(١) رسكن.
(٢) إدسون.
(٣) شكسبير.

ومواكب الكواكب وسناء السيارات وبهاء الثوابت، ثم تفكر برافع تلك القبة ومبتدع حليّها وناظم نظامها - قلت إذا كان هذا جمال العالم المادّي الزائل فكيف بجمال عالم الخلود!!»، وقد قيل إن السماء تظهر مجد الله وعظمته لا حنانه ورأفته. ولكنني لا أوافق على ذلك، فإنها تظهر كليهما جميعًا. «يأمر (الخالق) نسيم الصباح فيمد البساط الزمرّدي، والسحاب فتسقي أطفال النبات في مهدها. ويلبس الأشجار من الأوراق ثوبًا قشيبًا، ويكلل الأغصان في فصل الربيع بتيجان الأثمار. وبحكمته وقدرته تحوّل النحلة عصير الأزهار إلى قطر الشهد، وتبزغ النخلة من النواة وتنمو شجرة باسقة[1].

قضت عجبي تلك المناظر إنما

تساءَلت هل هذي هي الكون وحدهـــا

فأدركت أني لا أرى غير ما بدا

وكم خافيـــات لا ترى لنعدَّهـــــا

أما وردسورث فلم يُجِد كعادته إذ قال:

دعِ العلمَ خل الكتب عنك فما عسى

تضم من الأكوان في صفحاتهـا

وقف بي بقلب لا يضيق إذا حُبـــي

بأنعـــام دنيانا وجـلِّ هِباتهـا

(١) سعدي.

ولكان أجمل به لو أتى أرباب الفنون ورجال العلوم من غير هذا الباب ورماهم عن غير هذا القوس، فإننا لا نزال في شديد الحاجة إلى مواصلة البحث والتنقيب توصلًا معرفة المحيط الذي نعيش فيه. «وما الأرض بالنسبة إلى الكون إلَّا بمقام المحراب من الهيكل»[1]. وما نحن إلا على الأعتاب من أبواب الاكتشافات، وكم علينا من مشقات بعد في سبيل معرفة الطبيعة قبلما نستطلع أسرارها. وأي حيوان أم أي نبات نحسب درس طبائعه لساعة من الزمن مما لا طائل تحته؟ وإنه ليحزنني جدًّا أن أرى أبناء وطني تائهين عن مورد عذب للسعادة لا يقصده إلا الراغب في البحث والعلم- ولكنهم لا يعلمون.

نقول إن الإنسان خُلق للأحزان والآلام، ولكنهُ لم يُخلق للخمول والقنوط. ومَن أحب العلم، فقد نجا من شرّ هاتين الآفتين. ومَن لم ينجُ، فلومه على نفسه. فكل حقل وكل غابة وكل حديقة وكل جدول، بل وكل حوض يسرّ ذا البصر ويسرّي عن نفسه. ولو عرف الناس لذة الجلوس في البرية وإطراق الرأس بالتأمل والتفكير، لما كانوا يُولعون بالتردد إلى الحانات حيث تضيع أوقاتهم وعقولهم معًا، ولو دروا ما هي الرغبة في العلم وما غرامه لما كانوا يعمدون إلى المقامرة والمراهنة تهييجًا لعواطفهم ونجاةً من خمودها. والعلم لم يخرب أحدًا ولا أهلك أحدًا. وما أرفقه بمحبه وأكرمه عليه. وترى في أخبار الجن أن بعض الأرواح تعشق إنسيًّا وتغمره بهداياها وعطاياها. والطبيعة مستعدة

(١) لا مارتين.

وبكرمٍ فائق تعامل عشاقها. وفضلًا عن كونها معدن الجمال ونبعه، أنها مهبط الوحي والإلهام. وقد قيل إن بوذا طلب الحق فاعتزل البشر وخلا بالطبيعة وتوسل إليها أن تساعده في شأنه.

ولا حرج إن قلنا إن رُوسكن أحب الجمال حتى كاد يعبده. ولا ريب أن كتاباته لم تُعدم تأثيرًا على أفكار قارئيها، فعلمتهم كيف يُعرَف الجمال وكيف يُحبّ. وهو يشدّد النكير على شِلّر لزعمه أن الجمال لا يؤثر على النفس تأثيرًا يحملها على القيام بالواجب ويقول: «لا يسع المؤمن وقد خلا فكره من كل اضطراب أن يمرّ بزهرة أو غصن أو حجر و يسمع صوتًا ما إلّا أن يستمد من الطبيعة قوة ورجاءً».

والطبيعة تُفعم القلب فرحًا وابتهاجًا والنفس عجبًا وعرفانًا. وقد نختلف آراء ومذاهب في العلميات والدينيات، ولكننا أبدًا مجمعون متفقون على بهجة الربيع وبهاء الصيف. والربيع إذا عاد جاءنا بنسمات حياة جديدة.

وإذا الربيع أتـى ونـوّر زهره رقصت قلوب العالمين حبورا

ولكن وا أسفاه كم من الناس مَن يعيشون فوق ظهر الأرض ويقبرون في جوفها، كأنهم لم يروا شيئًا منها ولا عاشوا فيها.

وكأني بتشارلس لامب لم يقصد بقوله التالي أن يؤخذ مأخذ الجدّ: «ولا يظنّ ابن لندن أن الصحة والراحة والعمل الذي لا غبار عليه، ومجاذبة أطراف الحديث، والانعكاف على المطالعة المسلية- تزيد العيش في القرية طيبًا وحلاوة، فما هي إلا لتسلبه طيبه وحلاوته والجنة بقيت سجنًا وحبسًا حتى أخطأ ساكنها وخرج منها».

أما كيتس فقد ألهم حكمة إذ قال:

ومَن طال في قلب المدائن مكثهُ وقوّس منهُ الهم صدرًا وأضلعا
فأخلق به أن يرفع العين للسما ويجثو لتعظيم الفضاء ويضرعا
فللقبة الـزرقـاء وجـه إذا بدا تبسمـه راق النواظر مطلعـــا

ولكن ويح الإنسان! فكم حوائل تفصل بينه وبين الطبيعة والحقيقة. اعتبر ذلك بطبقات العين والأعصاب والدماغ والهواء والغبار والمطر، وبحالة المرء الصحية من انتظام هضم ودورة دموية. وبكلمة، كم تحول حالات عقلنا وجسمنا ما بين النفس والطبيعة.

وبقدر ما ندرس الطبيعة يزيد تلذذنا بها وتكثر معرفتنا عن كمال عالمنا هذا وعجيب نظامه. وإنا لنعجب من الفيلسوف روسو أن يقول: «لا جميل إلَّا غير الموجود»؛ لأن الحقيقة عكس ما يزعم. وصحيح أن بعض الأشياء أجمل من بعض، ولكن الطبيعة كلها جميلة، وهو الإنسان من يترك جميلها قبيحًا بمحاولته تقليدها، وأنى له أن يضاهيها؟!

وغالبًا ما تكون الأفكار والتأملات التي تقوم بنا لدى مشاهدة بعض الأشياء أجمل من تلك الأشياء نفسها. والكون بأسره يزيد لنا جمالًا بقدر ما نعمل الفكرة ونطيل التأمل في أحواله. وقد قال مارتينو: «لا عالم أقدس من عالمنا أو أقرب منه ليد الباري تعالى. وأنّى لعالمٍ آخر أن يحتوي على ما في عالمنا هذا من أسرارٍ عميقة نتهيبها ونوقرها، وعواطف وشعائر تحملنا على معرفة الحقوق والواجبات». وقال الإمبراطور آكبر: «ما أعظم البساط الذي مدّتهُ يد المكوّن العظيم، وما أجمل الألوان التي وُشِّيَ وطُرِّز بها» وقال جوبرت: «كأني بالسنة وفصولها الأربعة إكليل

يُضفر من الأزهار والأشواك والأثمار والأعشاب اليابسة».

وكثيرًا ما يؤاخذ المصورون والرسامون على محاولتهم مضاهاة الطبيعة بتكثير الألوان الزاهية البرّاقة. والطبيعة هي أم الجمال. وهي أحذق ما يكون في انتقاء الألوان وتنسيقها، بحيث تجيء متناسبة وآية في الجمال.

كتبت مرة مدام دي سڤيني إلى ابنتها تفيدها أنها قد قصدت القرية لتودع الأوراق التي يأزف فراقها إذا ولّى الصيف وحل الخريف- ومن جملة قولها: «لا تزال الأوراق كاسية لأغصانها، إنما قد تغيرت ألوانها، فقد مالت إلى الاصفرار بعد ذلك الاخضرار، وصارت أشبه بالنضار، أو بالشمس المختلفة الأنوار بين شروق وغروب». إلى أن تقول: «ويا عزيزتي كم يغلب أن نمر بمثل هذه المناظر كأننا عميٌ أو بلا نواظر، فلا ننتبه لها، أو إذا انتبهنا ما تأملناها لنفقه مغزاها. إن الطبيعة تكلمنا وتريد أن تعلمنا ولا نفتأ من جهلنا نحسب الجميل قبيحًا والقبيح جميلًا والخير شرًّا والشر خيرًا».

وإن لكل من الفصول الأربعة ولكل ساعة من الأربع وعشرين جمالًا مستقلًّا. ولكن هذا لا يمنع من حدوث ما يميز ظرف زمانٍ عن آخر، ويبنيهُ أبدًا على الرفع في نفوسنا. ورب ساعة يحسبها عائشها هدية من السماء يُتحف بها.

ساعةٌ خلتها أتتني كوحي هابط مُنزلٍ بهذا الفضاء
أقشعت شمسُ أنسها غيم همي فكأني بها سناءُ السماء[1]

(١) شلي- السماء هنا الفردوس.

والأولاد غالبًا ما يفطرون على حب الطبيعة وتاريخها، فتراهم لذلك يُولعون باصطياد الحشرات وضم الأزهار. وحاشا لي أن أنكر عليهم هذا الولوع، فإن المجموعة أشبه بالمكتبة، يتردد إليها صاحبها ويتعهدها بالدرس والملاحظة. زد على ذلك أن زيارة المتاحف العمومية مباحة للجميع، فيمكننا أن نغتنم الفرص ونزورها بقصد درس الطبيعة وخلائقها.

يسر الصغار بل والكبار أيضًا بشراء تلك الألغاز والأحاجيّ من الحوانيت ويلتذون بحلها ويتسلون بتداولها. فليت شعري! كم تعرض الطبيعة علينا من ألغاز وأحاجيٍّ ولا تطلب منا بارةً قط.

وما قولك في أمثال الأواتي[1]:

لماذا الجبال في القطر الشامي أكثر منها في المصري؟

لماذا لا يتحول النيل عن مجراه؟ ولماذا يفيض في أوان؟

لماذا تكسو الثلوج قمة صنّين؟!

كم عمر النيل؟ ترعة السويس؟

لماذا يكون شكل ورقة العنب غير شكل ورقة الموز؟

لماذا ينام بعض الزهر ليلًا وبعضه نهارًا؟

لماذا يغلب أن تكون الأزهار الضارب بياضها إلى الصفرة طيبة النشر زكية الرائحة؟

---

(١) تصرفت في تعريب الأسئلة الجغرافية توخيًا لفائدة المطالع السوري والمصري. المعرب.

لماذا تختلف الحيوانات لونًا؟ فالنمر مقلمٌ والفهد أرقط، والأسد أسمر، والنعجة غبراء، والدودة خضراء... إلخ. إلخ.

ألوف كهذه الأسئلة تقوم في نفس ذي البصر والبصيرة، فيجيب على بعضها، و البعض يبقى سؤالًا مجهول الجواب.

وكثيرون من الناس يقتنون المدللات من كلب أو هرّ يربونهُ ويعتنون به، غير أنهم لا يدرسونهُ... أي لا يلاحظونه ملاحظة العالم الباحث. والعالم الفرنساوي ديكارت ذهب إلى أن العجماوات آلات تشتغل لذاتها، وهكسلي لم يظهر إلَّا الشك في الأمر. أما أنا فاختباراتي وملاحظاتي أدَّت بي إلى الاعتقاد أن للحيوان مسكة من الفهم والعقل، وكم قيل لي إن الكلاب تدرك وتعقل كبعض الناس، ولكن إذا سألت القائل: (هل يعرف الكلب أن ٢ و ٢ = أربعة) كان جوابه مشكوكًا في صحته. وهل يسرُّ الكلب أو الفيل برؤيا الجميل والظريف أم لا؟ الأمر مبهم والبحث لازم.

وإذا عدنا للأزهار والنباتات، فكم من مسألة تطرحها الحقول علينا؟ خذ البذور التي تُزرع فتبزغ نباتًا وشجرًا، ثم خذ الأثمار التي تزين الغصون، وقابل بين حجم البذرة والبذرة وشكلهما وبين شكل الزهرة والثمرة ولونهما وجرّب أن تعرف لكل اختلاف سببه، إذ لا سبب من دون مسبب. وهاك كلمة روسكن في الأوراق: «غريبة هي أشكال الأوراق التي تتزيا بها الأغصان، فمن ورقة أشبه بنجمة، وأخرى بقلب، وأخرى بحربة، وأخرى بسهم، وأخرى بسيف. ننظر أيها فتعجبنا وتروقنا وتقوم فينا التخيلات المختلفة. فمن ورد ورد نحسبه رمزًا للمحبة وزنبق نشير به إلى الطهارة والعفاف إلى غير ذلك. فهلمَّ إلى الطبيعة ندرسها!».

كل نهر وكل حقل وكل واد وكل تل يلقي علينا مسائله. فأَحْرِ بعقولنا أن تشتغل بحلها وبنفوسنا وقلوبنا أن تبتهج معجبة بتلك المناظر التي تلقيها، بل توحيها.

وكم من حيوان نظل لا نعرف لهُ شأنًا حتى يقوم كاتب كرسكن يصفهُ لنا بمثل ما وصف به السنجاب[1]- قال: «لا أجمل منهُ منظرًا، أو أسعد عيشة أو أعجب أمرًا. عفيف نزيه في أمور معيشته وطعامه. لعوب كالهر، إلَّا أنه لا يؤذي. خفيف الحركة كالسعدان، إلَّا أنه رشيقها كالعصفور، كأنهُ بعينه السوداء البرَّاقة سهمٌ من سهام الشمس يخرق الخميلة تنقلًا بين أفنانها. يقفز ويطفر كيف يشاء وأين منه الأيّل والظباء. لطيف الملمس جنيٌّ الجمال يسحرك بحركاته. يسمعك ويصغي لك، ثم يختفي ويختبئ عنك، ويعود يفتش ليجدك. ويحبك ويحب أولادك حتى كأنما الملاك الرفيق الحارس لأولادك أهداهُ إليهم لعبة سماوية».

وهاك وصفهُ للحية: «ذلك الجدول الفضي الأملس- أفكرت في جريه وسعيه؟ الحية لا تمشي بل تسعى وتجري. كأنها الزورق في البحر، إلَّا أن التراب ماؤها وقشرها مجذافها ورأسها دفتها. بل هي النهر ينساب في السهل انسيابًا. تتموج ولا ريح تتلاعب بأمواجها. تجري ولا شلال يقطع مجراها. كل جسمها يتحرَّك معًا - إلَّا أن بعضهُ ذات اليمين وذات اليسار وقسم منه للأمام والآخر إلى الوراء. تمرّ بك ولا تُسمعك صوتًا، وتفوتك وتترك لك أثرًا فحواهُ:

(إن آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار)

(١) القرقذان في عرف العامة.

فاجئها بصرخة وإذا بالجدول المنساب قد استحال سهمًا مسدَّدًا وموجة السم استقامت رمحًا مقوَّمًا يخترق الأعشاب وينفذ منها ولا طعنة الفارس من صدر العدوّ. لها رئة ولا تكاد تتنشق الهواء أو تتنفس الصعداء. سواء عندها الشمس والظل، فهي باردة حارة، جامدة، إلا أنها تتسلق ولا القرد، وتسبح ولا السمكة وتثب ولا الغزال، وتصارع وأين منها ابن حواء وتسحق وأين منها النمر. هي قوة شيطانية مجسمة على الأرض. وكما أن العصفور هو قوة الهواء مكسية ريشًا، فكذلك الحية أنها قوة التراب لابسة مسوحًا وجلدًا. وكما أن العصفور هو رمز للروح والحياة، فالحية رمز لقضاء الموت على الحياة وقبضته على الروح».

الطبيعة إلهية للحكيم الصالح. ولكن لا نفهمها إلَّا إذا أحببناها وأشعرنا أنا وإياها واحد. وكم يلهج الناس بذكر غير الطبيعي. وعندي أن الطبيعي حسبنا، وأن أغلب ما يسمونه غير طبيعي ليس إلَّا طبيعيًّا محضًا أو مما لا وجود له؛ إذ كل موجود جزء من هذه الطبيعة. وهي غير محدودة ولا تدرك غاياتها. وكل اكتشاف جديد يفتح لنا بابًا للعجب جديدًا. ولا نحل مشكلة حتى نعالج أخرى. فالمجهر والمقرب يخلقان لنا عوالم لم نكن نعرفها من ذي قبل. وقد توصلنا بواسطة السبكتروسكوب (محلل الطّيف) إلى حل مسائل كان يحسبها العالم كونت فوق مدارك البشر.

والعلماء والمكتشفون حتمًا يشعرون بالسعادة التامة، اللهمَّ إن لم يكن لهم من أحوالهم الشخصية علةٌ للشقاء.

ظنَّ القدماء أن أرضنا هي درة الكون الفريدة، وحسبوها مركز

العالم بأسره. أما نحن فنعلم أنها ليست إلَّا سيارًا صغيرًا يدور حول كوكب صغير هو واحد من ملايين الأجرام السماوية لا أكثر. ولكن مع حقارة شأنها بالنسبة لسواها، فكم فيها من أسرار لم نستطلعها ومشاكل لم نحلها. ولله الجمال الذي يزينها. وقد يصدق قول روسو: «إن للعالم الحقيقي حدودًا، أما الوهمي الخيالي فلا حدود له». ولكن حدود الكون -إذا كان ثمة حدود- بعيدة عنا بعدًا يصح منه اعتبارها كغير موجودة. والحق ليست أرضنا وحدها غير محدودة على صغرها، فحتى أجزاؤها الدقيقة ودقائق تلك الأجزاء وجواهرها لا تعرف حدًّا ولا نهاية. وعجيبة هي حواسنا، غير أننا على حدّة أبصارنا أشبه بالزّحافات العائشة في ظلمات المغائر والكهوف؛ لأننا لا نرى جميع ما حولنا من كل عجيب وجميل.

ولعلنا نتوهم أن كل إنسان يشعر بجمال الجميل إذا رآه، فما هو إلَّا توهم نود لو كان حقيقةً. فما أكثر العمي والصمَّ بين الواقفين في هيكل الطبيعة. وكم من مبكرٍ لا يحفل لشروق الشمس وجمال الشفق، ومن عائد إلى منزله مساء لا يودع الشمس الغائبة بنظرة إعجاب وحب لجمالها. وكودون سميث أنكر أن الزنبقة في الحقل آنق من لبس الملك سليمان في قصره.

عاش أحد الكُتَّاب[1] مائة سنة ونيفًا وعُزي تعميره إلى الاعتدال في المعيشة. ومن جملة أقواله: «إن لي حياتين أرضية أملكها وسماوية أحلم بها». ولكنه يعترف لنا قائلًا: «لم أعلم حتى شخت أن دنيانا بالحق

(١) لويس كورنارو.

جميلة». وحتى اليونان مع سلامة ذوقهم قلما كانوا يحفلون بجمال «الطبيعة». على أنه إذا استحال على أيٍّ منا أن يتحقق معظم الجمال والعجب في دنيانا، وإذا تسنى لفئة قليلة من مجموعنا أن يشعروا شعورًا خفيفًا ببعض ذلك... فكثيرون منا يرفعون بصرهم نحو السماء ويسرحونه في صفاء الفضاء ونجومه وكواكبه، أو يصوّبونه في البحار ويصعدونه في الجبال، فلا تلبث همومهم أن تزول زوالًا وتضمحل اضمحلالًا. وحالكة هي الظلمة التي لا تُنار، وشديد الألم الذي لا يخفُّ حتى في يوم راق جوّه ورق هواؤه!

وعجيب أن يكون لإنسان عينان في رأسه ويستسلم لليأس والقنوط فيخمل ويتبلد!

والطبيعة فائقة الجمال حيث تركت وشأنها ولم تمسها يد الإنسان بترتيب ولا تخريب. ومن أرق الرسائل التي كتبها صديقي و. ر. كرك ما جاء بعنوان «جمال الخرابات والبقايا». وليس المتخرب المندثر جميلًا في ذاته، بل هي الطبيعة ويدها اللطيفة التي تزيّن وتحلّي حتى المزيَّن الحالي مما صنعتهُ يد الإنسان.

وجمال الطبيعة لا يفنى ولا يزول. «انزع عن الطبيعة جمالًا واسلبها آخر، واخلع عنها زينة بعد زينة وحليّة بعد حلية... تظلّ كأنك لم تنقصها شيئًا. فقد تجرحها إذا فعلت ذلك، وتخدّش جسمها، لكنهُ يظل جميل الكيان، ولا تلبث الجراح أن تبرأ بما تذرّ عليها روح الجمال من البلسم الشافي»[1].

---

(١) ورد سورث.

وما قولنا في مَن يملأ بيتهُ رسومًا وصورًا من صنع أشهر المصورين والرّسامين، إلَّا أنه يعيش بينها ولا يرفع بصره إليها! أو في مَن جمع في مكتبته أهم الكتب لأعظم المؤلفين، ولكنه لا ينعكف على مطالعتها؟! وها الطبيعة فاتحةٌ أبوابها ترحب وتؤهل بنا، بل تدعونا إليها.. وأين صنعة الإنسان من خلقها؟ فلماذا لا نعيرها حظها من الاهتمام؟

قال هكسلي: «يمرّ الأميّ بالحقول والهضاب والسهول ومثلهُ مَثل المارّ في متحف تسعة أعشار صوره وتماثيله مقلوبة لجهة الحائط. وإذا علمت ذلك الأميّ فكأنك قد جعلت بين يديه برنامجًا يتصفحه ويقلبه مسرورًا ملتذًّا. ومسراتنا الشريفة أقلّ من أن نحتقر معها هذا الأمر نبعًا للمسرة مَعينًا».

حُكِي أن ستايسكورس أعدم البصر وحرمهُ؛ لأنه لم يحفل بجمال الطبيعة. وكثير من الناس لهم أعينهم ولكنهم لا ينتفعون بها. لهم أعين ولا يبصرون.

والعلماء يقدرون درس الطبيعة قدره الحقيقي، ويعلمون مقدار ما زاد ويزيد في سعادة الحياة. وكلنا يحب بلاده؛ لأنها وطنه، إنما يجب أن نحبها لمجرد كونها بلادًا؛ لأنها موضوع عقولنا كما هي موضوع شعائرنا. ومن أبهج أسرار الطبيعة ذلك السر العظيم، سر الوجود. والمادة ليست شيئًا بل حركة بالأحرى. «المادة مظهر لا غير»[1]، وكل حجر مسألة، بل مسائل وكل زهرة عجب، وكل حيوان عجيبة، والإنسان مسألة المسائل وعجيبة العجائب؛ فقليل ما نعرف عن الجسم، وأقل

(١) جوبرت.

ما نعلم عن العقل، ويا لقلة ما نعرف عن علاقة الاثنين وما نحن إلا اتحادهما.

ودرس الطبيعة مجلبة لسلام القلب الذي تقلقه عواصف الأيام وضيقاتها، وتزعجه حروب القوم وتحزّباتهم. وقد ذكر توماس أكمبس أنهُ بحث عن السلام في كل مكان فلم يجده إلَّا في زاوية يختلي بها وكتيّب يقرأ فيه. ولكنهُ لم يجرب درس الطبيعة وقراءة أسفارها.

قال جوته: «الطبيعة أدخلتني هذه الدنيا، والطبيعة تخرجني منها. إني مسلّم لها بجميع أموري. ولها عليَّ مطلق التصرُّف. على أنها لا تبغض صنيعتها. ولم أقل عنها شيئًا. وكل صدقٍ وكل باطل هي تقوله لنفسها وهي في غنًى عني. وكل ذنب ذنبها وكل فضل فضلها».

الكتب والموسيقى والآداب، شعريها ونثريها، تسرنا وتلذّ لنا ولا سبيل إلى إنكار ذلك. أما عشاق الطبيعة فهذا لسان حالهم:

من الطبيعة أين النَّايُ والعود وأين كتبٌ وما في الكتب موجود

ولا ننسى أن التعمق في العلم يُسلينا الهموم والأحزان ويحول أفكارنا عن المصائب والمزعجات. فمن يتأمل الأجيال والعصور المشار إليها في علم طبقات الأرض، ويحدق في دقائق المرئيات التي يظهرها لنا المجهر، ويرسل الطرف في الأبعاد التي يدنيها المقرب، فكأنه يتجرد من همومه وشواغله ويرى نفسه في دنيا غير دنياه.

إننا لا نرى إلا القليل ولا نعرف إلَّا الزهيد، فلا يمكننا أن نتصور العالم تمامًا، ولكن قليل ما نعرف ونرى يقنعنا بأن الكون عظيم عجيب!!

قال سينكا: «لا يستطيع الإنسان أن يرفع بصره نحو السماء، ويشاهد ملايين الأنوار المتألقة فيها ويراقب دورانها وتسيارها، ولا يأخذ منه العجب والرهبة والوقار كل مأخذ». ودرس النجوم لا يفيدنا من حيث الهداية في عرض البحار فقط، بل إنه يُنير ظلمة تلك الساعات التي يُبلى بها كل إنسان. ودرس الطبيعة لا يفيدنا من وجهة عملية مادية فقط، بل إنهُ يساعدنا على الترفُّع عن طفيفات الأمور وصغائرها، وعلى احتمال عظائم المصائب التي تحل بنا.

عالم شغل وحركة وجمال وسرور ولذة ووعود، هو العالم الذي نعيش فيه. وهنالك في اللا نهاية عالم متسع النطاق، هادئٌ لا نسمع له حركة، مملكة خيالية[1] مخيفة مملوءة أسرارًا، ولا نعرف لها حدودًا، إنما بقدر ما نعمل الفكر ونحرك سواكنه، وحرص على طهارة القلب أن تُدنس، وعلى سعادة البيت أن تفقد صفتيها اللازمتين وهما الثقة المتبادلة والمحبة المتبادلة بين أفراده - بقدر ذلك نأمن تخوُّف سرّ الوجود الهائل، ونعيش في ظلِّ الطمأنينة والسلام.

(١) الخيال هنا: الظل.

الفصل الثالث عشر

الوقت

أهمية الحاضر - المستقبل مجهول- الحياة قصيرة- الجميع سواء باعتبار الوقت- الاقتصاد في الوقت- أقوال لموسى وداود وبايكون- حكم قيلت في الوقت وقصر الحياة- الوقت سهل الإضاعة وصعب الوجود- الشباب والمشيب- ليس لنا إلا يومنا- الوقت لا يثمن ولا يعاكس.

«لا تفتخر بالغد؛ لأنك لا تعلم ماذا يلده يوم»[1].

إنما الأيـــام بحر فوقه مركب الإنسان ميناه قَصدْ
إن تسالمــه تـناوئـه غـدًا وكـذاك البحر في جزر ومد
فـإذا مـا سالمت فاغنم بها فرصة الـمـدِّ التي لما تعد
ولـكـم مـن غـافـل عـن أمـره فاتهُ المدّ وللقعر ركـد[2]

ماضيك قد مضى، وآتيك قد لا يأتي، فما لك إلا حاضرك.

ولله در توماس أكمبس القائل:

الـــيـــوم يـــومـــك قـم لـلـفـعـل مـــدّ الـيـدا
الـــيـــوم يـــوم الـوغـى فـلـم تـهـابُ الـــرَّدى
قـــم أحـــســـنَّ الـبـلا وارغـــم أنـــوف الـعـدى
أمـــسـتـعـدٌّ تُـــــرى أم تـسـتـعـدُّ الـغـدا

والغد قد لا يأتي وأنت حيٌّ ترزق، فعبثًا تنتظر قدومه.

ولا تعش عيشة المعتقد أنهُ معمّرٌ ألفًا من السنين؛ إذ لا أضر من الإهمال. واعلم أن ما ابتدأتهُ في يومك فقد أنجزت نصفه، وأن ما أجّلته لغدك ستزيد صعوبته عن ذي قبل. واذكر:

يا أيها المغترُّ في عهد الصبا فتظنهُ عهدًا يطول مدى الدهورْ
احسب حسابك لا تقل إني من الـ أيام عندي ذلك الإرث الكبيرْ

(١) أمثال سليمان.
(٢) شكسبير.

واحرص على الساعات واصرفها كما　　لو كنت ذاك المعدم العاني الفقيرْ
واعرف ليومك قدره أو إن تكن　　لـلآن تجهله تخبرك القبورْ
فهي التي في جوفها الشيخ الكبير　　وقربه ذاك الفتى الحدث الصغير

وحتى أيام متوشالح لم تسلم من الانصراف على طولها.

«إنْ نحن إلا ظل وتراب. وأنّى لك أن تعرف ما إذا كانت الأرباب من عرشها تضيف غدك إلى أمسك أم لا»[1].

«اغتنم الفرصة إذا سنحت» هذا كان شعار پيتاكس ونصيحته، بل السبب الذي من أجله عُدَّ بين حكماء اليونان السبعة.

إن الشرار قد تُداس بأخمصٍ　　في البدء لا تخشى برجل توطأُ
لكن إذا تركت تفاقم شرها　　وأدر عليها النهر ليست تطفأ[2]

أو كمثلنا السائر «قطبة واحدة في حينها تغني عن تسع بعد حين».

الاقتصاد في الوقت مهم كالاقتصاد في ذات اليد، بل أهم جدًّا. والكتاب يحرّض عليه مرة وأخرى: «إحصاء أيامنا هكذا علمنا فنؤتى قلب حكمة». «علمني يا رب نهايتي ومقدار أيامي كم هي؛ فأعلم كيف أنا زائل».

وكم لنا من الأمثال المحرضة على اغتنام الوقت والمحذّرة من التأجيل والإهمال، ومنها:

(واضـــرب حـديـدًا حاميًا　　لا نـفـع مـنـه إن بـــرَد)

---

(١) هوراس.
(٢) شكسبير.

وكم لنا من الحكم القائلة بوجوب تعبئة الوقت اجتهادًا وعملًا وفعل غاية ما يستطاع في ساعاته ودقائقه. على أن بعضها لا يخلو من رنة حزن يشق وقعها على النفس، كقوله[1]:

مثل زاهي الأزهار وسط الحقول نجتنيها فتلتوي بذبول
هكذا يا فتى أويقات أنس إن تأتت تـزول عما قليل
أو كثلجٍ غشّى صحيفة نهرٍ بسناه فصار بعض المسيل

وكقول أحدهم[2]:

هـل حياتي إلَّا نـهـارٌ وليل وكثير الأيـام عندي قليل
بعض حب وبعض بغض إذا ما جئت هذين «عم صباحًا» أقول
ثم في الليل بعد رؤيا الأماني «عم مساءً» في القبر آن الدخول

* * *

لا شك أن الحياة قصيرة جدًّا، وأسفار التوراة أولها «التكوين» وتاليه «الخروج». وهل هذا إلا سبب وعلة لوجوب قدر الأيام حق قدرها وسلب الأوقات من مخالب الآفات؟

وحقيقةً:

ما ترى يجدي سرور قد مضى أو سرور في يد المستقبل
ليس لي هذا ولا ذاك ولـ ـكنما الحاضر ملكي وهو لي
إن تكن تعقل فاسهر ساعة أنت فيها لا تنم لا تغفل[3]

(١) بارنس:
(٢) مقطوعة إفرنسية.
(٣) بندار.

ورجال الدين من الإنكليكان يبالغون في هذه الحقيقة كل المبالغة. وهاك ما قاله جرمي تايلر: «تنعم ببركات يومك إذا حظيت بها. وهل أنت إلا ميت لأمسك وجنين لغدك. فمن يتمتع بحاضره اللهمَّ إن كان فيه ما يتمتع به، فقد نال كل ما يمكن أن يُنال، وإذا ابتلي بيوم كثرت همومه وأتعابه، فإن هو إلا يوم واحد ينقضي».

وقال الأسقف فولّلر: «ولئن توفي شاب وهو في شرخ الشباب وريعانه، فهل كانت الحياة بعدد الأيام الطوال أم بحسن الأعمال؟ ومَن صرف حياته في غير ما ينبغي فكأنه خسرها وأضاعها». هذا واذكر أنك إن أضعت يومًا فقد لا تجده ثانية. ولكن رغمًا عن تعلق الجميع بالحياة وتشبثهم بها، فكم نرى من كسول يحتار في كيف ينفق وقته. ولا تسرع في تقرير ما تعمل. ولكن إذا صمت النية على عمل، فلا تلبث أن تمدّ إليه يدك؛ لكيما تنجزه على غير السرعة والانهماك.

هذي الحقيقة فاسمعوا إن تسمعوا هيهات أمسكمُ يعود فيرجعُ
ذا اليوم طالعة عليكم شمسه ولعلها لكم غـدًا لا تطلعُ

وهل نعتبر بخبر أركياس (أمير ثيبة منذ ٢٤٠٠ سنة) الذي تلقى ذات يوم كتاب تهديد وإنذار، فألقاه في زاوية النسيان والإهمال قائلًا: «غدًا نرى»، ورأى – إنما موته...؟ وقد روى لورد شستر فيلد عن ديوك أوف نيوكسّل أنه أضاع ساعة من ذات صباح، فقضى نهاره بطوله وهو يبحث عنها وينشدها. وهو من اللزوم بأعظم مكان أن نرتب أعمال كل يوم ترتيبًا يتسنى لنا معه القيام بكل واجبةٍ بخير ما في الإمكان، وإلَّا ضاع منا قسم كبير من الوقت وشكونا شكوى بنيامين كونستانت، والذنب ذنبنا–

«عجبًا كم أخسر وأضيّع من الوقت؟ ما أقل حياتي نظامًا وترتيبًا!». ومن يرتاب في هذه الحقيقة وقد أتى بها أعظم الثقات- «هو ذا الآن وقت مقبول، هو ذا الآن يوم خلاص»[1].

ولو كانت الحياة قصيرة فقط لهان الأمر، ولكنها أبدًا تحت الشك، فواحدنا لا يعلم أيرى بعدُ أعوامًا وأجيالًا أم يبيت ليلته ولا يعرف غدها!

إذا تعددت الواجبات المطلوبة منا، ربما وقفنا محتارين في أيها نقدم وأيها نؤجله ونؤخره. والأفضل في مثل هذا الموقف أن نختار الأصعب ونشرع في إتمامه؛ لأن ما نخاله مزعجًا ومملًّا في البدء، نبيت ننظر إليه بعين الابتهاج والسرور بما أنجزناه. وقد شبهوا الشباب بطاقة من الزهر، والمشيب بإكليل من الشوك. ولربما جاءت أبيات شكسبير التالية تعبيرًا عن الشعور العام في كافة الآدميين:

عهـــد الصبـــا عهد الصفا إن المشيب أبو الحـــذَر
كـأس الشباب إذا صفـت فالشيب يوليهـــا الكـــدر
يـــا مـــا أحـــيـــلاه الـصبـا أمـا المشيب فما أمـرّ

وربما كان التسرع والوجد والقلق من صفات الفتوَّة والشباب؛ لأن الفتى حديث العهد باختبار العالم، وإذا عُدم مرشدًا مخلصًا فقد يهوي ويعثر مرارًا في طريق حياته، أو إذا طاش وبطر واغترّ بنفسه، فقد يجلب عليها في لحظة من الزمان ما يعيش يتعذب من أجله السنين الطوال. وبالعكس إذا عقل ورزُن في حداثته، فإنه لا يدرك الكبر إلا محاطًا بالأصدقاء الأوفياء، وقد استتبّت له الراحة وخلا جوّ الحياة. وربما

(١) ٢ كورنتوس ٦ - ٣.

استمرَّ في شيخوخته على الاهتمام بأمور غيره وشؤون بلاده ووطنه، إلا أنه غنيٌّ عن الاهتمام بذاته بعد ما صرف همة الشباب إلى تحسين أحواله الشخصية.

ولا أرحم من الزمان بمن يحسن استعمال أيامه. وكما قال جوبرت: «الوقت يُعدم كل شيء ولكن على مهل. فبمروره تتمهد الجبال سهولًا، ويذوب الصخر انحلالًا، وتموت فروع الشجرة وأصولها، إلَّا أنه لا يقتلعها اقتلاعًا. على أن كثيرين يسيئون تنظيم حياتهم فلا تكون إلَّا كنهار صباحه نقاء وصفاء، ومساؤه عواصف وزوابع.

«مهما وجدتهُ يدك لتفعله، فافعله بكل قوتك» ودفعًا لاستغراب هذه الوصية، هاك ما قاله الحكيم في سفر الجامعة «لأنهُ ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها». وقد قال كبل: «إنما «الآن» الوقت والزمن، إذ من لنا بمحقق قدوم الغد؟!». زد على ذلك أن ما نفعله نحن اليوم لا يقتصر تأثيره علينا فقط، بل يتناول الآخرين في الأجيال المقبلة – وهل هذا إلَّا باعث لنا على الاعتصام بالحكمة والفضيلة. ولا أولى من اغتنام الوقت الذي نكون فيه. وقد قال أحدهم: «يومك يأتيك مرة واحدة، وإذا مضى فلن يعود». والفيلسوف سينكا سبق فقال أيضًا: «الماضي بما نذكره، والحاضر بما نستعمله، والمستقبل بما تقدّره العناية وبما نستدرك عواقبه بالنظر إلى الأمام». والحق يقال إن الصعوبة كل الصعوبة إنما هي في التأليف بين العزم (توطيد النية) والتعقل؛ لأننا كثيرًا ما نتسرع في تحقيق الآمال فلا نعتم أن نفشل ونندم. وما هذا شأننا في أمر الزواج فقط، بل في كثير سواه من

أمورنا. ومن جهة أخرى، حسب قول الجامعة: «مَن يرصد الريح، لا يزرع. ومَن يراقب السحب، لا يحصد».

وكأننا مطبوعون على الميل إلى تحقير الوقت الذي نعيش فيه، حتى إذا مرَّ عرفنا له شأنًا وقدرًا:

(رب يوم بكيت منه، ولما صرت في غيره بكيت عليهِ)

وروسكن مع أنهُ غير الجحود الناكر الفضل على ذويه، قال مشيرًا إلى القرن التاسع عشر قرن التقدم والترقي: «ما أعظم شوقي إلى ذلك اليوم الذي يُخرِج فيهِ هذا القرن آخر أنفاسهِ»، ثم يستأنف قائلًا: «قلت «أنفاسه» وكان بودي أن أقول «بخاره»».

وقد يغلب أن يكون الشعراء أصحاب آلام وعذابات، فلا نسمعهم إلا متذمرين من حاضرهم باكين على ماضيهم متمنين لو يعود. وكم من قائل مثل هذا القول:

أستغفر الله! حتى الله مَن قدر لا يستعيد لنا الماضي إذا عبرا

فلنعتبر إذَنْ ونذكر أن الوقت الثمين، إذا جازفنا به جوزينا بخسرانه.

الفصل الرابع عشر

الحكمة

العين فدى لشربة من عين الحكمة- تعريف الحكمة- الصمت والكلام- التسرع والأمة- النوم والحكمة- صعوبة استدراك الفعلة إذا وقعت- المعرفة- أقوال سليمان في الحكمة- العقل- التعب الفكري- جهلنا العميم- الدنيا سر عظيم- الواجب- الخطاء- قبح الرذيلة- حكمة سليمان- سلوكه- صوت الضمير.

«فمن أين تأتي الحكمة؟ وأين هو مكان الفهم؟ هو ذا مخافة الرب هي الحكمة. والحيدان عن الشر هو الفهم»[1].

حُكِيَ أن «وُتان» سمح للجبار «يمير» بفقءِ إحدى عينيه لقاء شربةٍ واحدة من نبع الحكمة. أما نحن فلسنا بمضطرين إلى مثل هذه التضحية. ولئن تعذر علينا أن نضارع صولو وسليمان حكمة واختبارًا، فإنهُ متيسر لنا أن نمرن قوة الإدراك ونقويها، وأن نستفيد من اختبارات الغير، بأن نعتبر بها ونتخذها مشكاةً ودليلًا في سفر الحياة، وما الحياة إلَّا سفر. وقد قال شيشرون: «عرَّف الأقدمون الحكمة بقولهم إنها الإلمام بالبشريات والإلهيات ومعرفة نظامها. وهو علم مَن احتقره، فالله أعلم بما عسى أن يكون جديرًا لديه بالاعتبار».

قال پوركاس: «الفهم والنطق هما امتيازانا الكبيران على الحيوان، والحق يُقال إن امتيازنا الأكبر إنما هو الفهم؛ لأن النطق قد يخون الناطق ويعرضه لسقطات وزلّات كثيرة. ولما كنت سابقًا أخطب في قوم، كنت أشعر أن لهم حق الاطلاع على أفكاري، كما أنهُ لي الحق وعليَّ الواجب أن أقف على أفكارهم وأعرف أسبابها. وزد على ذلك أن كل إنسان يمكنه أن يصغي لخطيب، أما الخطيب المصقع والسياسي المحنك، فهو ذلك الذي يقرأ أفكار سامعيه ويسمعها وهم صامتون».

---

(١) أيوب.

أظن أن كل واحد منا اتفق له أن لام نفسه من أجل التكلم أكثر مما تستدعي الحكمة- ولكن مَن تُرى ندم يومًا على إقلاله من الكلام؟ وإنه ليحسن بكل فرد أن يختم على فمه ويفتح عينيه وأذنيه لكل ما يرى ويسمع. وكقول المثل: «انظر حولك وفوقك وأمامك». وما أصدق المثل الفرنساوي السائر «من أقل من التفكير، أكثر من التقويل». وكم نطرح أمثال هذه الحكم جانبًا أو نضرب بها عرض الحائط! فصحيح أن الحكيم يتعلم من الجاهل أكثر مما يتعلم الجاهل من الحكيم.

يغلب أن نتذمر ونشكو من البطء والتواني في الشؤون الاجتماعية الخطيرة، على أن الشر كل الشر في التسرُّع وعدم التؤدة في سنّ الشرائع ووضع الأحكام. والتسرع قلة حكمة لا محالة. فالطبيعة نفسها مثال التأني، فإنها تفعل كل شيء في أوانه، وإلَّا كان غير طبيعي. وكما قالت مدام دي سڤيني: «مَن قدر أن يصبر قليل الصبر، كُفِيَ كثير الشقاء». وهذه النصيحة كلها حكمة، أما الأخذ بها فغير السهل اليسير. «الحزن صعب الاحتمال، والشك بطيء الزوال»[1]. وهنالك حالات لا بدّ فيها من إتيان فعل ما، إنما لنعرف ماذا نأتي، وإلَّا زدنا الحالة سوءًا والأمر إشكالًا. وحبذا لو أن كل مُقدم على فعل من الأفعال يقف ويسأل نفسه «ألا يمكن التخلي عنهُ؟»، وإن قسمًا كبيرًا من منافع التشريع يُعزى إلى إلغاء شرائع وقوانين سبق سنّها بتسرّع وقلة تروٍّ، فكانت وبالًا مُبينًا على الهيئة الاجتماعية. والساعة ساعة إذا كانت تجاري الوقت لا إذا كانت تسبقُهُ.

---

(١) برونن.

يندر أن يكون التسرُّع من باب الحكمة، وإذا عرض لك أمرٌ وكان فيه بعض الإشكال والغموض، فأجّل الحكم فيه والبتّ بشأنه إلى الغد، وبِتْ مفكرًا متأمِّلًا في دخائله؛ لأنه إذا خيم الظلام وأغمض الجفن، فقد يظل الفكر ساهرًا على أمرك ولا تصحو إلَّا وقد حُلّت العقد وانجلت الغوامض؛ ولأن تنتظر الفكر ريثما صدر قراره الصباحي، خير لك من أن تقضي الليالي في السهر والأرق والتندم على فعلة الأمس وزلته. «لأن الذاكرة لا تخوننا بنسيان ما نود ذكره فقط، بل بذكرها ما نود نسيانه». ولنذكر أننا إذا فعلنا شيئًا فقد يستحيل علينا أن نعيده من حيّز الحدوث إلى حيّز الفكر.

«كل الناس يشكون من ضعف ذاكرتهم، وليس مَن يشكو من ضعف عقله». على أن المعرفة هي أساس الحكمة «وهي التي ليس للملوك أن يقتنوها ولو بذلوا أموالهم على وفرتها ولا بأوامرهم السنية على شدّتها». وجوته يقول: «مَن ينصبّ على درس الشريعة، لا يجد وقتًا لكسرها وتعدّيها». وبقدر ما نزداد معرفة كذلك تزداد رغبتنا في الاستزادة منها أيضًا. وقد قرأنا عن بطرس الأكبر أنه «عزم على أن يرى كل ما يُرى، ويسمع كل ما يُسمع، ويعرف كل ما يُعرف، ويتعلم كل ما يُتعلم».

ولا يسعني أن أوافق مارتنو على قوله: «لو عرفنا كل شيءٍ لما اعتبرنا شيئًا»، فكأنه قال لا شيء جدير بالاعتبار. وَمَن جهل أمرًا فرضهُ فرضًا وخمنهُ تخمينًا؛ أما طالب الحقيقة فبقدر ما يعرف كذلك تزيد دهشته ويشتد عجبه وإعجابه بهذا العالم العظيم العجيب، بل إن مارتنو

نفسه يلوم «مَن يغضون أبصارهم عن مملكة نحن عبيدها، ولا ينظرون لسوى هذه العاجلة الفانية التي نحن أسيادها».

وسليمان قرَن بين المعرفة والحكمة وجعلهما صنوين لا يفترقان. وهاك ما يقول:

«مخافة الرب رأس الحكمة. أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب».

«لأن الرب يعطي حكمة، من فمه المعرفة والفهم».

«الرب بالحكمة أسس الأرض. أثبت السماوات بالفهم. بعلمهِ انشقّت اللجج وتقطر السحاب ندًى».

«فالمعرفة تقدّم الموادّ اللازمة، التي تُبنى منها الحكمة، بل هي الأساس الراسخ الذي يقوم عليه البناء: «الحكمة هي الرأس. فاقتنِ الحكمة. وبكل مُقتناك اقتنِ الفهم».

«طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة، وللرجل الذي ينال الفهم؛ لأن تجارتها خير من تجارة الفضة، وربحها خير من الذهب الخالص. هي أثمن من اللآلئ، وكل جواهرك لا تساويها. في يمينها طول أيام، وفي يسارها الغنى والمجد. طرقها طرق نِعم، وكل مسالكها سلام. هي شجرة حياة لممسكيها. والمتمسك بها مغبوط».

«والعاقل الحكيم يستفيد ويتعلم من اختبارات سواه، أما غير العاقل والحكيم فمن اختباراته فقط. والأفضل هو أن يأخذ المرء بنصيحة سواه، ولكنهُ خيرٌ لنا أن نتعلم من اختباراتنا من أن لا نتعلم

أبدًا. وقد أجاد القائلون إن مدرسة الاختبار مدرسة شاقة المسلك، أما الحمق والأغبياء فيأبون إلَّا أن يتعلموا فيها، والأغرب أنهم حتى فيها لا يتعلمون ولا يستفيدون. والاختبار غالبًا ما يسوقنا إلى ما بعد الغاية منهُ على حد قول المثل الفرنساوي: «الهرّ المسلوق يحذر الماء البارد».

كثيرًا ما نسمع الناس يتكلمون عن «الذوق السليم»، ولكن يا لقلة ما تجده فيهم.. مع أن سلامة الذوق من أعظم المواهب وأجلّها.. وكم منهم مَن يحسب نفسهُ جامعًا لشتات حكمة اليونان وضابطًا لشواردها إذا ما عَرَف، كثايلس، أن كل الأشياء مركبة من الماء، وكهراكليتس، أن كل الأشياء في حالة تغير وتبدّل، أو كأنكساجوراس، أن كل الأشياء ضباب وسديم... ثم إنه يضيف إلى هذه الآراء رأي سليمان الحكيم: «كل شيء باطل». فأي فكرٍ سليم يرضى بمثل هذا؟

فعلى مَن نؤسس اعتقاداتنا ونبني مزاعمنا؟ نفتخر بكوننا مخلوقات عاقلة، ولكن قلما يكون للعقل من دخل في آرائنا. فقد قال ماكس مُولّلر مرةً: «لو كانت العطلة السنوية الكبرى تطول السنة بكاملها، لكانت جامعة إكسفورد «الفردوس الموجود»، ولكنه كان إذ ذاك ناظرًا إلى الأمر من وجهته الشخصية لا غير. ولا شك أن الخلو والراحة لازمان للفكر ضروريَّان، وكم يعوزان الأستاذ أثناء الفصل المدرسي، حينما تتراكم عليه الواجبات فيكاد ينوء بحملها.

وشاقّ هو العمل العقلي لا مشاحّة. وما الأعمال اليدوية إلا تسلي ولعبة وَلَديّة، بإزاء الأعمال الرأسية (الدماغية العقلية)، واسترجاع القوة العضلية أيسر بكثير من استعادة القوة العصبية. زد على ذلك أن الفكر

قد لا يخلو من تأثير على القلب، وقد يسبب القلق والاضطراب. ولماذا نرانا في عالم هذه صعوبة فهمه!

وربما كانت المعرفة المحجبة عنا لا تسفر لنا لكوننا غير مستعدّين لها بعد. فقد نسيء فهمها أو استعمالها، أو قد تكون فوق مداركنا وعقولنا فتحيرنا. وقد أحسن جوته قولًا بهذا المعنى: «وفيما خصّ المعرفة لقد اتفق لي ما يتفق لمن يسهر الهزيع الأخير ثم ينهض باكرًا، انتظارًا للفجر أن يلوح وللشمس أن تسطع، فلا تكاد حتى يُضحي وقد بُهر نظرًا وعمي بصرًا». وباسكال يقول: «كثير من الحقائق يدهشنا ويقضي عجبنا» والبومة (طائر ليلي) هي مثال أثينا إلهة الحكمة، ولكنها تبصر ما تُبصر في ضياء القمر الضئيل، أما نور الشمس الساطع فيعميها ويخطف بصرها.

فقصارى الآمال وغاية الجهد، والحالة هذه، أن نتقدم خطوةً خطوة ونزيح النقاب عن وجه المعرفة شيئًا فشيئًا. وقد أتينا بعض الشيء من هذا القبيل مدة القرن الماضي، وأين نحن من الكل، وذلك البعض ليس بشيءٍ يذكر أمامه؟ فكأن إلهة ساليس يحق لها أن تقول حتى في يومنا هذا: «أنا هو الكائن وما كان وما سيكون. لم يُمط حجابي بشرٌ بعد».

«كأني بالسواد الأعظم من الناس يستصعبون حذر الخطأ وتوقّيه، فيسلمون قيادهم لسواهم، ويقيمونهم أوصياء على عقولهم، ليكفوا نفوسهم مؤونة التبصر والتفكير». ولا يخفى ما في الاكتفاء مشقة التفكير والارتباك والارتياب من الراحة، اللهمَّ إذا كان الإنسان يكتفي بالانعكاف على واجباته والقيام بها؛ لأنه إذا انقطع عنا نور العقل وكان

الضمير حيًّا، فنوره سنيٌّ كالشمس في رائعة النهار».

قال شيشرون: «كان ديمقراط كفيف البصر لا يميز بين الأبيض والأسود، ولكنه كان يفرق بين الخير والشر، والحق والباطل، والشريف والدنيء، والنافع والمضرّ، والعظيم والحقير»، ورب سقيم بصرٍ سليم بصيرة.

أجل إنه كثيرًا ما يصعب علينا تحقيق ما إذا كان الأمر من الصحة والحكمة بمكان، ولكنه قلما يتعذر علينا أن نميز ما إذا كان واجبًا من الواجبات أو حقًّا من الحقوق. وإذا ذكرنا ذلك، فسعادتنا في أيدينا. ونادرًا ما نشك في كيف يجب اتباع قوله: «كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل»، إنما الصعوبة ليست في معرفة ما يجب فعله، بل في حمل النفس على فعل ما يجب. ولا ننتظرنّ أن نفوز بالكمال، إنما لنجاهد في سبيله؛ لأننا نفوز بالحسن بقدر ما نسعى في طلب الأحسن. ولا يُنكرنَّ ما في الأمر من المشقة، فإن دونه نكران النفس والتسلط على أهوائها، ولكن كما قال أحدهم: «لا يحسن بالمرء أن يفضل حياتهُ على نفسه».

ورب شرٍّ ليس إلَّا خيرًا بعد حدوده، ورذيلةٍ هي الفضيلة بعد غايتها. فالزم حدَّ الاعتدال في جميع أمورك. «إن للأمور طريقًا ذات حدود معروفة، والحكمة لا تتعدَّاها»[1].

وهناك أمور طاهرة أو طفيفة في حد ذاتها، بل نافعة أحيانًا.. إلَّا

(١) هوراس.

أنها تتحول إلى مساوئ وآثام إذا تجاوزت حدودها. فالكرم قد يصير تبذيرًا وإسرافًا، والشجاعة قد تلتبس بقلة المبالاة وعدم الاكتراث. وفي كل حال، ليس للحاصدين إلَّا ما زرعوا. فالرذيلة عقابها فيها، والفضيلة جزاء نفسها. والحقيقة أن العقاب والثواب ليسا إلَّا نتائج الأفعال وعواقبها الطبيعية. فالسعادة تتعقب الصلاح تعقّب الليل للنهار. بل إن الليل لا يخلق النهار ويوجده، أما الصلاح فالسعادة مؤدّاه ونتيجته كل حين. والمثل الفرنساوي يقول: «افعل ما يجب، وليصر ما يصرْ». ومن عمل الصالحات نحو سواه، فسواءٌ نبهتهم أم لم تنبههم، فإنه قد أحسن نحو نفسه لا محالة. و«ربّ ارحم الطالحين، فقد رحمت الصالحين بجعلهم كذلك». صلاة عربية قديمة.

قال تنسون:

كل سـامٍ تـراه عينك فاعشق والدنايا بالبغض أولى وأخلق

وربما صدق ذلك في أيام الشباب النقية الطاهرة، ولكن يا للأسف كم يسهل على الإنسان أن ينظر إلى الدنايا ويتعشقها فيدني نفسه، ويجني عليها بحرمانها ذلك الامتياز العظيم. امتياز حب السامي أي الشريف من الأفعال والغايات. والذي ينفع الشابّ الداخل في معارك الحياة، إنما هو كره الرذيلة وبغضها، لا مجرد معرفتها والتمييز بينها وبين الفضيلة.

إن الرذيلة لا جمال بوجهها كالوحش ترهبها لأول وهلةِ
لكن إذا كـرّرت فيه تفرّسًا أحببتَ لو منهُ تفوز بقبلةِ[1]

(١) بوب.

قال شيشرون: «إذا ثبت أنه لا سعيد إلا الصالح، وأن كل صالح سعيد، فأي أمر أحق باهتمامنا من إتقان الفلسفة (أي العلم)؟ وأي شيء أسمى ألوهية من الفضيلة؟». وقال ليوناردو دي فنيسي: «إذا كنت تحفظ جسمك بحسب مقتضيات الفضيلة، فلا تظل شهواتك عالميّة دنيويّة».

إن عـدل الأربــاب أمـرٌ مؤكدْ إنهم ينصفوننا حين ننكدْ
والمعاصي التي نحبّ ونهوى قُدَّ منها السوط الذي فيه نجلدْ[1]

ونوح الذي أتيح له أن ينجو من وبال الطوفان، دنى نفسهُ ووضعها ووقع في حبائل العريشة التي زرعها، وكم غرق بنوه من بعده من الخمرة والمشروبات في طوفان بعد طوفان!

إن المصائب التي يسببها الحمق والغباوة تكاد تضاهي تلك التي تجرّها الآثام والخطايا. والعاطفة الحسنة التي قد تدفعنا إلى العمل ينحصر تأثيرها في النفس. أما الفعل الحسن ولو صدر عن حكمة مع محبة ذات، فقد يمس الآخرين بخيرٍ ومنفعة، ولكنهُ لا يكون «إلا فضيلة الرذيلة» كما يقول جوبرت. وقد أعطينا قوة الاختيار والتمييز العظيمة، ولنا الخيار بين أن نبني «مدينة الصلاح» ونعمرها، أو أن ندمّرها ونقيم «معاقل الشر والصلاح» على أطلالها. فهذا الامتياز ينطوي على مسؤولية عظيمة كما ترى.

والناس اثنان -واحد يُتعب سواه، وآخر يُتعب نفسه. أما المتعبون فيشقون ويشقون غيرهم معهم، وأما المتعَبون المحتملون المخففون عن

(١) شكسبير.

الغير، فيسعدون ويسعدون سواهم معهم. فحتى الزهيد من الحسنات، والطفيف من المساعدة وقت الضيق، بل الكلمة اللطيفة الحالَّة محلها، قد تأتي بالنتيجة العظيمة على حدّ قول شكسبير:

أرأيـت قنديلًا تضاءل نوره والليل فحمي الظلام شديدهُ
فكذاك في دنيا الشقاء ينيرها فعل الجميل طفيفهُ وزهيدهُ

وعندما مات النبي داود وارتقى سليمان منصة الملك، ظهر له الله وسأله ماذا يريد فيوهب له، أجاب: فأعطني الآن حكمة ومعرفة.. فقال الله لسليمان: من أجل أن هذا كان في قلبك ولم تسأل غنًى ولا أموالًا ولا كرامة ولا أنفس مبغضيك، ولا سألت أيامًا كثيرة، بل إنما سألت لنفسك حكمة ومعرفة تحكم بهما على شعبي الذي ملَّكْتُك عليه، قد أعطيتك حكمة ومعرفة وأعطيتك غنًى وأموالًا وكرامة لم يكن مثلها للملوك الذين قبلك ولا يكون مثلها لمن بعدك». ولكن ويلاه من ضعف الطبيعة البشرية. عاد حبه للمال والقوة والمجد فحلّ محل حب الحكمة في قلبه، فبات يعظ ولا يتعظ وينهى ولا ينتهي. بل كم سلك سليمان ضد أقواله على خط مستقيم ولقي سوء المغبة ووخيم العاقبة. وهل أحزن من الحالة التي انتهى إليها أمره، تلك الحالة التي أنطقته بهذه العبارة: الكل باطل؟ ولقد كان ملكًا صالحًا وعظيمًا، وقوله هذا يشفّ عن خيبة وتقصير لا عن يأس وقنوط، ولئن لم يكن وطيد الأمل قوي الرجاء، فإنه لم يكن يعذبهُ ضميره بتوبيخ أو تبكيت.

وليس الضمير دليلنا الأمين فقط، بل إنه شاهدنا العدل الذي يُميّل ولا يُعزل. فقد نحكم على اللسان فنربطهُ أو نحل لكنته، وقد نغير الملامح ونشكلها كما نشاء، بل قد نذلل الشهوات والأهواء، إنما يستحيل علينا أن نسكت صوت الضمير الداخلي أو نميته بالكلية.

الفصل الخامس عشر

الدِّين

السلام والرجاء في الدين- الأفكار وأهميتها- إمكانية مقاومة التجارب- الشرائع الدينية- الحياة من ثلاثة أوجه- تذمرات في غير محلها- الوعود الإلهية- سير الدين- الأمة والدين- الصلاة.

كان لكل من آلهة اليونان أحباؤه وأخصاؤه، يحميهم ويرعاهم بعنايته دون سواهم من عباده. فعولس عاش في نعمة أثينا إلاهة الحكمة، وآنياس في ظل الزُّهَرَة إلاهة الحب والجمال. والعهد القديم من الكتاب المقدس يسمي الإسرائيليين بشعب الله الخاص... أما فكرة أبويّة الخالق وبنويّة البشر فمسيحية النشأة. فجميعنا أبناؤه تعالى، ولنا لحق أن نضرع إليه وندعوه أبانا.

وكم يحسن بنا أن نقف كل مساء بالنفس نناقشها الحساب متسائلين: هل عملنا اليوم على حفظ الجسم في صحته؟ هل ملكنا زمام أهوائنا وشهواتنا وكبحنا جماحها؟ هل قاومنا التجارب التي عرضت لنا وتغلبنا عليها؟ هل ارتكبنا إثمًا؟ هل أسأنا إلى أحد؟ هل مسسنا أحدًا بأذًى؟ هل أحسنا إلى أحدٍ؟ هل شنا على خير ما نستطيع؟

وسلام الله الذي يفوق كل فهم، ممنوح لنا، ولا شك أنهُ من أعظم البركات التي نتوق إلى الحصول عليها - «ما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ما أعدّه الله للذين يحبونهُ».

قال جوبرت: «يفرض الدين على المسكين أن يكون حرًّا وشريفًا وكريمًا. والدين هو كل شيءٍ لكل إنسان - أدب وعلم لهذا، وواجب وملذَّة لذاك». وفي أيام البؤس والاضطراب، الدين خير معزٍّ وأنجع دواءٍ للمصاب. والقصد الأوليّ من الدين إنما هو إدخال السماء في قلب

الإنسان، وليس إدخال الإنسان في باب السماء. وهذا مستحيل إذا كنا لا نطرد الأفكار الشريرة من دائرتي العقل والنفس؛ ذلك لأن أغلب الخطايا تقترف بالفكر أولًا، ثم تبرز إلى حيز الفعل بالتالي. وليس بخافٍ أن أولئك الذين لا يحوّلون أفكارهم عن الشر والرذيلة أبدًا معرضون للوقوع في تبعة أعمال تتبع تلك الأفكار. أما الذين الطهارة والصلاح محور أفكارهم، فأقل احتمالًا أن يأتوا فريًّا أو يسلكوا إلَّا سويًّا. «كل ما هو حق، كل ما هو جليل، كل ما هو عادل، كل ما هو طاهر، كل ما هو مسرّ، كل ما صيته حسن، إن كانت فضيلة وإن كان مدح ففي هذه افتكروا».

ضميرنا وسعادتنا منوطان بنا. وقد قال سينكا: «لا واجب نتمه ولا يُسعدنا. لا تجربة نُبلى بها وليس لعلتها من دواء». «ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تجرّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضًا المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا».

إنما أوحي بالأوامر والوصايا لخير الإنسان لا غير. «تلكم الشرائع التي أرادها السرمديّ الأبديّ لم تكتب على حجارة سيناء فقط، بل على القلب البشري أيضًا»[1]. وتلك الشرائع سواء تحققنا مصدرها أم لم نتحققه، فتوّخي السعادة يقتضي اعتبارها والسلوك بموجبها. وجون ستيوارت مِلّ يقول: «حتى اليوم إنه ليتعذَّر على غير المؤمن أن يسنّ نظامًا للفضيلة يجيء أكثر إحكامًا مما لو جرّبنا أن نعيش ونتصرف بحيث يصادق المسيح على جميع أعمالنا»[2].

(١) شتوبريان.

(٢) شتوبريان.

والخاطئ إذا تاب، فقد يعود فيخطئ ثانية، ولكنه لا يفقد دينه بالكلية. نعم قد يخطئ كما أخطأ النبيُّ داود، ولكنه لا يهزأ بالدين كڤولتير أو كجبون وغيرهما من الكتاب المتطرفين في مبادئهم المادّية. أما ڤولتير وجبون فلم يشكوا من «الدين» ولا وصماه ولا عاباه بشيءٍ، ولكنهما ضربا على بعض مذاهب وآراء لاهوتية لا أكثر. وهذه حالة كثيرين سواهم من العلماء المتهمين بالكفر والجحود.

وكم يكثر الناس من الكلام عن المادّية وهم لا يكادون يعرفون عنها شيئًا. وغاية ما نعرف عن المادّة أنها قوة ما. وهذه حليفتنا الجديدة القوة الكهربائية، نذكرها كثيرًا وهي تخدمنا وتنفعنا كثيرًا، ولكنها لا تكشف لنا سرّها، فلا نزال نجهل ماهيتها وحقيقة أمرها.

ينظر الناس إلى الحياة من ثلاثة أوجه، فمنهم مَن يراها كل شيء، وسواءٌ كان يعتقد بآخرة أم لا، فهو يتجاهلها بالكلية. ومنهم مَن يحسب الحياة الثانية (أي الآخرة) كل شيء ويعتبر أولاه كل شيء. والفريقان في خطأٍ مُبينٍ. ومن حيث الطول والقصر، لا حرج إن قلنا إن الحياة ليست شيئًا بإزاء الأبديّة. أما المستقبل فمترتب على الحاضر في كل حال. ولما كان الأمر كذلك، فلا بأس من تعليق كبير الأهمية على حاضرنا؛ لأن مستقبلنا متوقف عليه.

نتأفف من هموم الحياة وأحزانها ونأسف أن نفارقها. نتذمّر من عذابات الحياة وآلامها، ولا ننفكّ نتشبث بها. نتشكى من حرّ الصيف وبرد الشتاء، ويحزننا أن نترك هذه الدنيا. نتبرّم من مشاق الحياة ومهامّها ولا نفتأ نجاهد في سبيل السلطة والقوة والمسؤولية. نتضجر ونضيق

صدرًا مما يميز الرفيع عن الوضيع والغنيّ عن الفقير، ولكننا نأسف أن نذهب إلى حيث لا فرق بين مُوسر ومعسر أو بين ملك وصعلوك.

قال ماركوس أوريليوس: «إذا كان ثمّة آلهة، فما أحلى الموت. وما أمرّ الحياة إذا لم يكن من آلهة قط».

قال جوته: «ما استمددت عون السماء في ساعة الكرب والضيقة إلَّا مددت به». ولكن مع أن الصلاة تعود علينا بالراحة والسلام؛ إذ نحن في قبضة الكرب، فكذلك ينبغي أن نلجأ إليها ونحن في راحة الفرح أيضًا. «اذكر خالقك في أيام شبابك قبل أن تجيء أيام الشر أو تجيء السنون؛ إذ تقول ليس لي فيها سرور»[1].

ولا بدَّ لنا من توقع الحزن والعذاب، ولكن إذا احتملناها كما ينبغي فإن «خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدي. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى، بل إلى التي لا تُرى؛ لأن التي ترى وقتية وأما التي لا تُرى فأبدية». «والرب يعطي والرب يأخذ»، أما ما يعطيه فالخير، وما يأخذه فالشر.

***

لا شك أننا في جهل عميم، ولكنا لا نعدم معرفةً هي الأعظم والأهم- كيف لا وهي معرفة الواجب. ومن المستحيل أننا لا نتوق إلى الاستزادة من المعرفة. وعليه فمحاولة تأسيس الدين على مبادئ لاهوتية ليس إلَّا أمرًا طبيعيًّا مألوفًا.

---

(١) الجامعة.

على أن بعض الأديان كانت -ولا تزال- مما يُستغرب ويُستهجن كما قد أظهرت في غير هذا المقام.

ودين القوم مجارٍ لمدنيتهم في النشوء والارتقاء؛ فالأستراليون مثلًا يتوهمون وجود كائن شرّيرٍ أذّاء، وضعيف، لا خطر منه إلَّا في الظلام. ومعبود الزنجي أقوى من معبود الأسترالي، إلَّا أنه مثله مُبغضٌ مكروهٌ لدى عِباده- فهو غير منظور، ولكنه مائت لا خالد ويتألم ويتعذَّب وتحت سلطة الإنسان وسحره. ومعبودات سكان الجزر الجنوبية، مع أنها نوعان، آلهة خير وآلهة شر، تَرى خوف القوم من الثانية أشد من أملهم في الأولى؛ فهم يعتقدون أن آلهتهم هذه مهدت الأراضي وهيأتها، لا أنها خلقتها وأوجدتها، وأن البحر والبرّ وُجدا قبلها لا بعدها. فهي لا تعاقب الطالح ولا تثيب الصالح. وتراقب أمور الناس وتسهر عليهم، ولكنها لا تتأثر من صلواتهم، إذا سلمت من سطوة سحرهم وعرافتهم. زد على ذلك أنها تتطلب مقاسمة عبادها مواسمهم ومحصولاتهم.

فيظهر إذَنْ أن تقدم العلم الحقيقي والتوصل إلى الحقائق الراهنة يرفعان الدين ويسموان به في كل حال. وهذا القول يتناول الشعوب المتأخرة والمتقدمة في المدنية جميعًا. فالاعتقاد في السحر والعرافة الذي طال تعلقه حجابًا كثيفًا على عقول أبناء العصور المتوسطة واستمر حتى أواسط القرن التاسع عشر مخيّمًا على أذهان سكان غربيّ أوروبا- ذلك الحجاب لم يمزّقهُ إلا نور العلم، فخدم الدين بذلك خدمة جليلة.

وهاك الفرق بيننا وبين المتوحشين من حيث الدين. نحن ننعت إلهنا بالخير والصلاح، أما هم فيعتبرون الشر والطلاح من أهم صفاته.

نحن نسلّم لربنا ونثق به، وهم يحاولون أن يتسلطوا عليه ويستعبدوه. نحن نميل إلى عزو البركات والخيرات إلى ذواتٍ غير ذواتنا، أما هم فيحسبون البركات والخيرات آتية من تلقاء ذاتها وينسبون المحن واللعنات إلى ذوات شريرة يتوهمونها.

وإذا صرفنا النظر عن لاهوت أهل الكهنوت وتفاسيرهم، فلا يسعنا إلَّا أن نقرّ بفضلهم في زيادة حياة الناس راحةً وهناءً؛ فإنهم بتواضعهم وسعيهم إلى خدمة الغير ومشاطرة الناس أحزانهم إلى غير هذه من المبرّات، يسعون سعيًا مشكورًا، ويأتون أعمالًا محمودة. والعائلة التقية في مدينة أو قرية، أشبه بنار العَلَم يهتدي بها التائه الهائم في ظلام الجهل والضلالة.

وهنالك فرق بين «دين الأمة» وشيَعها وطوائفها. فالشيعة أو الطائفة تمثل رأيًا أو زعمًا أو مذهبًا. أما «دين الأمة» فهو الشعور العامّ بسرّ الوجود. والاختلاف لا بد منه، ولكننا في غنًى عن التباعد والانفصال. والاختلافات الموجودة بين طوائف نفس المذهب المتعدّدة أعظم من تلك الموجودة بينه وبين مذهب آخر. فأَحْرِ بكل وطنيّ أن يكتفي من دين أخيه في الوطنية بأنه مثله شعورًا بسر الوجود، وبقيمة عطية الحياة المهداة إلى كل منهما. وما بالنا ننشقّ ونتباعد من أجل فروقات وهمية واختلافات فلسفية!

وقد أجاد القائل: «علّم ابنك الحكمة، تعلمه أدب الدنيا. علمه ما هو حسن وحكيم، تعلمه أدب الدنيا والدين».

وإني لآمل وأعتقد مع روسكن أن الإحسان والتساهل والسلام تمهد السبيل لقيام كنيسة لا تُبنى على الجهل فتكون رهن السقوط،

ولا على الانشقاق فلا تستطيع التقدم، بل تكون النور والسلام أساسها وشعارها.

قال أحدهم: «الإيمان أسّس الكنيسة، والرجاء تلافاها من السقوط. أما المحبة فمنها ينتظر ترميم البناء وتعديله وتحوير الآراء وتجديد النظامات».

إن أردنا، عشنا في السماء قسمًا من كل نهار.

قال فنلون: «يجب أن تعوّد نفسك على محاول الاختلاء بالله قلبًا لقلب، ربع ساعة كل صباح وكل مساء. وما هو ربع الساعة بالنسبة إلى الأبدية؟»، ولكن بقطع النظر عن الأبدية والآخرة، فإن اتباع هذه العادة يعود علينا بالراحة والتعزية والسلام. إنما الفرق العظيم لا يظهر إلا في آخر العمر. «لقّنْ ابنك العلم، تجعل حياته مفيدة. علّمه الدين، تجعل ميتته سعيدة»[1].

(١) بستالوتزي.

الفصل السادس عشر

اللاهوت

الدين والضمير- اللاهوت والعقل- سر الكون- جوهر الدين- جوهر المسيحية- تنسون والشك- التسامح- حكاية شرقية- أقوال لموسى وداود وسليمان وميخا- تعاليم العهد الجديد- العقائد معاثر في سبيل الدين- العجائب- الإيمان- الاختلافات الدينية- الاضطهاد- مخاوف التساؤل- الشك والارتياب- المجادلة عبث- روح الدين- الشك الجدير بالاعتبار- أقوال كبل وجرمي تايلر- إيمان الفيجيين- تعاليم المسيح.

الدين ليس بالعلم، بل بالضمير. والدين كدليل للسلوك واضح وضوح النار على العَلَم. أما اللاهوت -كفلسفة الكون- فمبنيّ على العقل والإدراك، ولا نزال نرى الانشقاق والنزاع قائمين على قدم وساق حتى بين أولئك المكرّسين حياتهم وقواهم جميعًا للأبحاث والعلوم. وعدد كبير من الناس يقولون مع القائل:

(كوائن ليس يدري الكنه منها سوى مَن أمره كافٌ ونونُ)

والعلم لا يبرح يزيد معلوماتنا عن الطبيعة، على أن أسرارها تتزايد عمقًا وخفاءً كلما خطونا خطوة وأنطنا حجابًا. ولعل أولادنا أو أولاد أولادنا يكونون يومًا ما أكثر منا نورًا وهداية في سبيل استقصاء هذه الحقائق واستطلاع تلك الأسرار، أما نحن فلا يسعنا إلَّا الاعتراف بجهلنا العميم. إننا لا نكاد نعرف شيئًا، حتى ولا أنفسنا. وقد قال سانت برنارد: «الشك ملح العقيدة».

قال جوبرت: «حبَّ الله، وليحبك الله، وحب الناس، ولتحبك الناس، هذا هو أدب الدين والدنيا؛ فالمحبة هي الكلُّ في كليهما. فهي المبدأ والواسطة والغاية».

«إنما نحمي الدين ونحفظ حرمته بموتنا لا بقتل الآخرين»[1].

(١) لاكتتيوس.

«أغلب الديانات القديمة قامت بطقوسها ومعابدها، لا على المذاهب والعقائد»[١]. والضمير رؤيا إلهية لكل صاحب ضمير. وإن الله ليكلمنا اليوم كما كان يكلم أنبياءَه وأصفياءَه في قديم الزمان، والأولى بنا أن نقول إن الرسل «أوحي إليهم» لا أن «الكتب أوحي بها». «وليست مِيزة المسيحية باختلافها عن الديانات التي تقدمتها، بل بمجيئها تتمة لها وتكميلًا»[٢]. وقد بشرنا جوَت أن عصر انتقاد الكتب قريب الانصرام، وهو يكره التقييد والتقليد وينزع إلى الحرية الفكرية نزوعًا شديدًا. وهاك قوله أيضًا: «ليست العبرة اليوم بمجرد كلمات المسيح وأقواله، بل بحالة المسيحية من حيث إقبال الناس عليها وتأثيرها فيهم وتأثيرهم فيها».

واللاهوتيون أنفسهم يحتارون في سرّ الوجود. «إن العالم العجيب الذي نوجد فيه ولو إلى حين، سواء أُتيح لنا أن ننظر إلى عالم الإيمان الأسمى أم لم يُتح، إنه وحده هيكل ملؤه الأسرار والعجائب. فكيفما ذهبت تجد حولك شواهد قوة عجيبة لست لتنظرها أو تلمسها أو تحدها أو تقيسها أو تفهمها»[٣]. «كمال الإدراك البشري إنما هو بمعرفة أن هنالك لا نهايةً من الحقائق التي لا ينتهي إليها إدراك»[٤]. والشاعر تنسون يفرق بين الإيمان والمعرفة بقوله:

وأنّـى لنا علمٌ بما ليس يُنظرُ ونحن على الإيمان بالغيب أقدرُ

(١) روبرتسون سميث.
(٢) جوت.
(٣) كنون لدون.
(٤) پاسكال.

كأني بمن شكّوا بإخلاص نيّة يقينهم في الحق أقوى وأكثرُ

وكثيرًا ما يختلف وينشق طلّاب الحقيقة رأيًا ومزعمًا، ولكن تلك الاختلافات والانشقاقات لا تولّد عداوة وبغضًا «للعلم»، وحبذا لو كانت هذه الحالة في ما خص «اللاهوت»؛ فإن بعض اللاهوتيين يعتبرون مخالفة رأيهم تعرضًا للدين، وعدم الحكم فيه[1] حُكمًا جائرًا عليه، ويعدون الشك في صحته كفرًا وجحودًا. على أن التقيَّ يجب أن يكون مُحسنًا، وأين التعصب من الإحسان؟

روى سعدي الشاعر الفارسي أن شيخًا أعرج قدم ذات ليلة اشتد ظلامها وعصفت عواصفها، وطرق باب خيمة إبراهيم مستغيثًا مستجيرًا، فخرج إليه هذا وأدخله منزله وأحله على الرحب والسعة، وقدم له طعامًا فأكل، إلَّا أنه لم يحمد الله تعالى ولا فاه بصلاة قط. فلم يتمالك إبراهيم نفسهُ واستجوبهُ سائلًا، وما كاد يسمعهُ يقول إنه لا يعبد إلَّا النار إلهًا حتى طرده خارجًا وأرجعهُ من حيث أتى. إنما ما كاد الغريب يبعد ويتوارى عن عيان إبراهيم، حتى ظهر له الله وسأله عن ضيفه، فأجابهُ: ربّاه إني طردته من بيتي طردًا حالما علمت أنه ليس من عبادك. فقال له الله: ها قد وسعتهُ ووسعتُ سواه كل هذه السنين بطولها... أما أنت فقد ضقتَ بهِ ليلةً واحدة... فندم إبراهيم على فعلته واستعاد الشيخ وأكرم مثواه، وقام نحوه بجميع واجبات القرى الضيافة.

وترانا نعيش، ونستعمل الموادّ، وننير بيوتنا، مع أننا لا ندّعي إدراك ماهية الحياة أو المادّة أو النور والكهربائية. وهكذا يظهر لي أننا نتوقع

(١) أي في رأيهم الشخصي.

من رجال الدين أكثر مما يحق لنا، ولعلهم هم أيضًا ينتظرون منا فوق ما يجوز لهم.

وإذا تصفحت الكتاب، وجدت الطهارة والسلوك محورين تدور حولهما فصوله وأسفاره.

وهاك بعض الأقوال الكتابية دليلًا على أن طهارة القلب وحسن السلوك هما جوهر الدين ومحور آياته. قال موسى: «إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدةً عنك. ليست هي في السماء حتى تقول مَن يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها. ولا هي في عبر البحر حتى تقول مَن يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها. بل الكلمة قريبة منك جدًّا، في فمك وفي قلبك لنعمل بها»[١]. وقال داود: «ذبائح الله هي روح منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا ألله لا تحتقره»[٢]. وقال سليمان: «فلنسمع ختام الأمر كله. اتّقِ الله واحفظ وصاياه؛ لأن هذا هو الإنسان كله»[٣]. «فالآن يا إسرائيل ماذا يطلب منك الرب إلهك إلا أن تتقي الرب إلهك لتسلك في كل طرقه وتحبه وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك»[٤]. والعهد الجديد أيضًا يسهب في شرح هذه المثالة ويزيدها وضوحًا «الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه: افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسهُ بلا دنس من

(١) تثنية ٣٠ – ١١.
(٢) المزمور ٥١ – ١٧.
(٣) الجامعة ١٢ – ١٣.
(٤) تثنية ١٠ – ١٢.

العالم»[1]. «لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسانُ كلُّ مَن يدين. لأنك في ما تدين غيرك تحكم على نفسك؛ لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها». الذي[2] سيجازي كل واحد حسب أعماله. أما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء فبالحياة الأبدية، وأما الذين هم من أهل التحزّب ولا يطاوعون للحق، بل للإثم فسخط وغضب»[3]. ولنأخذ أخيرًا قول المسيح نفسه: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها، تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كلهُ والأنبياء». وهو القائل: «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم؛ لأن هذا هو الناموس والأنبياء»[4].

وبعض الناس يحسبون الدين بالمذاهب والعقائد، وأنها هي ركنه وقوامه، بينما البعض الآخر لا يعدُّ هذه الأمور إلَّا مصاعب ومعاثر في سبيل الدين. وهكذا يصبح الأنام فريقين منشقين، بل متضادّين متعاديين.

وهنالك أولئك الذين لا يدخلون المعبد مطلقًا، وأولئك الذين يدخلونهُ إنما محتارين متألمين، مما يترتب عليهم من التسليم بعقائد ومذاهب فلسفية أو غير فلسفية، ومن جرَّاء تلك النعوت والصفات التي تنسب إلى الناسوت الإلهي. ولست لأذكر رأيي الشخصي في الأمر،

---

(١) يعقوب ١ – ٢٧.

(٢) أي الله عز وجل.

(٣) رسالة بولس إلى الرومانيين ٢ – ١ – ٦ – ٧ – ٨.

(٤) متى ٧ – ١٢ احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة: متى ٧ – ١٥. (المعرب).

في هذا المقام، بل حسبي إلفات النظر إلى قسم من المصاعب التي يصادفها الكثيرون في سبيل الديانة.

وأهل تلك الأيام الخالية ما كانوا ليشكوا في أمر العجائب أو يرتابوا بشيء مطلقًا، بل العجائب التي أتى بها موسى الكليم أمام الملك فرعون، جاء السحرة والعرّافون وأتوه بمثلها. فاعتبار العجيبة دليلًا على القدرة والسلطان إنما هو قريب العهد حديثه.

وليس بخافٍ أن كل اكتشافٍ علمي جديدٍ يستدعي، فتوضع له مفردات وعبارات جديدة يعرف بها. ولا إخال الإنجليزية ولا أي لغة سواها محتوية على الكلمات الكافية للتعبير عن حقائق الكون وأسراره العظيمة بأسرها. فحسبنا إذَنْ، في كثير من المسائل التي تشغل عقولنا ونفوسنا، أن نُرجئ الحكم في شأنها ونؤجله ريثما زادت دائرة علمنا ومعرفتنا سعة وشمولًا. ولكن إذا كنا في ريب مما نفكر فيه ونقرره من العقليات، فقلما يخالجنا شك أو ريب في ما يوحيه إلينا الضمير من الحقوق والواجبات.

وكأني باللاهوتيين يتجاهلون صعوبة ما لا يفهم، ويظنون أن التصديق والإيمان من الأمور الإرادية الاختيارية، أو كأنهم يحسبون التصديق من دون دليل أو برهان محمدة من المحامد أو فضيلة من الفضائل. فتراهم ينتظرون منك أن تصدّق كل ما يُعرض عليك أو تنكره... مع أن عدم التصديق شيء، والنفي والإنكار آخر. ولا شك أنه لا يليق بنا أن نقبل ونسلّم بما لا يُقام عليه برهان، ولا يثبته دليل، أما متى صدق الدليل، ودمغت الحجة، فلا يسعنا إلا القبول والتسليم. ولكن لا

يخفى أن هنالك مواقف لا محل فيها لإنكار الأمر ولا للاعتراف به، وما تلك إلا مواقف الإحجام عن القطع وتأجيل الحكم. زد على ذلك أن كثرة الاختلافات المذهبية لا يمكن معها تنظيم طقوس عبادية يُجمع عليها الجميع ولو نظريًّا فقط. وحبذا لو كانت الحالة غير ما نرى! أما والحالة هذه، فلا حول ولا...

ومما يجدر بالملاحظة والاعتبار أن الكتاب بعهديه القديم والجديد لا يظهر الدين كمذهب أو كعقيدة، بل إن جل محتوياته شرائع ونواميس ووصايا واضحة كل الوضوح. فالدين فيه عبارة عن عواطف، وشعائر ومبادئ سلوك لا أكثر. إنما هي التفاسير المتباينة التي عبثت بآياته، والشروح والتعليقات التي أبعدت الناس وأضلتهم عن مبادئه وغاياته. فكأني باللاهوت يقتل الدين بكثرة ما يُفصّله ويشرّحهُ.

فالوصايا العشر مبادئ سلوك محضة... وإذا قيل إن اليهود كانوا دون الغاية المطلوبة قبل المسيح، فإن الآيات الكتابية التي دوّنت بعده، هي غايةٌ في الوضوح والحكمة.

والصلاة الربّانية التي يضرع بها المسيحيون، تشتمل على جميع الحاجيات والضروريّات الحقيقية. إلَّا أنها خالية من كل تنويه بمذهب، أو تنديد برأي لاهوتي، ولا إلماع فيها إلى شيء ما من هذا القبيل.

فضلًا عن ذلك، لو ذكر القوم أن الخطأ ليس خطيئة، وأن أمر الدين لأمر جلل، ولكنه لا يخلو من أسرار لا يستطلع طلعها، ولا تعرف دخيلة أمرها، وأن الشك والريب لا بد منهما في بعض المواقف... قلت لو ذكر القوم ما ذكرنا لأمكنهم أن يتفقوا على تفرّقهم مذاهب، ويجتمعوا على

تباعدهم عقائد. وما أحوج بلادنا إلى مثل هذين الاتفاق والاجتماع. ومن جهة أخرى، ترى أن ديانات العالم الكثيرة قد تختلف اختلافات جوهرية، من حيث المبدأ والتصوُّر المبنية عليهما. «فالوثنيون ألَّهوا الحياة، أما المسيحيون فقد ألَّهوا الموت - هذا هو الفرق بين الفريقين»[1]. فترى أن غايات الوجود لهؤلاء هي غيرها لأولئك، فالمسيحيون يتطلعون إلى حياة أبدية، والبوذيون يأملون التمازج مع «الروح العامّة» بعد الموت، بل وحتى عند المسيحيين ترى عنوان الفضيلة في عصر من العصور غيره في آخر. فالقديس أونوفريوس اعتزل الناس واستأنس بوحشة القفار وقضى ستين عامًا لا يرى أحدًا ولا يجيء عملًا. والقديسة أتلردا ما كان تغتسل قط إلا استعدادًا لعيد كنائي- وكلاهما استحقا الحرمان في نظر الكنيسة.

وقريب بنا عهد زعم بعض المتدينين أنه يجوز إحراق مخالفيهم وإهلاكهم... فكأنهم أرادوا أن يتوصلوا إلى السماء بجعلهم الأرض جحيمًا وجهنمًا... ويا له من سلوك هو ضدُّ تعاليم مسيحهم على خط مستقيم!

ويظهر لي أن توماس أكمبس يشدّد النكير على المتعمقين في دروس الدين، فهو يحذّر المتعمق بقوله:

اقنع من السرّ سرِّ الدين بالوَشل ... فهو العميق ولا يصفو لمنتهلِ
ومَن تعمق بات الشك يغمره ... فهو «الغريق ولا يخشى من البللِ»
الله يعمل ما الإنسان يجهله ... والمرء يجهل ما لله من عملِ

(١) مدام دي ستايل.

وهذا مما لا ريب في صحته، إلا أنه بالنظر إلى الآراء اللاهوتية المتناقضة المنتشرة بين ظهرانينا، يُصبح قول شاعرنا نصيحة البائس غير الآمل أن تحل تلك المشاكل والمسائل.

قال فنلون: «فكّر قليلًا، وصلِّ كثيرًا». «ولا أحسن بك من حمل ابنتك على البساطة والسذاجة في ما خص الدين، إذ حسبها أن تعرف منه ما يمكنها من الإيمان فيه والسلوك بموجبه. وإياك أن تسمح لها بالتوغّل في الأبحاث الدينية». وجوبرت أيضًا يعدّ التحقيق في الأمور الدينية فضولًا مضرًّا لا أكثر، فإنه يقول: «كم من تقيٍّ أوجده قولنا «خف الله»، وكم من كافر جاحد أوجدته «البراهين على وجود الله». وهو نفسه القائل عن الدين: «تحدث فيه ولا تحام عنه، ولا تقم حوله سورًا، ترى الناس أقل استعدادًا لمهاجمته ومحاربته».

وإنه ليستحيل على الأولاد أن يكونوا لاهوتيين وفلاسفة دين، إنما قد قيل: «لمثل هؤلاء ملكوت السماوات». ولا شك أن الكبار مطالبون بأكثر مما يُطلب من الصغار. ولكن إذا حسبنا هذه الدنيا مركزًا وقتيًّا للتجربة، فلا بدع إن كانت محلًّا للرّيب والشكوك.

ومَن يستطيع القول بأن عقولنا ولغاتنا قادرة على احتواء أسرار الوجود بأسرها؟ إلَّا أن رفض هذا القول رفضًا باتًّا لا يجدر بنا المصادقة عليه. فإن العلم طالما عمل على تعظيم قدر تلك الأسرار في نفوسنا، كأنه بذلك يشرّف الشك ويقدّسه ويصيره واجبًا عظيمًا أحيانًا، كما أنه خطأ مُبين أخرى. فالشك لا يُبنى على احتقار الحقيقة، بل على اعتبارها وقدرها حق قدرها.

قيل: العقل أشبه بالمشكاة في ظلام السجن، وكم نفتخر بكوننا نعقل ونعلل ونتفهم أسباب الأمور، ولكن ما أقل المسائل التي نحلها بالمناضلة والمجادلة! وقد يكون من تأثير الجدل أنه يحمل السامعين على الاعتقاد بأن المتناظرين كلاهما في خطأ مبين، ولكنه قلما ينتهي بتغيير اعتقاد واحد منهما. ونصف الانشقاقات النصرانية نتجت إنما عن محاولة الاتحاد عن سبيل المجادلة والمحاورة.

وفي الأمور العالمية، الصدق هو عنوان الكمال ولا أشرف منه ولا أقدس. أما في الأمور الدينية فالروح والشعور مقدم على الصدق والحقيقة. ولا مراء أن كل علم يجب أن يُواصل بشعورٍ حيّ وروح طاهرة، ولا سيما إذا كان دينيّ المبحث.

كل الديانات، فيها كثير النفع أو تقليله، وليس من دين فاسد بالكلية. وقد صدق ماكس مولّر بقوله: إن مَن يعرف دينًا واحدًا فقط، فليس بعارف دينًا. ويمكننا أن نضيف إلى هذا القول، إن مَن لا يفهم ويعتبر إلَّا دينًا واحدًا فقط، فليس يمكنه أن يعتبر دينًا قط. وصحيح غالبًا هو قول سرولتر سكوت:

ويا ليت لم يُولد على الأرض قارئٌ

يشك بما يقـــرأ وبالحق يهـــزأ

وما الدين دينًا إلَّا بقدر ما يرتفع بأفكارنا من على الأرض إلى السماء، ومن المادّي إلى الروحي النفسي.

والدين إنما هو حب الله الرحيم، وليس خوفَ الشيطان الرجيم، وإذا كنا نصنع الخير ونأتي الصالح خوفًا من الجحيم أو أملًا بالنعيم، فهل كان ذلك إلَّا حبًّا ذاتيًّا وحسابًا تجاريًّا؟ ولأن نأتي المبرة طمعًا بثواب أو خوفًا من عقاب، خيرٌ من إتيان الشر لا مشاحة، ولا سيما بالنظر إلى موضوع الصنيعة، ولكنَّ هذا لا ينفي كون الباعث المحرك مذمومًا غير محمود. فالكافر المذكور في قصيدة سر ليل يُحسب أشرف مبدأً ومقصدًا، فإنه قدم ذاته ضحية على مذبح الحق، لا المآرب الشخصية.

قال جرمي تايلور: «إن الأمور المذهبية لا تكون جزءًا من عبادة الخالق إلا بقدر ما تبعث على حفظ وصاياه وتحمل على إتيان الأعمال الحميدة، بقدر ذلك فقط تعتبر المذاهب أجزاءً حية من جسم الدين». والإيمان لا يخرج عن دائرة الحكمة طالما يمكن للمؤمن أن يقيم عليه ويحفظه من كل ريب وشائبة. إلا أنه من الخطأ الفاحش أن نزعم كما يزعم بعض اللاهوتيين... (انظر صفحة ٢١٧)، وكلنا يعلم أنه مع أن الحقائق العلمية الراهنة راسخة رسوخ البناء الشاهق، فالمسائل والمشاكل الأصلية الأساسية لا تزال أعمق مما تطول يد البحث، ولا بد لنا في أمرها من تأجيل الحكم وإرجائه ريثما استطاعت تلك اليد شيئًا فشيئًا. ولكن خطة الصبر والتأجيل هذه معدولٌ عنها متنكبة فيما خصَّ الأحكام واللاهوت. وحبذا لو اتبعت في كليهما. والكفر الحقيقي إنما هو كفر أولئك الذي مهما كانت ادعاءاتهم وأقوالهم، فإنهم يفعلون ويتصرفون كأنما لا حياةٌ أبدية تُرجى بعد الموت، كأن هذه الدنيا هي الأولى والآخرة، أو كأنهم يدّعون الاعتقاد بوجود سماء ونعيم،

ويتصرفون على اعتقاد أن تلك السماء ليست إلا مكانًا أخف احتمالًا من نيران الجحيم، لا على اعتقاد أن النعيم أجدر بالتوق والشوق من هذه الدنيا وزخارفها.

والإيمان بحسب فحوى الكتاب، إنما هو بالأعمال لا بالأقوال، كما قال الرسول بولس في رسالته إلى العبرانيين. وإذا كنت لا تسلك بحسب ما تعتقد وتؤمن، فما أنت بصادق في إيمانك واعتقادك. ولنضرب لذلك مثلًا، إن الفيجيين كانوا بالحقيقة مؤمنين بالحياة الثانية، وفي اعتقادهم أن المرء يبعث في العالم الثاني في الحالة التي مات فيها، فصغيرًا إذا توفي صغيرًا، وشيخًا لو مات شيخًا، وقويًّا إذا كان قضى قويًا، وأصمّ إذا اخترم أصمّ وهلم جرًّا. ولذلك لقد كان يهمهم جدًّا أن يموت واحدهم مالكًا لجميع قواه وحواسّه، أي قبلما تفقد العضلات شدتها، والعين حدّة بصرها، والأذن قوة سمعها. هذا كان إيمانهم وعليه عاشوا وماتوا. فواحدهم كان يعمل على قتل نفسه في زهرة العمر وربيع الحياة. وقد ذكر القائد ولكسْ أنه لم يجد في ذات مدينة كبيرة فردًا واحدًا تجاوز الأربعين سنًّا.

هذا ما أعده إيمانًا... هذا إيمان صادق بحياة بعد الموت.

ولكن إذا لم يكن اللاهوت وحيًا، فإنه بالأقل أمل ورغيبة. وقد أجاد باسكال بقوله إن للقلب عللًا ومعلولات وأسبابًا ومعقولات لا علم بها للعقل. على أنه من الأحرى والأولى أن نكل العقل وحده بآرائنا وأحكامنا؛ لأنه على نقصه أقدر دليل عل هدايتنا. ولنذكر أن هاتهِ الأسرار العميقة الهائلة التي نخبط فيها خبط عشواء تظل جديرة

بالاعتبار والوقار، ولو عجزنا عن سبر أغوارها واجتلاء أنوارها. ولأن يكون موقفنا فوق العقل خير من أن يكون ضدّه، فلقد نخطئ ونغلط مرارًا، أما كل ما هو ضدّ العقل فهو خطأ خارج عن دائرة الصواب لا يُتاح له دخول فيها. والأولى أن نعتبر اعتقاداتنا وقتية احتياطية، في كل حال. وما تصديق السرّ المجهول واعتقاده إلا قول فاسدٌ متناقض الدلالة والمضمون.

وخطاب المسيح المعروف بعظة الجبل خطاب لا نستطيع أن نمسه بتحسين أو تكميل، وإذا حاولنا أن نضيف عليه شيئًا فبكل الاعتناء ينبغي أن نقدم على ذلك.

قال جُوَتْ: «إن في اللاهوت «كلمات» غير محدودة الدلالة، وهي التي أشغلت عقول البشر لعصور بعد عصور -كلمات تُلقى وتُقبل على عواهنها- يبرهن بها الناس ويعللون أقوالهم من دون أن يعللوها ويبرهنوها[1]. وكم من التحزّبات الدينية ما قام على كلمات مبهمة المراد لا قِبَل للمتحزّبين بتفسيرها».

وقال رنان: «الديانات عبث كالفلسفات، ولكن عبث الدين ليس بأكثر من عبث الفلسفة».

ومحاولة الإضافة على تعاليم المسيح والتحسين فيها، تلوح كمحاولة العبث، بل إنها جارحة مؤلمة في ذاتها. ولا شك، لاذّة هي الأبحاث اللاهوتية، ولكنها ليست روح الدين وجوهره، بل درسه

(١) أي تلك «الكلمات».

وعلمه. وليس اللاهوت دينًا. واللاهوت رياضة يمارسها العقل. أما الدين فعاطفة يحيا بها القلب. والخلط بين الاثنين خطأ عظيم طالما أدّى إلى نتائج وخيمة. وكم سببت الانشقاقات اللاهوتية من حروب طاحنة، ومذابح جرت فيها الدماء أنهارًا، وكم من ألوف أذيقوا حتوفهم، وصرمت آجالهم، وعُذبوا ولُوِّعوا ونُكل بهم تنكيلًا - كل ذلك في سبيل اللاهوت والعقائد. ومَن سقطوا وافترسوا غنائم باردة في تلك الحروب ربما كانوا مسيحيين أو لم يكونوا. ولكن مَن ثاروا الأفكار وهاجوها باسم الحقائق اللاهوتية، أولئك لا شك أنهم لم يكونوا من المسيحية الحقة على شيء؛ إذ مَن يستطيع أن يتصور أن عيسى كان ليوافق على تلك الأفعال الفظيعة ويحلّلها- تلك الأفعال التي لا تزيد إلا فظاعة بانتسابها إلى الدين وتظللها بلوائه.

وتلك الحروب -التي تُسمَّى دينية، إنما كذبًا وزورًا- مهما عظم اعتبارنا للعواطف والبواعث التي أورت أوراها وأضرمت نارها، أجل، إنها لفي عداد الحروب الوحشية البربرية التي تأنفها النفس وتأباها. والحروب الصليبية، كثيرًا ما نعدها من باب تكريس النفس والتضحية بها، ونحسبها شريفة من أجل ذلك. والحق يُقال إنها لكذلك من أحد وجوهها. فكثير من تلك الجنود، وبعض من أولئك القواد كانوا مدفوعين مندفعين بعواطف ومحركات طاهرة وسامية ونبيلة. ولكن ما كان أجهل وأضلَّ وأشر، أولئك الذين كانوا هم المسببين البادئين لتلك المشاغبات الرائعة التي تحولت إلى هذه المعارك الهائلة! «انظروا انظروا إلى التعصبات، إلى الاضطهادات، إلى الحروب الدينية، إلى

الجنون الدموي الذي لم يحسبهُ الأقدمون جنونًا. واذكروا الحروب الصليبية، تلك المذابح والمجازر التي أجرت الدماء غدرانًا وأنهارًا، مدة مائتين من السنين الطوال، واذكروا تلك العبارة التي كانوا ينشدونها ويترنمون بها -هكذا يريد الله- ثم انظروا إلى الغاية التي كانوا يتسابقون إليها -امتلاك قبر مَن علَّم الناس الحبَّ والتسامُحَ. واذكروا فظائع طرد اليهود والمورة من إسبانيا، وقرض تلك الأقوام عن بكرة أبيها. وانظروا إلى برك الدم وخلجانه، إلى تلك المحاكم (الهرطقية)... إلى فتوحات المحمديين في ثلاث من قارّات الأرض، أو فتوحات المسيحيين في قارة أميركا، تلك الفتوحات التي أفنت أهالي كوبا عن آخرهم، وكادت تفني القسم الأعظم من سائر السكان والمتسمين مسيحيين، في نحو ٤٠ من السنين قتلوا ١٢ مليونًا من النفوس - كل ذلك في سبيل انتشار إنجيل المسيح، ولأن القوم حسبوا كل ما خرج عن المسيحية خارجًا عن الإنسانية أيضًا...»[١].

وحتى في بلادنا، نحن الإنجليز، ترى اللاهوت مقسمًا الدين وأبناءه إلى شيع وأحزاب متضادّة متعادية[٢].

وكم يلذ لنا أن نعرف عن كيان الكون أكثر مما نعرف! إنما لنقنع بما عندنا ولنتجمل صابرين. وإني لأشعر مع القديس أوغسطينوس القائل: «ليتناضل الناس فيما بينهم، أما أنا فأتأمل وأتعجّب».

أما الرغبة في الأبحاث اللاهوتية من حيث اعتبارها أساسًا للدين،

---

(١) Schopenhauer.

(٢) أخي الشرقي! كيف أنت والتعصب الديني يا ترى؟ المعرب.

فليس يُنكر وجودها ولا بد لنا من تعرّفها والاعتراف بها. وبين جميع الكنائس، لا كنيسة تظهر لي أوسع نطاقًا، وأكثر تساهلًا وتسامحًا أو أميل إلى التقدم، أو أكثر حريّةً وشمولًا، من كنيسة الأمة»[1].

قال هكسلي: «لا يشق عليَّ أن أتصور قيام «كنيسة»[2] تكون بركة شاملة لأبنائها، كنيسة تقام فيها العبادات أسبوعًا فأسبوعًا، إنما لا لأجل تكرار تلك الطقوس اللاهوتية الرمزية، بل لأجل نصب مثال إزاء أعين العابدين، مثال المعيشة الصادقة الطاهرة، كنيسة يدخلها المعبون من أحمال الحياة اليومية فيشعرون براحة زمنية بتأمل تلك الحياة العليا التي لا يعرفها إلا القلائل المعدودون، كنيسة يدرك فيها رجل الجد والمجاهدة، رجل المال والأعمال، حقارة الجزاء والمكافأة التي ينالهما لقاء كده ونصبه؛ إذ يقابل بينهما وبين «السلام» و«الإحسان». ولأؤخذ بقولي: «لئن قامت كنيسة على هذه الدعائم، فلا يقوم لها ناقض ولا هادم».

(١) المذهب الإنكليكاني: مذهب الحكومة الإنجليزية.
(٢) قد تستعمل الكنيسة بمعنى المذهب.

الفصل السابع عشر

السلام العقلي

سلام المرء العقلي منوط به- الاضطراب الذي في غير محله- النوم والهموم- الهجس بالمصائب- مثل شرقي- قول جنسن في الإهانة- الفضول- المصاعب- القلق والأعمال- مكتبة مستر جلادستون- عمل المرء لذاته وعمله لغيره- العالم- الوصايا- الحياة الصالحة- الريب- الديانات- المضادة- الوعود الكتابية- السلام.

كثيرًا ما يُشبَّه السلام الدولي بالسلام الأفرادي، وهو تشبيه قريب من جملة وجوه؛ فهو صحيح أن حفظ السلام أفضل من ربح معركة، ولكنَّ هنالك فرقًا مهمًّا، فالأمة مهما كانت رزينة وعادلة، لا تروم افتراء ولا اعتداء، فقد يتعذر عليها أن تحمي علم السلم من التنكيس؛ ذلك لأنها قد تُبلى بأمة مجاورة متاخمة لها، تكون ثائرة، ذات مطامع، عديمة الرزائة، لا ترعى للجوار حقًّا ولا تحفظ ذمامًا، فتناصبها العداء وتشهر عليها الحرب عوانًا.

أما السلام العقلي فلا أحد يستطيع أن يُعكّر صفاءه وينكّس لواءه، إلا صاحبه نفسه. ولا شك أنه قد يصعب أحيانًا أن نسوّي بين الأمور تمام التسوية: «لقمة يابسة ومعها سلامة، خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام. حفنة راحة خير من حفنتي تعب وقبض الريح. القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع هم. أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعهُ بغضة»[1].

وكثيرًا ما يُتعس الناس النفس ويُشقونها بتعليقهم كبير الأهمية على الطفيف غير ذي البال من الأمور. وكم يتفق أنه، بينا ينابيع السعادة الرئيسة مترقرقة في مجاريها -أي إذ الجسم بصحته، والأهل والخلان

(١) أقوال لسليمان الحكيم.

على غاية ما يرام، والدخل فائض عن الخرج، ولا داعي حقيقيًّا للقلق والاضطراب- قلت، بينا هذه هي أحوال المرء، فقد تبدو له طفيفة حال، أو يزل زلةً صغيرة، أو قد يغلب في لعبة في بيته، أو يسبقهُ القطار من المحطة، أو تُوجه إليه «ملاحظة» تنكيتية أو انتقادية.. فتنسدل غيمة كثيفة فوق شمس حياته وتظلم الدنيا في عينيه -بل قد يخيم فوقه مثل تلك الغيمة دون أقل سبب من مثل هذه الأسباب الظاهرية الوهمية. فالعقل عرضة للمرض كالجسم وكم يضعف ويمرض. أما شفاؤه فضروري كشفاء الجسم، ولكنه أصعب منه معالجةً ومراسًا.

ومهما كَثُرَتِ المصائب وتعددت، فإنها قد تظل أقل من أن تسبب لنا حزنًا واحدًا عظيمًا، إذا كنا نأبى أن نجمعها بعضًا إلى بعض. فالمصائب يجب أن تحفظ كلٌّ على حدة، وتعالج كلٌّ لذاتها؛ لأن مصائب الحياة أشبه بالعصيّ المذكورة في «حكاية الشيخ وأولاده»، تلك العصي التي إذا فرّقتها كسرتها واحدة واحدة، وإذا جمعتها وضممتها معًا ضقت بها ذرعًا وعجزت عن كسرها.

وكل يستطيع أن يُسعد فردًا -هو ذاته- إذا عرف من أين يأتيه. وليحرص كل إنسان أن يدع فكره في سلام وطمأنينة خاليًا من الهواجس والمطامع. والمرء وحده يستطيع أن يفعل هذا بنفسه، وليس لسواه أن يساعده بشيء في مثل هذا من أمره. «مَن لا يجد الراحة في داخله، فعبثًا يبحث عنها خارجًا».

هـــذا فـقـيـر إنـــمـــا أحـــلامـــه ذهبية فهو القنوع وذوى الغنى
ذاكـــم غـــنـــيٌّ إنـــمـــا أفـكـــاره توليه أتـعـابًـا وتـولـيـه عنا

والليل يكبر أشباح المصائب ويزيدها طولًا وعرًا. فكم مرّة يخيم الظلام، ويسود السكون، وإذا بالمخيلة ملأى من الأفكار المتراوحة، والدماغ التعِب رغمًا عن تعبه يشتغل ضد إرادتنا ويدعو المصاعب الوهمية، ويحاول حل مشاكل لا حلّ لها، ويستحضر الأرواح والأشباح، أو لعله يقتصر على تعداد وتكرار ما لا نهاية من تكراره وتعداده – فنتمنى إذ ذاك لو نستطيع غرقًا في بحر السبات، أو نبيت ولسان حالنا قول الملك هنري (انظر صفحة ٤٦).

إننا لنعذب أنفسنا أكثر مما يستطيع الغير أن يعذبونا. وأنكى المصائب تلك التي لا تقع ولا تحل بنا مطلقًا. ولنذكر أننا بقدر ما ننسى أنفسنا ونهتم بالآخرين كذلك تزيد سعادتنا ويتوفر هناؤنا. وقد قيل: «لا يرتاح المرء إلَّا بنسيانه نفسه». فضلًا عن ذلك إننا كثيرًا ما نعذب النفس باطلًا وعبثًا. قال شيشرون: «من الجهالة أن تقرَّ فكرك على بلية ربما تأتي، أو على بلية قد لا تأتي أبدًا. فكل بلية إذا نزلت بالمرء أثقلتهُ همًّا وحزنًا، وأما مَن لا يفتأ يعتقد أن البلايا ستدهمه، فما هو إلا محمّل نفسه من البلايا ما ينوء به ويرزح تحته. وبلاياه قد لا تقربه بأذًى ولكنه من جرّاء توقعه لها وحسبانه لحلولها يفقد هناءه وراحة باله، حتى كأنها أثقلت منكبيه وهدت عاتقه». والمصائب التي تلمّ وتنزل، قد لا نزيد خطبها إلَّا جسامة بصرف جملة قوانا الفكرية إليها وزيادة التحديق فيها. «والموت إذا كنا لا نفكر فيه أسهل من الخوف حيث لا خطر يتهدد».

يقول المثل الشرقي: «مَن يدخل بيت السعد من باب المسرة، يخرج منهُ من باب الارتباك والحيرة»، «والخطيئة، هي شرُّ استعباد في العالم؛

فإنها تذلُّ نفس المرء وتحطها إلى الحضيض، بل تتركه دنيئًا ووضيعًا لدرجة أن يُعدم شجاعة ينهض بها وينجو من سقطته».

ومهم هو رأي الآخرين فينا، أما رأينا في نفسنا فأكبر أهمية.

ولماذا تُرانا نسلط الغير علينا؟ أو لماذا نسلم قيادنا لشهواتنا وأهوائنا ونبيت عبيدًا لها وأسرى؟ والمثل الشرقي يقول: «الخجل عقيب الجهل، والندم عقيب الغضب». وهاك نصيحة الدكتور جنسن: «غض الطرف عن الإهانة واطوِ عليها كشحًا. فهيهات للحماقة أن تستحق حقدًا. وأفضل عقاب على الشر، إهماله وإغفاله». وإذا كنا نبدي اجتراحنا وانقباضنا فلا نكون إلا مظهرين نفس ما يتمنى العدو، كأننا بذلك نكسبهُ نصرًا وفخرًا. وبالعكس إذا قابلنا هجومه بابتسامة، ولو تكلفًا وسخرية، فإنه يشعر إذ ذاك أنه هو المغلوب المدحور.

وقد قال توماس أكمبس:

إذا أنت خلّيت الأنام وشأنهم تراهمُ قد خلّوك أنت وشأنكا

وهو القائل:

إذاالمرءلم يحمل من الناس أقوالا وهذرًا وأعمالًا وشأنًا وأفعالا
غدا مستريحًا ذا سلامٍ مكملٍ وعاش سعيدًا ليس يُشغل بالا
وأنّى لذيّاك الفضوليِّ راحةٌ! كأني به ساعٍ يروم مُحالا

وكأني بالذين ينعكفون على أمورهم وينصبون عليها انصبابًا، يكرّسون تلك الأمور ويكرّسون ذواتهم بتكريسها[1]. وليست العبرة

(١) كلمة المؤلف هنا قد تتضمن معنى التقديس أيضًا.

الأولى بنوع العمل، بل بالطريقة التي يتمم عليها. ولما سُئل تُرنرْ عن سرّ نجاحهِ في دنياه، قال: «إنما السرّ- الكد والجد». وإذا كان المرء يرغب في سعادة الناس، ولا يمر عليه يوم لا يأتي فيه شيئًا من الخير، فكيف لا يكون سعيدًا.

لا أفراح من دون أتراح، في هذه الدنيا. وما كانت الحياة إلَّا لتملّ لولا ما فيها من الصعوبات التي نتحرك لتجاوزها. والألعاب لا لذة فيها إلَّا ما يشعر به كلا الرابح والخاسر؛ إذ هما يتنازعان جعالتها ويتباريان إليها. والنصر لا يُعد نصرًا إلَّا إذا كان الخصم من أهل الضراب والطعان وابن المضمار والميدان.

وسواء رضينا أم لم نرضَ، ما الحياة إلا امتحان، يكرم فيه المرءُ ويُهان. وليس من عذاب نقاسيه ولا نستفيد مما فيه. وقليلة هي اللعنات التي إذا تدبرناها لا نجدها بركات في غير زيها. والغلطة إذا كانت غلطة شريفة (أي آتية عفوًا) فقد لا تنتج سوءًا، بل ربما أتت كمثالة مفيدة، وانقلب شرها خيرًا.

ومن كان غنيًّا وكان شديد القلق على أمواله، فما ذلك لأنه ربّها ومالكها، بل لأنه عبدها ومملوكها. ومن الجهل أن يتعاطى المرء عملًا لا بد معه من القلق والاضطراب. بل إن ذلك العمل لا يكون تجاريًّا حقيقيًّا، بل محض «مضاربة»، ونسبتهُ إلى التجارة كنسبة التنجيم إلى علم الفلك.. ولا يخفى أن العمل الذي يظهر سليم العاقبة في أول الأمر قد يكون وخيمها في آخره. ولست لأقول إن التاجر يمكنه أن يسلم من القلق والاضطراب؛ فالخسائر وحتى الخراب الكلي قد تدهم

حتى الحازم البصير - إنما هذه طوارئ حدثان، وليست من الملحقات اللازمة لضروب التجارة. فالفلاحون مثلًا ليسوا «بمضاربين» ولا يعهدون عرضة للهواجس والاهتمامات، ولكنها تنتابهم في أوقات القحل وأوقات الطوفان، وحينما تهبط الأسعار أو تمحل الغلال.

ورغمًا عن ذلك، فإنه ممكن -ولست لأقول «سهل»- أجل ممكن للمرء أن يعيش بخلو البال وسلام النفس، حتى في وسط كثرت حركته وعلت ضوضاؤه. ومن وجد الأمر مستحيلًا، فخيرٌ له أن يعتزل الأعمال[1] والحركة ويلزم سكون بيته؛ إذ ماذا يجديه أن يُهلك «نفسهُ» فدًى للأصفر الرنّان.

بعض الناس يجدون راحتهم في الحركة، وبعضهم يكونون على أشد ما يكون من الحركة، إذ هم في حالة الراحة والسكون.

وليس يتسنى للمرء أن يضمن لنفسه السلام وراحة الفكر، بمجرد اعتزاله عالم الحركة واختلائه في كوخ في البرية. فربما كانت صغار الأمور مسببة للقلق والاضطراب كالأعمال التجارية والشؤون السياسية. وإذا خلا الفكر امتلأ الضمير. والسلام إنما هو سلام الفكر. وإذا كان العقل في ارتباك وهيجان، فلا سلام ولا أمان. وجلادستون ذلك الرجل العظيم الذي لم يتفق لرجل آخر أن يوجد في محيط أشد ضوضاء من المحيط الذي عاش فيه، كان إذا خرج من مجلس النواب أودع ضمن جدرانه كل مشكل وكل مُهمة، وأتى منزله خِلوًا من كل هم، وكان يطلق على مكتبته اسم «هيكل السلام». فإذا كان وزير إنجلترا الأكبر، على

(١) يريد المؤلف بالأعمال «التجارية» منها.

عظم المسؤولية التي كانت ملقاة على عاتقه، قدر أن يجعل بيته هيكل سلام، فبالأحرى أن يقدر كل إنسان سواه أن يجعل عقله معبدًا للسلام مقدسًا.

والسلام البيتي مترتب على أهله وسكانه، وسلام كل فرد منوط به لا غير. قال هَايْر: «جرت العادة في رومية أن العروسين يحضران أول قداس في حياتهما الجديدة في «كنيسة السلام- كنيسة القديسة مريم»، ويضرعان إليها أن تنشر لواء السلام فوق حياتهما الزوجية».

وربما كان العائشون في القرى والحقول أقوى من سكان المدن على احتمال المزعجات البيتية العائلية. أما التجار وأصحاب المعامل الذين يقضون النهار بطوله بين الدفاتر والمناضد، فمن الضروري لهم أن يخصصوا قسمًا من وقتهم لأجل الخلو والراحة بعد ذلك الانهماك والتعب؛ فإنهم يستمرون مع توالي الساعات وفكرهم في الريالات والجنيهات، بل وفي البارات والمليمات، إلى غير هذه من المتعلقات والملحقات. ولنذكر أن سرّ النجاح إنما هو في التأني والسكينة، وتبعًا للمثل الصيني «الصبر والمثابرة يصيران ورق التوت حريرًا يُلبس».

وهنالك ثلاثة أشياء لا تُشترى ولا تُباع: الصحة- السعادة- السلام. ولكن مع أن هذه الثلاثة أثمن من أن تُثمن وتُشرى، فإنها قريبة المنال من كل إنسان يريد أن يقتنيها لنفسه، وما عليه إلَّا أن يريد ويختار.

يزعم البعض أن لا سلام في الحياة، وهو زعم بعيد عن محجة الصواب؛ فقد قال ماركوس أوريليوس: «عِش مع الآلهة! وكل امرئٍ يعيش معهم، إذا كان يظهر لهم أن نفسه مرتاحة إلى الفروض المعينة له،

وأنها لا تحيد عما يريده «الملاك الحارس». وهذا الملاك الحارس إنما هو فهم المرء وعقله لا غير».

وكلنا يعلم كم يسهل على المرء أن يشقي نفسه بنفسه. أكثر من الأكل والشرب، وقلل من الرياضة وانتشاق الهواء النقي، تسبب لنفسك علة سوء الهضم وتبيت عالة على عائلتك. أو اصرف أكثر مما تدخل - أو بت حسودًا، وسوّاء الظن، أو محبًّا للذات، أو عديم الشرف والمبدأ... أجل لا أسهل من ذلك. ولكنه ليس بالسهل أن يسعد المرء نفسه ويصبح بركة شاملة لكل من حوله- على أن ذلك من الممكنات.

وإذا كنت تشتغل لأجل نفسك فقط، فلا تسلم من الشعور بانحطاط قواك وخوار عزمك، بحيث تقول مع سليمان: لذلك كرهت الحياة؛ لأن العمل الذي يعمل تحت الشمس يحزنني؛ لأن الكل باطل وقبض الريح. ولو أن سليمان صرف همته إلى إسعاد شعبه وعمل على إنارة ظلماتهم، لكان عاش سعيدًا وكفي مؤونة الندم على إتعابه.

وقد صدق ستيڤنسن بقوله ألَّا أحد يكون عديم النفع طالما له صديق. ولكن لماذا يكون المرء عديم النفع على حين المحتاجون إلى المساعدة كثيرون؟ والمرءُ قد يكون حقيرًا وضيعًا، ولكن ذلك لا يمنع من إتيانه نفعًا يذكر؛ فالفارة على ضعفها خلصت الأسد مرة من حبائل الموت.

إننا عائشون في عالم جميل جدًّا، ولكن قليلة هي الصالحات التي تُنال عن غير سبيل الاجتهاد، فإنه ليس بعالم يُفلح فيه خوَّار العزم وسريع الفشل. الثبات والكد والجد- هذه هي الطريق إلى النجاح ولا

بأس من ذلك، فإن الشغل ضروري من أجل السلام العقلي ومن أجل الصحة أيضًا.

والوصايا العشر، هي قواعد ذهبية يجدر بنا أن نسلك بموجبها في جميع تصرّفاتنا الأفرادية والأهلية، بل إنها أوامر يجب أن نصدع بها سواء أثابتنا السماء أو عاقبتنا جهنم؛ لأن اتباعها يؤول إلى خيرنا في كل حال.

والأتعاب التي نُمنى بها ليست في طبيعة الأمور التي نتعاطاها، ولا هي تأتينا من الخارج، بل إنها منا وفينا. وإذا هبَّت عواصف العالم، فلا غيرنا مَن يثيرها، ومن ثمَّ وجب علينا نحن أن نتقيها ونتحفظ منها صابرين. فالمصائب لا بدَّ لنا منها، إنما ينبغي لنا أن نقابلها بما عندنا من البركات مما يوازيها ويرجح عليها. وكل ما هو مطلوب منا عائدٌ علينا بالنفع لا محالة، وكل مُنكرٍ منهيٌّ عنه لا حكمة في فعله ولا صلاح. فذو الحدّة والنزق يشقي نفسه بنفسه - والبخيل العائش بالتقتير لا يذوق لمنفعة ماله طعمًا. والنهم والسكير يتركان ملذة الأكل والشرب الطبيعية سببًا للشقاء والانحطاط - ومَن يشتغل سبعة أيام في أسبوع تنحط قواه ويقصّر عن شأوه - والجاهل والكسول لا يعرفان شيئًا عن عالمنا الجميل، فتفوتهما ملذات الفنون والآداب والعلوم - وعديم الحنان ومحب الذات لا يشعران بنعمة ثقة الأصدقاء والأقرباء ولا ببركة المحبة المتبادلة. والرجل الطالح يستمر على انحطاطه وسقوطه من يوم إلى يوم، فلا يعتم أن يرى نفسه ألعوبة بين أيادي

الشقاء والأعداء، بعدما يكون قد أتلف عقله وجسمه جميعًا، فينتبه إذ ذاك لأمره ويُلفت نحو المستقبل فلا يزيد شقاؤه إلا شدّةً وأهوالًا. وبعكسه الصالح فإنه على توالي سنيه يرى الحياة أكثر سهولة وأوفر سعادة، يعيش وضميره على سلام، وأفكاره وتذكاراته سعيدة وجميلة، ويرى نفسه مُحاطًا بالأصدقاء الأوفياء، عائشًا في بيت تخفق فوقه أعلام السلام والسعادة.

دع ندى اللطف يُرطب لك طريق الحياة، فلا تعود عيناك تقذى بغبارها. وكن شديد الحكم على نفسك، وكثير التساهل مع الآخرين. «وإذا دعا داعي الموت فعندئذ لا نندم على الحلم، بل على الشدّة والظلم». واللطف في المعاملة أفعل من العنف. وجرّب دائمًا أن تحسن الظن في الناس واعتبرهم موضعًا للثقة، فقد تحملهم بصنيعك هذا على الأمانة وصدق النية وسلامة الطوية.

وربما استحال علينا أن نعرف من أين أتينا وإلى أين المصير، ولكن قلوبنا لا تشكُّ في أي هو الواجب وأي هو الحق. فلنصغ إلى صوت الضمير ونعتبر كلًّا أمره ونهيه.

قيل إن قرويًّا سمع مرّةً عظةً جدليةً قصد فيها الواعظ أن يبرهن وجود الله، وبعد أن استوعبها جميعًا قال إنها حافلة بالأفكار العلمية، ولكنها لم تحدث به تغييرًا، فإنه ما برح يعتقد وجود الله كما كان من ذي قبل. وكم أشكُّ أن الأبحاث اللاهوتية تعمل على تثبيت الدين وتقوية عوامله. وقد قال أحد القديسين: «أتجذبني إلى ذاتك يا إلهي؟ ولست لأحبك أكثر مما أحبك طمعًا بالسماء، ولا لأخافك أكثر مما أخافك خوفًا من الجحيم».

قالت مدام دي ستال: «إذا أردنا تسكين ثائر النفس، فلنقدم لها ما يميل بها عن مزعجاتها ويبعدها عنها، عوضًا عن مقاومة مسببها ومحاربته – هذه هي الطريقة المثلى».

لو أننا ربنا نلقي عليك عـنًّا به ننوء إذَنْ ما كـان أسعدنـــا

كنا نعيش وترعانا بحكمتها عين الذي أوجد الدنيا وأوجدنا[1]

واذكروا وعوده تعالى: «لا تخشى من خوف الليل ولا من سهم يطير في النهار، ولا من وباء يسلك في الدجى ولا من هلاك يفسد في الظهيرة»[2]. «ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر ببال إنسان ما أعدّه الله للذين يحبونه».

وقد قال المسيح: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم». ولكن لا سلام للأشرار يقول الرب. فاضطرابهم عاقبة خطاياهم.

كالراحة للجسد، كذلك السلام للعقل. والسلام أنواع: فسلام داخلي، وسلام خارجي، وسلام أبدي، وسلام مع الناس، وسلام مع الله، وسلام المرء مع نفسه. قال فنلون: «اطلب الله في داخلك تجده لا محالة، وتجد الفرح والسلام معه. وإن كلمة من المسيح سكنت ثائر البحر وهائجه، ولنظرة واحدة منه تفعل بنا مثل ذلك». وإذا كنا لا نفلت من قبضة القلق والاضطراب، فما ذلك إلا لأننا لم نسلّم على مواطن السلام ولا تعرّفناها.

---

(١) ترنيمة ٢٧٦.

(٢) المزمور: ٩١ – ٥.

ولكن بينما نحن نصلي قائلين: «لتكن مشيئتك» نعيش ولا نفعل إلا مشيئتنا.

والرسول بولس يأمرنا قائلًا: «افرحوا في الرب كل حين، وأقول أيضًا افرحوا. ليكن حِلمكم معروفًا لدى جميع الناس. الرب قريب. لا تهتموا بشيء، بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله».

الفصل الثامن عشر

السلام الدُّوليّ

حالة أوروبا الحاضرة- مصاريف التسليح والتجنيد الفاحشة- التحكيم- غمبتا- أهوال الحروب- بطلاتها - مصالح الأمم المشتركة- مقابلة بين البحريات- مقارنة بين أوروبا والولايات المتحدة- سياسة أوروبا- الحواجز الدولية- تأخير التجارة- الاتحاد الأوروبي- لورد سالسبوري- مستقبل أوروبا.

سلامة البلاد ليست بسلاحها ولا بثروتها، بل بأصدقائها - سلست.

إن حالة أوروبا الحاضرة لخطرٌ وعار علينا جميعًا. ولقد تعذر القبائل البربرية أن تحلّ مشاكلها بحد السيف وسنان الرمح، أما تعويل الأمم المتمدنة على الحروب فمغاير لأدب النفس ومخالف لسلامة الطبع. فحتى معدّات السلم اليوم تشتمل على ٤ مليون نفس، أما مُعدّات الحرب فتزيد عن ١٠ مليون، وإذا تمت المشروعات المعروضة بلغ عدد النفوس ٢٠ مليونًا ونيفًا. أما المصاريف المقرّرة فتبلغ ٢٥٠ مليون جنيه وأكثر. فضلًا عن ذلك لو شغلنا أولئك الـ ٤ مليون من الرجال وحسبنا معدل نتيجة الواحد منهم ٥٠ جنيهًا، لأضفنا على الـ ٢٥٠ مليونًا المذكورة ٢٠٠ مليون أخرى من الجنيهات، فكان مصروف أوروبا الحربي ٤٥٠ مليون جنيه سنويًّا.

والمقارنة بين قوات الدول ومصاريفها صعبة جدًّا، ولكنها غير مستحيلة. وإليك جدولًا إحصائيًّا للبريات والبحريّات في أوروبا وأمريكا.

المملكة	تحت السلاح	المصروف السنوي
إنجلترا	٤٢٠٠٠٠	٦٥٠٠٠٠٠٠ جنيه
روسيا	١١٥٠٠٠٠	٤٦٥٠٠٠٠٠ جنيه
ألمانيا	٦٦١٠٠٠	٤٣٨٠٠٠٠٠ جنيه
فرنسا	٦٢٠٠٠٠	٤١٠٠٠٠٠٠ جنيه
النمسا	٣٨٤٠٠٠	١٩٤٠٠٠٠٠ جنيه
إيطاليا	٣٠٥٩٠٠	١٧٠٠٠٠٠٠ جنيه
إسبانيا	١٠٠٠٠٠	٦٧٠٠٠٠٠ جنيه

أسوج ونروج	٧٣٠٠٠	٤٨٠٠٠٠٠	جنيه
تركيا	٣٧٠٠٠٠	٤٨٠٠٠٠٠	جنيه
هولندا	٣٥٠٠٠	٣٦٥٠٠٠٠	جنيه
بلجيكا	٥٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠	جنيه
البرتغال	٣٤٠٠٠	٢٦٠٠٠٠٠	جنيه
سويسرا	١٤٨٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠	جنيه
اليونان	٢٣٠٠٠	١٢٠٠٠٠٠	جنيه
الدانمارك	١٤٠٠٠	١٢٠٠٠٠٠	جنيه
بلغاريا	٤٣٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	جنيه
الولايات المتحدة	١٠٧٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠٠	جنيه

وهذه الخسائر الجسيمة من نفوس وقوى بشرية، ليست لتسد فم المطامع المفغور، بل إننا لا نزال نبني السفن الحربية ونجند الشبان. ولا يخفى أن هنالك اعتبارات أخرى هي أهم وأسمى من أمر المال في هذا الشأن، ولكن المال نفسه عبارة عن عرق الجبين ودم الشرايين، اللذين يراقان بتحصيله. ولا ندحة لمن يتأمل معدات هذا العصر الحربية، البرية والبحرية منها، عن الشعور المحزن بسوء المصير. وهب أنها لن تستعمل في حرب، أفلا يكفي أنها قد تؤول إلى عجز الأمة، وخرابها الماليّ؟ فديون الدول الأوروبية المشهورة تتزايد وتتعاظم سنةً فأخرى. فأثناء الثلاثين سنة الأخيرة كانت:

	جنيه		جنيه
ديون إيطاليا	٤٨٣٠٠٠٠٠٠	فبلغت	٥١٦٠٠٠٠٠٠
ديون النمسا	٣٤٠٠٠٠٠٠٠	فبلغت	٥٨٠٠٠٠٠٠٠
ديون روسيا	٣٤٠٠٠٠٠٠٠	فبلغت	٧٥٠٠٠٠٠٠٠
ديون فرنسا	٥٠٠٠٠٠٠٠٠	فبلغت	١٣٠٠٠٠٠٠٠٠

وإذا جمعت ديون حكومات العالم جميعًا لسنة ١٨٧٠ بلغت ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه - ويا له من حملٍ تميد به الجبال ثقلًا!

ولكن انظر ما أجسمه اليوم، بعد ما بلغ ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه، ولا تنسَ أنه أبدًا متزايد متعاظم.

قال سياسي ياباني: لما كان أبناء وطني لا يصدرون إلَّا الأشغال اليدوية الجميلة، كانت أوروبا تنظر إليهم نظرها إلى الشعوب البربرية، أما اليوم وقد قتلنا عدة آلاف من الرُّوس، فإنها تعترف بأننا حقيقة أمة متمدنة.

يُقال إن كل أمة تغار على مصالحها ويجب عليها أن تحميها- ولكن أعظم مصلحة للأمة إنما هي «السلام». وإذا ذكرنا الحرب فغالبًا ما نتصوّر أُبهتها ومظهرها، من ألحان موسيقية وملابس رسمية، أما الحراب التي تقطر دمًا فقلما تخطر ببالنا. ومخيف وهائل هو تأمُّل مشاهد الحرب والقتال. ومَن يقرأ وصف الحرب الروسية- اليابانية ولا يشعر بهزة الرحمة ورعشة الرعب؟

فضلًا عن ذلك، إن الحروب لا تنتهي بنجاح أو أرباح طالما المسألة هي أي المتحاربين أجسم خسارة من الآخر. وكما قال ألديوك أوف ولنجتون: «لا شيء إلا معركة خسرت، يوازي نصف الأسف لمعركة تربح. ولا شيء أتلف للبلاد من حرب تنجح فيها، إلَّا حرب لا تنجح فيها».

«حيثما تحلّ الجيوش، هنالك ينبت القتاد والشوك. وفي الطريق

التي يمرُّ فيها الجيش الكرّار، ستمرُّ وتكرّ سنوُّ الخراب والدمار». ڤيكتور كوزان[1]، في مقدمته لتاريخ الفلسفة، يذكر الحرب ويقول إنها آلةُ التمدن، ولكنها آفته أيضًا. ويقول أيضًا إن الحرب مؤسسة على صخرين هما - ساحة القتال، وخلوّ المجلس[2]. وإذا رمت الحقيقة عن الحروب، فقل إن أهوالها لا تبرح تحلُّ محل بركات الفكر والسلام. وما النصر إلَّا الغلبة تحت مظهر آخر. وملتون يقول: «مَن يغلب خصمه بالقوة، فما هي إلا نصف غلبة». وإذا رمت قولًا ألمانيًّا في هذا الصدد، فإليك عبارة شلي: «العدوُّ المغلوب قد يشتدّ وينازل ثانيةً، أما المُصالح فهو المغلوب غلبة حقة». وجوبرت الكاتب الفرنساوي يقول: «ما أخذ بالحرب، بالحرب يُؤخذ، وكل سليبة تستردّ يومًا، وكل غنيمة تنتثر هباء، وكل الغالبين يغلبون، وكل مدينة مملوءة غنائم تؤخذ وتغتنم في دورها». والتاريخ مؤيّد لهذا القول تأييدًا صادقًا، فكم من دول اشتهرت بغلباتها وغزواتها، ثم دالت وانقرضت وصارت خبرًا يتداول.

وهلّا نستقلُّ مصائب الحياة وأخطارها وبلاياها حتى نعمل على إيجاد سواها؟ وهل تعوز الطين بلة، والطنبور نغمة؟ فها الفقر مضروبة أطنابهُ ومرفوعة قبابه - والقحل والمحل مما يجب علينا أن ننتظر ونتوقع- وتقلبات المناخ، وعجز المناجم، والاكتشافات الجديدة،

(١) Victor Cousin.

(٢) يريد المكان الذي يجتمع فيها أرباب السياسة.

وتراوح التجارة بين زيادة ونقصان، وزد تغيرات العوائد والأزياء- كل هذه قد تجر خسائر جسيمة وبلايا شديدة. أما أشد الرزايا التي قد تفجع بها الأمم فهي تلك التي تجلبها بعض على بعض «وكأنما الشعوب تحب المخاطر والأهوال، حتى إذا أعوزتها أوجدتها لذاتها».

ولقد قام، لحسن الحظ، في السنين المتأخرة، شعور شريف في هذه الجزيرة وفي القارّة[1] أيضًا، هو الشعور بوجوب تحسين العلائق بين الدول الأوروبية جميعًا - ولكن المسألة ليست مسألة مجرد شعور، بل إنها ضرورة أولية، وحاجة ماسة يجب الإسراع إلى سدها. ونقول «البلاد الأجنبية» وفي الواقع ليس من بلاد أجنبية بعد. إن مصالح الأمم مشتبكة متداخلة بعض في بعض، بحيث كل ما ينال الواحدة يؤثر على الأخرى إن خيرًا وإن شرًّا.

إن أموال أوروبا مفرّقة موزعة في جميع أطراف الأرض، والتجار الأوروبيون لا يخلو منهم قطر أو مصر، وقد مددنا الخطوط الحديدية وبنينا المعامل في كل بلاد تقريبًا.

ولا يسعنا إلا أن نتحسر ونتأسف لو جئنا نحسب الخسائر التي جرّتها الحرب الروسية على روسيا وسائر البلاد الأوروبية؛ فأموالنا المشغلة في الأرجنتين وحدها تبلغ ١٥٠ مليون جنيه، حتى قد يصح القول إنها مستعمرة إنجليزية. وحريق سان فرانسيسكو وحده كلف شركات ضمانة الحريق الإنجليزية فوق الـ ١٤ مليون جنيه.

---

(١) الجزيرة يُكنى بها عن إنجلترا، والقارة عن أوروبا عامة.

ولا إخالنا ندرك مقدار ما يهمنا ويوافق مصلحتنا أن تكون البلاد الأجنبية مفلحة وفائضة خيرات. فإنها تعاملنا، ونحن نعاملها، وهو معوم إنه إذا «صحت الغلال» في الخارج، هبطت أسعار ضروريات الحياة عندنا وارتفعت أجور العمال.

ولنذكر الخسائر التي لحقت بنا وبالأحرى بشركات الضمانة من الحريق الإنجليزية، من جرّاء نار أسطولنا في حرب القرم، وعلى أثر غزوات الألاباما، فالأخيرة وحدها كلفتنا ٣ مليون جنيه تعويضًا للحكومة الأمريكية.

قال لورد دربي مرة إن السلام هو أكبر المصالح الإنجليزية، وهو كذلك، ولكنهُ لا يكفي أن نكون نحن فقط على سلام، بل يجب أن تكون الممالك الأخرى مثلنا أيضًا، فالسلام ليس مصلحتنا الخاصة فقط، بل إنه مصلحة كل مملكة.

وإذا كانت الدول الأوروبية لتبقى تلقي العثرات بعض في سبيل بعض، كما قال مرة سفيرنا في باريس، فلا ندحة عن مؤدّى الحال. ولكن تحسين الحال، ليس من المحال. فخذ فرنسا وإنجلترا مثلًا: فحتى الآونة الأخيرة، ظل نفور الشعبين المتبادل شديدًا لا يكاد يُطاق والشر كل الشر من الصحافة التي كانت تبثُّ تلك الروح الخبيثة بأقاويلها وتمويهاتها. أما اليوم فقد أزيل سوء التفاهم، وصارت الحالة أحسن منها سابقًا، بحيث إذا عرض لنا مشكلٌ وأقبلنا عليه من طريقة ودّية، فلا أشك في أننا نتوفق إلى حله على وجه مرضٍ.

ومن عهد أقرب أيضًا، مثل هذا الشعور كان على وشك القيام بين إنجلترا وألمانيا. والأمل أنه زائل أو واجب الزوال. فالإشارات الودية التي أبديناها، قوبلنا بمثلها من الألمان. ففي برلين، وكولون، وفرانكفورت، وهامبورج، وميونيخ وغيرها من المدن الألمانية التجارية، عقدت الاجتماعات، وأصدرت القرارات، وعزم القوم على أن يحافظوا ليس على السلام فقط، بل على الوداد مع هذه البلاد. والألمان والإنجليز جميعًا يعلمون جيدًا أنه إذا شبّت الحرب بين القومين، فسواء انتصر الأولون أم الآخرون، وكائنًا السبب ما يكون، فالعاقبة وخيمة على الفريقين، وقد نتقهقر بسببها جيلًا إلى الوراء، ونجلب على الأمتين شديد الوبال وضروب الشقاء.

والحالة الحاضرة تلوح كفرصة مناسبة لوضع حدٍّ للاستعدادات الحربية، اعتبر ذلك بحالة بحريّاتنا. وهاك المقارنة التي عملها لورد إفرسلي في مقالة نشرها، عن البحريات الأوروبية:

المحمول بالطن

	إنجليزية	فرنساوية	ألمانية
بوارج	٧٦٩٩٠٠	٢٤٩٥٠٠	٢٣٠٠٠٠
طرادات	٢٨٠٦٠٠	١٤٨١٠٠	٥٥٧٠٠
	١٠٥٠٥٠٠	٣٩٧٦٠٠	٢٨٥٧٠٠

هذا والسفن الحربية القديمة وما أشبه غير داخلة في الإحصاء، وعلى فرض أنها دخلت، فالنسبة لا تتغير تغيرًا يُذكر.

وبحث صاحب الإحصاء المومى إليه، في لوائح بحريات هذه الممالك الثلاث، ووجد أن النسبة بعد تنفيذها تكون كما يأتي:

المحمول بالطن

	إنجليزية	فرنساوية	ألمانية
بوارج	١١١٩٠٠٠	٣٨٤٠٠٠	٥٢٣٠٠٠
طرادات	٨٠٩٠٠٠	٣٩٥٠٠٠	٢٢١٠٠٠
	١٩٢٨٠٠٠	٧٧٩٠٠٠	٧٤٤٠٠٠

فترى إذَنْ أنه إذا نُفذت هذه اللوائح، تحملت الدول الثلاث أثقالًا عظيمة من المصاريف وظلت النسبة بينها كما هي تقريبًا. واللورد إفرسلي يتساءل في مقالته المشار إليها: «ألا يمكن إحداث ترتيب دوليّ يضع حدًّا للاستعدادات الحربية عند هذه الدول الثلاث؟» وأنا أقول حبذا لو نحدث ترتيبًا معقولًا نستغني به عن كل ذلك مرة واحدة[1].

وغني عن البيان أننا لا نرضى أن تُهمل مصالحنا وتُهضم حقوقنا ولا ننتظر من الآخرين أن يرضوا بمثل هذا لأنفسهم. وجل ما نروم أن

(١) وحكومتنا أحدثت شيئًا من هذا القبيل منذ ظهرت هذه المقالة (١٩٠٦) ولا شك أن القوم يودون أن يحدثوا أكثر فأكثر – هذا إذا وافقت الممالك الأخرى واقتدت بهم.

نقبل على المشاكل الدولية بروح ودادية، ونحلها على طريقة حبية، وإذا عجزنا عن التسوية فيما بيننا وتعذر علينا الاتفاق وحسم الخلاف، عمدنا إلى دولة صديقة للطرفين وأقمناها حَكَمًا نرضى بحكمه وفصل خطابه. أجل إننا نريد أن دول أوروبا المختلفة تتعامل وتتصرف بعضها مع بعض معاملة الصديق للصديق وتصرف الجار مع الجار، وكالكرام لا كلصوص البرّ، وكأبناء دين لا كقرصان البحر.

يُقال: «خير مانع للحرب، هو الاستعداد للحرب». ولا شك أن هذا القول من الصحة بمكان بالنظر إلى مملكة معينة من الممالك، ولكن إذا نظرنا إلى أوروبا كافة، فليست هذه الاستعدادات إلَّا خطرًا يتهدد السلم العام.

فضلًا عن ذلك أن المقارنة بين أوروبا وأمريكا تلمع إلى اعتبارات مُهمة وخطيرة. فالمنافسات التجارية تشمل العالم كله. وأوروبا حتى في وقت السلم لا تخلو من ٤ مليون نفس تحت السلاح، ومصاريفها لأجل البرية والبحرية تفوق ٢٥٠ مليون جنيه سنويًّا. وبحرية الولايات المتحدة وبريتها مؤلفتان من ١٠٧ ألف جندي، ونفقاتهما لا تقل عن ٤٠ مليون جنيه، أما سكان الولايات المتحدة فيبلغون ٩٠ مليون، وسكان أوروبا كلها نحو ٣٥٠ مليون نفس. فترى إذَنْ أن سكان أوروبا أربعة أضعاف سكان الولايات المتحدة، أما جنودها فأكثر من جنود الولايات بأربعين مرة. فعلى شاطئ الأتلانتيك الواحد، ولايات أمريكا المتحدة، وعلى الشاطئ الآخر حكومات أوروبا غير المتحدة، بل المتفرّقة، بل

المتمزّقة المتميزة تحاسدًا وتضاغنًا- حكومات شاكية السلاح، مثقلة نفسها بالمعدّات وحملها، فتمشي غير آمنة عثارًا. فالوطنية -حب المرء لدولته- سجية من السجايا المحمودة، ولكن هنالك عاطفة إن لم تكن أشرف، فبالأقل أعم وأكرم، وأمسَّ لزومًا وضرورة باعتبار حالة العالم الحاضرة، ولكنها لسوء الحظ أكثر ندورًا وأقل وجودًا - ألا وهي الإخلاص الدولي المتبادل.

والاقتصادي الأمريكي المرحوم مستر أ. إتكنسون يقول: «إذا اعتبرنا الضرائب والمكوس التي تضرب في أوروبا، والمنافسات الحربية بين دولها، وقابلنا بينها وبين الولايات المتحدة من وجهة اقتصادية، وجدنا أن هذه المملكة تربح ٥ في المائة سنويًّا قبلما تتمكن القوات المتنافسة من دفع ضرائبها وتسديد نفقاتها الحربية. هذه هي العقبة التي يجب على أوروبا تجاوزها، وهذا هو الحمل الذي يلزمها أن تنجو من ثقله، قبلما تصح المباراة بين صناعتها وتجارتها، والصناعة والتجارة الأمريكيتين». ناهيك عن أن المصاريف الحربية في أوروبا قد زادت أضعافًا منذ كتب الكاتب حتى اليوم، ولعل الفرق بات يبلغ ١٠ في المائة في هذه الأيام. ولا يفهمنّ من قولي هذا أن الولايات المتحدة مصيبة في أمرها كل الإصابة، وأنها تستخدم وقتها ورجالها في الطريقة المثلى. فإن الخطة الجارية عليها من صرف الهمم والقوى بأسرها إلى المصانع والمعامل، وتحويلها عن ملايين الفدادين من الأرض الصالحة للزراعة، تلك الخطة مبعدة للشعب

عن عيشة القرى والمزارع الصحية الطبيعية، بحيث لا يرون بدًّا من الاحتشاد والازدحام في المدائن الكبرى. وهذا الخطأ وإن كان يعيق التقدم ويؤخره بعض الشيء، فإنه لا يمنعه منعًا. وقد كان يمكن للولايات المتحدة أن تعوّل علينا في اشتراء قسم من المصنوعات، لتصرف قسمًا من اعتنائها إلى أراضيها الواسعة وزراعتها.

ولكن ما هو مصير أعمالنا نحن الأوروبيين يا ترى؟ لا شك أننا متمتعون بعدة امتيازات ومنافع. ولكن ينبغي لنا أن ننظر إلى مستقبل أمرنا. فقليل من أراضينا ما لم نمسه باستعمال واستثمار. وصحيح أن مناجمنا الفحمية لم تنفد مادّتها بعد، ولكننا منذ اليوم مضطرون إلى التعميق وخرق طبقات الأرض لاستخراجها، ولا يخفى ما في الأمر من زيادة الكلفة. أما مناجم التنك والنحاس والحديد، فالأولى قريبة النفاد، والثانية غير بعيدته، والثالثة غير مستحيلته. ولما كان الأمر كذلك، فلا بد لنا من إعداد العدة لمستقبل الأيام.

ولكن ما أبعد أوروبا والحالة هذه عن تحقيق هذه الأمنية، فإنها أشبه بمعسكر ومحلة قتال. فأين السلم وأين السلام؟ حرب دائمة، تستنزف من أجلها الأموال وتبتزّ دراهم العمال، ولكن لا دمٌ يُراق أو يهرق والحمد لله. أما النتيجة فهي أننا عوضًا عن توفير رأسمال نتركه لأولادنا، ها نحن نثقل عواتقنا بديون نورثهم إياها.

فقد تبين أن أصحاب المعامل الأوروبية، مظلومون من هذا القبيل

ظلمًا لا قِبل لهم معه بمباراة المعامل الأمريكية، وإذا لم نتلاف الأمر زادت الحال إشكالًا. فضلًا عن ذلك أن انتشار الاشتراكية، وقيام الفوضى في أوروبا إنذار دائم بالخطر المحدق بحكوماتها وحكامها؛ إذ قد أصبحت حالة العمال أشد ضنكًا مما يحتمل ويطاق، وبحيث أصبح اكتفاء مؤونة الثورات موقوفًا على العمل على زيادة الأجرة، وتقليل ساعات العمل، وتنزيل أسعار الحاجيات والضروريات.

وخير الوسائط إلى هذه الغايات، إنما هي تخفيف مصاريف البحريات والبريّات. ومن الواجب على أوروبا أن تنظر إلى نتائج التسليح والتجنيد، البادية والخافية منها جميعًا. فإن الخوف من الحرب والاهتمام لاتقاء شرها مما يشغل الأفكار عن إتقان الصناعات وتحسينها، بل مما يغل الأيدي عن العمل.

ومصاريف الولايات المتحدة ومصاريف مستعمراتنا على بحرياتها وبرياتها ليست بشيء يذكر بجانب ما تصرفه دولتنا وسائر الدول الأوروبية في هذا السبيل، بحيث لا تزيد المباراة الصناعية والتجارية إلَّا صعوبة فوق صعوبة؛ ذلك لأن الصنائع تتحول بحكم الضرورة إلى البلدان الأخف ضرائب ومكوسًا، تحوّلًا تدريجيًّا، بحيث إذا كانت أوروبا لا تعدل عن منهجها هذا وتنهج نهجًا جديدًا، حق لها أن تتوقع سوء المصير وتخشاه. وبالحقيقة نظل كأننا على فوة البراكين، ما دمنا هذا دأبنا في الاستعدادات الحربية.

ولنذكر أن ضنك حال العمال والمشقات التي يكابدونها، لا تفتأ تمهد السبل لانتشار الاشتراكية، وإنه لا يُرجى إصلاح لأحوالهم المعائشية، مع الاستمرار على تحمل هذه المصاريف الحربية. وإني أخشى أن الاشتراكية ستزيد الأمر خطرًا وإشكالًا، ولكن ما الحيلة وهي النتيجة الطبيعية لتذمر الشعب من قسمهم وأقدارهم. وإذا لم يتدارك الحال بإصلاح، زادت حالة الفقير في أوروبا شرًّا وسوءًا. ولماذا التجاهل؟ وحتَّامَ التعامي؟ فالثورة إن لم تقدح شرارها عما قليل، فإنها كامنة كمون النار في العود، ولا بد من انفجار بركانها انفجارًا لم يسبق له مثيل. فإذا كانت ملوك أوروبا لتريد البقاء على عروشها، وإذا كنا لنود استتباب السلام، فليشرع الساسة الأوروبيون في تحسين العواطف وليعملوا ما يؤول إلى تخفيف الأثقال التي ينوء بها الصناع والعمال، والتي تزيد مصائب الحياة ومصاعبها زيادة هائلة.

وكثيرٌ من الممالك تحاول أن تحارب سواها بكثرة ما تقيم من الحواجز والتضييقات والتحديدات التجارية. اعتبر ذلك بالتحاسد، ومبادلة سوء الظن وزيادة الرسوم على الواردات وما أشبه.

فلا يخفى أن أغلب البلدان الأوروبية تزيد الرسوم وتعمل بغير مبدأ حرية التجارة. على أن هذا القول لا يصدق علينا وعلى القليل من الممالك المتنوّرة كهولندا وسويسرا. والولايات المتحدة نفسها عاملة بسياسة حماية التجارة، سياسة الحصر والتضييق التي تعيق التقدم

وتؤخره، مع أن تجارتها الداخلية من كندا شمالًا إلى المكسيك جنوبًا حرة مطلقة بين ولاياتها. فلنتأمل! لماذا يا ترى يجوز أن تكون الجارة حرّة بين ولاية ماساتشوستس وولاية كاليفورنيا، وبين ولايتي ماين وتكساس، فقط، ثم يوضع الحد الفاصل؟ وإذا كان وضع الرسوم على واردات كندا «وبريطانيا العظمى» يعود على نيويورك بالنفع والفائدة، فلماذا لا يتقاضى مثلها على واردات كاليفورنيا؟ ولماذا تجري حرية التجارة بين مرسيليا وكالاي، وفي عموم الإمبراطورية الألمانية، ولا تتناول لندرا أيضًا؟

إن وضع الرسوم على البضائع الأجنبية لا يعوّل عليه زيادةً للمدخول؛ لأن ثروة البلاد وتوفير مدخولها لا يأتيان عن سبيل تقاضي الرسوم، كما يمكن أن يأتيا عن طريق حرية التجارة. اعتبر ذلك بحالة داخلية البلاد الأمريكية والألمانية، فإن حرية التجارة فيها لتأتي بالنتائج الحسنة. والولايات المتحدة من هذا القبيل أصبحت أوسع ميدان لحرية التجارة في العالم بأسره. بينما الولايات (أي الحكومات) الأوروبية تنصب حبائل الرسوم بعضها لبعض، وتقيم الحواجز المتينة في وجه الصناعة والتجارة وتضرّ بعضها بعضًا.

وإليك فقرة من خطاب فاه به ماركيز أوف سالسبوري (١٨٩٧) مصيبًا من الحقيقة كبدها: «والاتحاد الأوروبي هو الوسيلة الوحيدة لاتقاء شرّ الحرب. لا يخفاكم أن آلات الفتك السريعة ومعدّات القتال

تتزايد عددًا وتحسنًا في كل قطر من الأقطار، وكل سنة لنا اختراع جديد، وطريقة جديدة، لفتك الإنسان بأخيه الإنسان. وكل أمة عاملة على حفظ كيانها، ومنخرطة في سلك المتنافسين المتبارين في هذا المضمار، مضمار الخراب والدمار. فإذا كنا نأمل أن نوقف هذا التيار عند حدٍّ محدود، ونخلص المدنية من ضربة الحرب القاضية، فما أملنا إلا بتحقيق أمنية تقارب الدول بعضٍ إلى بعض، وإحكام عرى المودّة والإخاء بين هذه وتلك، بحيث تصير تحسم الخلاف على طرائق حبية، حتى إذا تم وئامها ووفاقها، أصبحت أخيرًا كيانًا دوليًّا واحدًا، وأظهرت للعالم بأسره عجائب لم يحلم بها من نتائج حرية التجارة والسلام العام، ذلك بفضل قوتها المتحدة إذ ذاك». وهاك ما صرّح به المرحوم سير هنري كامبل بنرمان في خطاب ألقاه عام ١٩٠٥: «وفيما خص ألمانيا، إني لا أرى داعيًا ولا سببًا لتعطيل مصالح الأمتين المتبادلة، ونحن أبدًا نرحب ونسرُّ بالمظاهرات الودية ولو غير الرسمية التي يتبادلها القومان. وإني لواثق من أن زيادة الاهتمام بالتسليح والتجنيد، خطر عظيم على السلام العامّ. فإن سياسة زيادة المعدّات، تؤول إلى تثبيت الاعتقاد بأن القوة هي الطريقة الفضلى إن لم تكن الوحيدة لحسم الاختلافات وحلّ المشاكل الدولية. ولعمر الحق إنها لسياسة تؤول إلى إيجاد حزازات جديدة ونكء جراح قديمة. وإني لقائل لكم إنه لا يتمكن مبدأ السلم والتحكيم من النفوس مع توالي الأيام، حتى تنصرف همم الساسة والوطنيين إلى كيفية تغيير جميع هذه المعدّات الحربية بحيث تصير

موافقة لحالة السعادة والسلام. وأي دور أشرف تمثيلًا لبلادي على مرسح العالم، من دور قيادتها وترأسها لمحالفة سلمية تدأب وتسعى إلى هذه الغاية النبيلة؟».

وها قد بحثنا الآن في المسألة من وجهتيها المادّية والاقتصادية، إنما لا يحسن بنا أن ننسى أننا أمة مسيحية. ولو كانت الأمم المسيحية أُممًا من المسيحيين، العاملين بمبادئ رأس دينهم، لما كان هنالك حرب ولا قتال. وحالة أوروبا الحاضرة عار وشنار على الأوروبيين كبيران شديدان، وما ذلك لأن القتال مما يمجه الطبع السليم فقط، بل لأن الحرب ومبادئنا الدينية على طرفي نقيض. وحتى اليوم لسوء الحظ لا تخلو الصحافة ولا البرلمانات من رجال لا دأب لهم ولا شأن إلا في زرع بذور سوء الظن وتكبير أسباب الخلاف وتعظيمها، وإيغار صدور الشعوب ضغائن وأحقادًا، والنتيجة ما ترى من تلطخ صفحات تاريخ الإنسانية بدماء بني الإنسان مراقة بيد إخوانه في البشرية. على أن مصالحنا أهم من خلافاتنا. وكأني بالدول لا تدرك شدة ارتباط مصالحها بعضًا ببعض، وأن الأمم على اختلافها أعضاء جسم سياسي واحد، تتقدم الواحدة أو تتأخر فتؤثر حالتها على حالة أخواتها بدرجات متفاوتة.

في قديم الأزمان، كان كل فرد يثأر لنفسه، ويحصل حقه بيده. أما اليوم فقد أصبح ذلك محظورًا، بل جرمًا يعاقب فاعله. فعلى الفرد اليوم

أن يلتجئ إلى شرائع بلاده ويستعين بها على تحصيل حقوقه المهضومة. أفلم يأتِ بعد الوقت الذي تصير فيه الدول في حكم الأفراد، أي محظورًا عليها أن تثأر لنفسها ومنتظرًا منها أن تتقاضى بعضها إلى بعض؟

فالأمة كأمة ليست أفضل من الفرد كفرد، من حيث الحكم في الأحوال الشخصية، ولا يليق بالأمم الراقية أن تهبّ إلى السلاح، كما يفعل البرابرة عند أدنى خلاف. وأخلق بكل قومٍ يدخلون بلاد قومٍ رأسًا بالسيوف وبالمدافع، وقبل عرض أمرهم على مجلس تحكيم، أن يُعدّوا مخلين بالنظام ومكدّرين لصفاء السلام العام.

والأمر مهم من كل الوجوه وفي جميع الأحوال، بل إنه واجب وضربة لازب. أجل إنه لمن الضرورة بأعظم مكان أن نبذل المستطاع لتجنّب سوء التفاهم الدولي، ولتمكين عرى المودَّة والإخاء بين أمم الأرض جميعًا. والتوقف عن مواصلة التجهيزات والاحتياطات الحربية يكون بركة عظيمة للعالم عمومًا ولأوروبا خصوصًا، بل إنه قد ينجيها من تيار الثورات وينتشلها من بين براثن الشقاء؛ لأنه إذا تمّ خفّت إذ ذاك أثقال المكوس والضرائب، وخفّت مشقات ساعات العمل، وارتفعت أجور العمال وهبطت أسعار الضروريات والحاجيات، فتمت بذلك سعادة الشعب وانتفى شقاؤه. وإني لأمل إذَنْ أننا سننتهز الفرص للشروع في تحقيق هذه الأمنية. ولا بأس إن كنا نشرع ونحبط سعيًا، فما علينا إلا أن نفرغ ما في الوسع، وحسبنا الشعور بأننا بذلنا الجهد

والطاقة. على أنني لا أعزّز هذا الخوف من الخيبة والفشل؛ لأنني واثق من حسن طوية أوروبا وسلامة طبعها. وإذا تكللت أعمالنا بالنجاح، وقامت هذه السياسة مقام سياسة التحاسد وإساءة الظن، فقل هي نصرة سلمية، لا حربية، وبركة عظيمة لأوروبا وللعالم أجمع. عندئذ، وعندئذ فقط، يحق لنا أن نرجو لأوروبا مستقبلًا باهرًا وعظيمًا. ولأسمى مطمع يمكن لأمة أن تطمح إليه، إنما هو السبق في مضمار تأييد «السلام على الأرض وحسن الطوية بين الناس».

كلمة

في تقريظ هذا الكتاب[1]

عنيت منذ أشهر الصيف الماضي بمطالعة هذا السفر الجليل الموسوم بـ «السعادة والسلام» لمؤلفه العظيم اللورد أفبري باللغة الفرنسية، فأعجبني ما حوى من درر الحكم الغوالي، وبدائع الكلم الثمان، بين منثور ومنظوم، حتى رأيتني مسوقًا بدافع الإعجاب بالمؤلَّف والمؤلِّف إلى طلب الإذن من جناب اللورد بنقل كتابه هذا إلى اللغة العربية؛ خدمة لأبناء وطني الأعزاء. وقد نشرت بالفعل منه قطعة بالمؤيد الأغر بعددين من أعداد شهر ديسمبر سنة ١٩١٠، وما كنت أحسب أن حضرة الشاب الأديب وديع أفندي البستاني يفرغه في هذا

(١) بعد ما أوعز إليَّ حضرة اللورد بترجمة كتابه هذا، وبعدما عزمت على ذلك، اتفق أن حضرة الكاتب الفاضل والوطني الغيور صالح بك حمدي حماد اطلع على ترجمته الإفرنسية، فاستأذن المؤلف بنقله إلى العربية هو أيضًا ظنًّا منه أنني مترجمه باختصار، فأجابه بالإيجاب. ولكن لما اطلع حضرته على فصول الكتاب وهو على وشك الصدور، تكرَّم بكتابة هذه الكلمة. فلم يسعني إلا نشرها مقدمًا لحضرته خالص الشكر لأجل حسن ظنه بي ومردفًا بعض ما قلته في حضرته بعد ما تشرفت بمقابلته:

فصالحٌ صالح للمدح أمدحه ... والمدح للذات لا للأصل والنسبِ
إني خبرت سجاياه وشيمتـه ... فإن حمدت فحمدي غايــة الإربِ

القالب الذي عُنِي بإفراغه فيه. ولكن حضرته لما اطلع على ما عربت وأطلعني على هذه النسخة من ترجمته، سررت منها ورأيتهُ لم يبعد عما قصده المؤلف، وأن ترجمته قد جاءت وافية بالمرام، لا سيما وأنه لشاعريته قد ترجم الشِّعر شِعرًا. فلهذا لا يسعني سوى إطراء هذا الشاب الأديب والثناء على همته ونشاطه وحسن اختياره في خدمة الشبيبتين المصرية والسورية، وإتحافهما بأمثال هذا الكتاب الثمين، بل هذه الدرة اليتيمة. ولا غرو فحضرة وديع أفندي فرع تلك الدوحة البستانية التي جلت خدماتها للغة العربية الشريفة، وعظمت آثارها في النهضة الحديثة السورية والمصرية:

وزنـــدك مـن زنـــاد واريـــات إذا لم يحمد الزند الصلود

صالح حمدي حماد

القاهرة في ٨ ديسمبر ١٩١٠.

كلمة أخرى

وحضرة الصديق نقولا أفندي الحداد كان يطلع على الترجمة والأصل -والكتاب تحت الطبع- وكنت أشكر له اهتمامه بالموضوع كما أشكر له كتابه التالي:

حضرة الكاتب الشاعر وديع أفندي البستاني

جاء كتابك في «السعادة والسلام»، وهما يكادان ينقضيان من المجتمع البشري. فعسى أن يكون الكتاب رسولًا يبشر الملأ بهما أو رذاذًا يروي غرسهما.

أما السعادة، فهي شعور في النفس يؤثر لذةً في الجسد. فإذا رقينا النفس إلى ما شاءت لها المطامع والأميال، وتركنا الجسد مغلولًا بأغلال المجتمع البشري، بحيث يعجز عن نيل تلك الأميال وينوء تحت الهموم. فلعمرك أين السعادة! إننا بترقية نفسه وعقله نزيد وأيم الحق شقاءه.

أما السلام فهو تفاهم بين الأفراد يُنشئ وئامًا في المجتمع. فإذا رقينا تفاهمهم إلى ما شاءت لهم المصالح العامة والمنافع المشتركة، وتركنا القوانين والشرائع تطلق العنان للتنازع والتحاسد بين الأفراد

وبين الأمم، بحيث يبقى الاحتكاك شديدًا، فأي سلام نرجوه بين البشر!

أشكر الله أن كتابك قد يشفي العلتين ويروي الغلتين؟

أيها الأديب -ما دمنا نرى ربع القوى الاجتماعية- العضلية والمالية- موقوفة للتسليح استعدادًا لرد الغارات والتكافؤ في الحروب، فهل نعتقد أن بين الأمم تفاهمًا؟ وإذا لم يكن ثمة تفاهم، فأين السلام؟

وما دمنا نرى المحاكم غاصة بالمتقاضين، والسجون ملأى من المجرمين، وسواد الناس يكابدون شديد العناء لحفظ الرمق، ويرون أن الأرض على رحبها ضيقة بهم، ولولا أن الحياة عزيزة لتهافتوا إلى الانتحار - ما دمنا نرى ذلك، فهل نجد السعادة إذا نشدناها بين الأنام؟

متى تحولت السيوف والبنادق والمدافع إلى محاريث وآلات صناعية، والمدرعات والرعادات والغواصات والمدمرات إلى سفن تجارية، والجنود وضباطهم إلى عمال، والحصون والمعاقل إلى مرافئ ومعامل، وأموال الحروب والتجنيد إلى الملاجئ- قلنا حينئذ إن بين الأمم سلامًا.

ومتى تحولت المحاكم إلى أندية ومجالس، والسجون إلى مكاتب ومدارس، والمشروعات الكبرى إلى يد الأمة، بحيث ينال العامل أجره لقاء عمله- قلنا حينذاك إن الأنام في سعادة.

قد تقول إني أبتغي هذه السعادة من حلم، والحقيقة من وهم؛ لأن

التنازع سنة فوق كل سنة، والمطامع شريعة فوق كل شريعة، فأقول لماذا نغشّ إذَنْ أنفسنا بأننا عالم متفاهم، ومجتمع متوائم، ونحن بالحقيقة جمع متخاصم في نزاع دائم؟ وما فضل القوانين الدولية إذا لم ترمِ السلاح وتكسر السيوف والرماح، وتصرف الجنود وتمزق البنود؟ وما شأن القوانين المدنية إذا لم تساوِ بين أهل السعي وتحمي الضعيف من القوي وتنصف العامل من صاحب العمل؟

ولماذا نرى مثل ركفلر يجمع في حياته ثروة مليون من البشر، وهو لو أُعطي أجره بالحق جزاء حذقه وجهاده لما نال أكثر مما ينال رئيس جمهوريته، في حين أن ألوفًا من الناس يتوسلون إلى جزاء تعبهم فلا ينالونه؟

ولماذا نرى مئات لا همّ لهم إلا أن يتفننوا في قصفهم ولهوهم ويتنافسوا في بذخهم وترفهم، وألوفًا يتمنون الردى هربًا من شقائهم فلا يجدونه؟

ولماذا نرى الذين يساومون على الأعراض ويتاجرون بالفساد -يبيعون الخمور سمًّا للعقول والأجساد، ويدعون إلى القمار لتخريب الديار- لماذا نرى هؤلاء يجمعون الثروات وينعمون في الملذات، والذين يتمسكون بالفضيلة ويجاهدون في سبيل الاستقامة يتسولون عملًا من الهيئة الاجتماعية فتبخل عليهم به؟

وما هو فضل الشرائع الأدبية، ونحن نرى النفوس تتمادى في أغوائها وتتطوح في شهواتها وتقسو في مطامعها؟

لعمرك ما تلك القوانين الدولية والمدنية والأدبية إلا قيود وأغلال في أرجل وأيدي الأفاضل؛ كي يستحكم من مص دمائهم الأراذل.

وما تلك القوانين إلا خيالات وأشباح بلا نفوس ولا أرواح فلا قوة لها ولا حول.

لا ترجع الأنفس عن غيها

إن لم يكن منها لها زاجرُ

فترقية الأفراد والمجتمع تقوم بتقويم النفوس وتدميث الطبائع، لا بسن القوانين والشرائع. فيجب أن يُطرد الرجيم قبل أن يستفتى الحكيم.

وكتابك أعزّك الله قد عبرته بسرور، فرأيته قد تسدد إلى هذا الغرض. فإذا أصاب من الناشئة العزيزة رحابة، علمتْ منه فضل أدبك وفائدة درسك، وإلا فلك من ضميرك ثناء على قيامك بالواجب عليك. وأنت عامل من جملة عوامل الإصلاح التي أنتجها المجتمع، وبستاني في عداد البستانيين الذين ما فتئوا يشتغلون في حديقة العلوم والآداب التي غرس غراسها كبيرهم الخالد الآثار.

فاقبل أيها الصديق ثناء مَن يتمنى أن يكون عاملًا أهلًا بين عوامل المجتمع الصالحة.

نقولا الحداد

مصر ١٠ ديسمبر سنة ١٩١٠

الفهرس

إهداء الكتاب	٥
مقدمة للناشئتين المصرية والسورية سعادة وسلام!	٧
الفصل الأول: في السعادة	٩
الفصل الثاني: الجسم	٢٩
الفصل الثالث: العقل	٤٧
الفصل الرابع: الأمل	٦١
الفصل الخامس: القناعة	٧٥
الفصل السادس: الدهر	٩١
الفصل السابع: المعروف	١٠٣
الفصل الثامن: التهذيب	١١٧
الفصل التاسع: الأصدقاء والأعداء	١٢٩
الفصل العاشر: المال	١٤٧
الفصل الحادي عشر: الخوف من الطبيعة	١٥٧
الفصل الثاني عشر: حب الطبيعة	١٦٥

الفصل الثالث عشر: الوقت ١٨٣
الفصل الرابع عشر: الحكمة ١٩١
الفصل الخامس عشر: الدِّين ٢٠٣
الفصل السادس عشر: اللاهوت ٢١١
الفصل السابع عشر: السلام العقلي ٢٢٩
الفصل الثامن عشر: السلام الدُّوليّ ٢٤٣
كلمة في تقريظ هذا الكتاب ٢٦٣
كلمة أخرى ٢٦٥